الكتاب الأول

تاريخ الأدب العربى
فى عصر صدر الإسلام والخلافة الراشدة

للأستاذ الدكتور

حسن أحمد الكبير

العميد الأسبق لكلية اللغة العربية بالزقازيق

أستاذ الأدب والنقد



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علي من بعثه الله هاديا للحق وإلي طريق مستقيم، وبعد:

فكما هو معروف فإن الأدب سجل الأمم وحديثها الصادق عن نفسها في شتي مجالات الحياة، من سياسية واجتماعية وفكرية وعقدية وغير ذلك ولهذا صدق من قال: "الشعر ديوان العرب"، وإن كنا نستدرك عليه فنقول: "الأدب ديوان العرب بلونيه الشعر والنثر" وأن العرب وإن نشأت نشأة بدوية نتج عنها ضياع كثير من تراثها الفكري والأدبي والفني، فإنها سرعان ما خطت خطوات رائدة في مجال العلم والأدب وشتي المعارف، واستطاعت بذلك أن تجاري الأمم الأخري في مضمار الثقافة والعلوم، فكان لها علماؤها ومثقفوها وأدباؤها وشعراؤها الذين امتلأت بأسمائهم صفحات التاريخ وسجلتها بمداد من الفخار والتقدير.

ونحن في هذه الدراسة الموجزة نتابع معالم الأدب العربي في فترة من تاريخه الخصبة وهي: عصر صدر الإسلام والخلافة الراشدة، وتقع بين ظهور الإسلام حتي قيام الدولة الأموية عام ٤١هـ الذي سمي بعام الجماعة حيث تنازل الحسن بن علي رضي الله عنهما عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان حقنا لدماء المسلمين بعد مقتل الإمام علي ﷺ في شهر ذي الحجة سنة ٤٠هـ.

وإذا كنا لا نستطيع أن نحيط بأدب هذا العصر، ودراسة اتجاهاته وأدبائه من شعراء وكتاب لغزارة هذا النتاج وتشعبه وكثـرة رجالـه، فإننا نحرص علي أن نضع أمام القارئ صورة واضحة عن أدب هـذه الفترة ـ شعره ونثره ـ وأن تبرز هذه الدراسة أهـم أغـراض هـذا الأدب وخصائص أساليبه ومعانيه، وأن نقـدم مـادة ميسـرة تغـري بالقراءة للاستفادة منها وتعطي صورة واضحة عن أدب هذا العصر ٠

وقد قسمنا هذه الدراسة إلي مقدمة، وتمهيد ثم أربعـة فصـول: الفصل الأول يشمل دراسة عن المؤثرات في أدب هذا العصر، والثاني عن النثر الفني وأعلامه، والثالث عن الشعر والشعراء، والرابع بحـث بعنوان: أبوطالب شاعر الدعوة المحمدية، والفصل الخامس: مدخل إلي الأدب الإسلامي وخصائصه الفنية ٠

ثم فهرست المصادر والمراجع، وفهرست الموضوعات ٠

ونرجو أن يكون فيما قدمناه وعرضنا له بالدراسة والتحليل النفع والفائدة وأن يتحقق ما هدفنا إليه من إلقاء أضواء كاشفة علي أدب هذا العصر الذي كان بداية زاهرة للمسيرة الإسلامية والمنطلق إلي إبـراز مبادئ الإسلام وقواعده السمحة٠

والله من وراء القصد، وهو الهادي إلي سواء السبيل،

أ.د/ حسن أحمد الكبير

المعادي الجديدة:	**العميد الأسبق لكلية اللغة العربية**
في الثالث من شهر رمضان المعظم سنة ١٤٢٨هـ	**فرع جامعة الأزهر بالزقازيق**
الموافق ١٢ من سبتمبر ٢٠٠٧م	**أستاذ الأدب العربي ونقده**

تمهيد

الإسلام وأثره في الفكر والأدب

١ - يمتد عصر صدر الإسلام زهاء ثلاث وخمسين سنة حيث يبدأ من قيام الرسول محمد ـ ﷺ ـ بالدعوة ـ في مكة ـ إلي الإسلام لمدة اثني عشر عاما قبل الهجرة، ثم هجرة الرسول ـ ﷺ ـ إلي المدينة، واستمرار الحكم الإسلامي بعد وفاته ـ ﷺ ـ إلي مقتل الإمام علي ﷺ في ذي الحجة سنة ٤٠هـ ثم مبايعة الحسن ابنه معاوية بالخلافة سنة ٤١هـ.

٢ - ومن الحقائق الثابتة أن النبي ـ ﷺ ـ قد لاقي صعوبات لا تحصي في نقل العرب من عقليتهم الجاهلية إلي عقلية إسلامية ـ فقد أبطل الإسلام كثيرا من عادات العرب ومعتقداتهم في الجاهلية ولذلك وقفوا في وجه الدعوة الإسلامية يعارضونها، ويهاجمون الرسول ـ ﷺ ـ ومن آمن به، في محاولة عنيفة لوقف هذا التيار الجديد الذي يهدد عقيدتهم الدينية تهديدا خطيرا، ويزلزل الأرض التي استقرت تحت أقدامهم منذ أن أرسي آباؤهم الأولون تقاليدها، وظل النبي يدعو ـ في مسالمة ولين جانب ـ الناس إلي ربه طوال مدة وجوده في مكة المكرمة.

ويلاحظ علي هذه الفترة أن المعارضة للمسلمين كانت شديدة، ولذلك لم تؤت الدعوة الإسلامية ثمارها، وظل العرب في مجمعهم علي طبائعهم وأخلاقهم الجاهلية. حتي كانت الهجرة وبدأ الصراع

الحقيقي بين المسلمين الفارين بدينهم من دولة الشرك إلي يثرب حاملين معهم الدعوة إلي الدين الجديد، وبين المشركين وحماة الوثنية ومن التف حولهم من القبائل ومن تآمر معهم من اليهود. وقد تحول هذا الصراع إلي صراع حزبي. وإلي صراع فني. حيث وقف شعراء كل فريق يذودون عن معتقداتهم ويهاجمون الطرف الآخر. كما أخذ القرآن الكريم الذي يتنزل علي محمد ﷺ [1] يجادل أهل الكتاب، ويحاججهم فيما أثاروه من اتهامات للدين الجديد ومحاولات للتعريض به، والتشكيك فيه. إلي أن استقر الأمر بعد فتح مكة سنة ٨هـ حيث دخل الناس في دين الله أفواجا، وبعد النصر العظيم الذي تحقق بفتح مكة . تشرق الأرض بنور ربها، ويتحول المجتمع العربي من قبليته المتعصبة إلي مجتمع تسوده المحبة والأخوة، وتختفي منه المنازعات والحرب المهلكة.

ولأول مرة في تاريخ العرب تقوم لهم دولة موحدة لها حكومة تقوم علي شئونها، ولها نظام سياسي واجتماعي منظم، ولأول مرة في التاريخ تظهر الوحدة العربية التي تنتظم العربي والعجمي.

٣ – وقد بدأ أدب الدعوة الإسلامية بالقرآن الكريم، فهو حجة الله البيانية التي تحمل رسالته إلي الناس، نزل بها الوحي علي نبي الأمة ليكون بلاغا مبينا ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ

---

(١) انظر هذا والصفحات التالية: نصوص أدبية من عصري صدر الإسلام والأموي صـ٦ وما بعدها للمؤلف.

﴿حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ متضمنا أصول الدين وأحكامه، وقد قام الرسول ﷺ علي شرحه للناس، وتفسير ما جاء به قولا وعملا، وقام الأصفياء من صحابته رضوان الله تعالي عليهم علي أمر هذا الدين، فكانوا لسان صدق في العالمين، يبينون للناس، ويدعون إلي دين ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة، فكانت خطبهم في المحافل ترجمانا صادقا لما استكن في صدورهم من الإيمان، فقد اشتهر بينهم جماعة من الفصحاء البلغاء في الخطابة والشعر، فمن فصحاء الصحابة: أبوبكر وعمر وعلي بن أبي طالب وعثمان بن عفان، وسحبان بن وائل والقعقاع بن عمرو — وهو من أصحاب علي بن أبي طالب الأصفياء — وعبدالله ابن عباس، وعمرو بن العاص، ومن الشعراء كوكبة عظيمة يحمل لواءهم حسان بن ثابت وكعب بن زهير، وعبدالله بن رواحة وحمزة بن عبدالمطلب ، والحارث بن هشام بن المغيرة، وكعب بن مالك .

وكان لموقف هؤلاء الشعراء من الدعوة الإسلامية أثر حميد لأنهم حاربوا بألسنتهم كما حارب غيرهم بالسيوف والرماح، بل كانت أشعارهم أشد وقعا وأنكي فتكا كما عرفت الغزوات والفتوحات الإسلامية جماعة من الخطباء المفوهين والشعراء المجيدين، حرضوا علي القتال، وخلدوا الانتصارات، وأشادوا بالجهاد في سبيل نصرة الإسلام، وأعلوا كلمة الله، من هؤلاء: الشاعر الفارسي أبومحجن الثقفي، وبشر بن ربيعة الخثعمي، والنابغة الجعدي، وغيرهم ممن حاربوا بالكلمة ونافحوا بالقول المنظوم الكافرين وأعوانهم.

٤ – والناظر في آراء النقاد والدارسين يجد شبه اتفاق بينهم علي أن الإسلام لم يحدث تغييرا كبيرا في منهج القصيدة العربية . ويرجع الدكتور مندور ذلك إلي أن المسيحية قد قضت علي الأدب القديم خلال القرون الوسطي لأنه كان يمثل الديانة الوثنية فلم تقبله المسيحية كما لم يقبله الإسلام، وبذلك لم يكن فيما وصل إلينا من الشعر الجاهلي أثر لتلك الديانة ولهذا لم يحاربه الإسلام وإن كان من الثابت اتفاق المسلمين علي محاربة الروح القبلية التي كانت شائعة في هذا الشعر، إلا أن هذه المحاربة كانت لأغراض سياسية أكثر منها دينية وبذلك لم تنجح إلا في حدود ضيقة لم تؤثر في تقاليد الشعر الموروثة عن العصر الجاهلي[١] .

ويري آخرون أن ذلك راجع إلي أن معاني الهجاء والمدح وغيرها كانت متمكنة من نفس الشعراء المسلمين والكافرين علي السواء، فالشجاعة والكرم والبطش بالأعداء والوفاء بالعهود صفات يمدح بها الشعراء الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، كما كانوا يمدحون ملوكهم وسادتهم القدماء، وصورة الهجاء القائمة علي بيان الضعة في الأنساب والعجز عن حماية الجار والقعود عن الثأر والفرار وغير ذلك من معاني الشعر الجاهلي ظلت علي ألسنة الشعراء في الإسلام يهجون بها أعداءهم. فكعب بن زهير يمدح النبي ـ ﷺ ـ سنة

(١) راجع النقد المنهجي لمندور ص٤٩ وما بعدها ، والمرجع السابق صـ٨ وما بعدها للمؤلف.

٩هـ بقصيدة شهيرة ألفها علي منوال قصائد أهل البادية في مدح سادتهم ولولا البيتان:

نُبِّئْتُ أَنَّ رسولَ اللهِ أَوْعَدَنِي .·. وَالعفْوُ عِندَ رَسُولِ اللهِ مَأْمُولُ

مَهلاً هَدَاكَ الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةَ الـ .·. ـقُرآنِ فِيهِ مَوَاعِيظٌ وَتَفْصِيلُ

والبيت الثالث:

إِنَّ الرَّسُولَ لَنورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ .·. مُهَنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ مَسْلُولُ

لقلنا إنه أراد قائدا أو سيدا من قومه لا نبيا جليلا أتي بدين جديد، ثم في نفس تلك القصيدة مدح المهاجرين فلم يصفهم إلا بالحماسة والشجاعة[١].

وهذا يؤكد ما ذهب إليه بعض الباحثين من تمكن صفات المدح والهجاء وغيرها في نفوس الشعراء . وهذا ما نرتضيه سببا لعدم ظهور أثر قوي للإسلام في الشعر العربي . مضافا إليه ما ذكره الدكتور مندور، ونرفض بذلك الآراء الأخري التي أرجعت عدم وجود هذا الأثر إلي انشغال المسلمين بأمور الدين والنبوة والوحي[٢] ، أو "لأن أهل البادية كانوا من أبعد الناس عن روح الإسلام ولا ميل لهم إلي تأمل أمور الدين وفهمها فصعب دخول الإيمان في قلوبهم" كما أن "أغلب أهل الوبر لم يسلموا إلا كارهين أو طامعين فيما كانوا يزجونه

---

(١) تاريخ الآداب العربية صـ١٠٤ وما بعدها .

(٢) راجع مقدمة ابن خلدون صـ٥٨١ من طبعة بيروت ١٩٠٠، والمزهر للسيوطي جـ٢ ص٢٩٣ طبعة مصر، وطبقات الشعراء ص١٠ .

من الربح والمنفعة والغنيمة فلم يعتبروا النبي إلا كأنه ملك من الملوك القادرين الأعزاء الذين لا يمكن معاداتهم"(١) فهـذا قـول بعيـد عـن الصواب والحقيقة. فلم يكن محمد معاديا لأحد، ولم يفرض دينه علـي أحد بالخوف أو الرهبة. فقد كانت الحرية والعدالة والإخاء والمسـاواة أبرز معالم هذا الدين الذي يدعو إليه محمد عليه الصلاة والسلام . في وقت كانت البشرية ترسف في أغلال الاستعباد والاستبداد والطغيـان، ويفتك أقوياؤهم بضعفائهم ولا يستطيع منصف أن ينكر فضل الإسـلام علي البشرية وما تميز به من صفات رفيعة. يقول "جوستاف لوبـون": "إن القوة لم تكن عاملا في نشر القرآن، وإن العـرب تركـوا النـاس أحرارا في أديانهم، وإذا كان بعض النصاري قد أسلموا، واتخذوا اللغة العربية لغة لهم ، فذلك لما يتصف به العرب الغالبون مـن ضـروب العدل الذي لم يكن للناس بمثله عهد ... ولقد عاملوا بلطف عظيم أهل سورية ومصر وإسبانيا وكل قطر استولوا عليه وتركوا لهم معتقـداتهم ونظمهم، ولم يفرضوا عليهم سوي جزية زهيدة في مقابل حمايتهم لهم وحفظ الأمن بينهم ... والحق أن الأمم لـم تعـرف فـاتحين رحمـاء متسامين مثل العرب"(٢).

وفيما تميز به الإسلام من مبادئ جديدة وقيم رفيعة قـال فـارس الخوري "إن محمدا أعظم عظماء الأرض سـابقهم ولاحقهـم، فلقـد

(١) تاريخ الآداب العربية ص١١٢، ١١٣ .

(٢) حضارة العرب ١٤٥ لجوستاف لوبون. وراجع القومية العربية في الشـعر الحديث ص٢٥٧ .

استطاع أن يوحد العرب بعد شتاتهم وأنشأ منهم أمة موحدة فتحت العالم المعروف يومئذ، ونشر بها أعظم ديانة عينت للناس حقوقهم وواجباتهم وأصول تعاملهم علي أسس من أرقي دساتير العالم وأكملها"[١].

ولهذا لم يمض زمن طويل علي ظهور هذه الدعوة حتي أخذ الناس ﴿ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ وأخذت معاني الإسلام وروحانيته تتعمق في نفوس المسلمين خلال عصر الخلفاء الراشدين ففاضت أشعار بعضهم بالحكم والمواعظ الغالية كالنابغة الجعدي ولبيد، ولكنه كما قلنا تأثير جانبي لا يمس العناصر الأصلية التي انتظمت بناء القصيدة العربية في الشعر الجاهلي[٢].

٥ - أما عن النثر الفني في هذا العهد، فلا يكاد يختلف اختلافا كثيرا عن النثر الجاهلي من الناحية الشكلية التي تتصل بالألفاظ والأساليب ، ذلك لأن شكل الحياة نفسه لم يكن قد تغير بعد، فالصحراء هي الصحراء بكل ما فيها من جبال ورمال وسهول ووديان، ووهاد ونجاد، فلم تجد البيئة العربية عند بدء الدعوة الإسلامية مظاهر جديدة، ومعني هذا أن منازع الخيال كانت واحدة فيما بين العهدين.

أما أغراض النثر ومعانيه ، فإنها بلا شك قد تغيرت تغيرا محسوسا بظهور الإسلام، لأن الإسلام كان انقلابا فكريا وعاطفيا وجه

---

(١) منبر الإسلام ربيع الأول سنة ١٣٨٥ (٣٠ يونية ١٩٦٥) وراجع القومية العربية في الشعر الحديث ص٣٢٤ .

(٢) راجع التطور والتجديد في العصر الأموي ص١٣ ــ ٢١ .

افكار الناس وأحاسيسهم توجيها جديداً، ودفع اللسان والقلم إلي التعبير عن أغراضه، والذود عن حرماته والاستماتة في سبيل نشره، ورفع كلمته، فكانت تلك الموضوعات الجديدة التي شغل بها النثر الفني في صدر الإسلام والتي لم يكن لها وجود من قبل في العصر الجاهلي[١].

فقد ارتقي النثر الفني في عصر صدر الإسلام بتأثير القرآن الكريم وبلاغة الرسول ارتقاء عظيما، لأنه هو الموافق للجد الذي أخذ العرب في سبيله، فدعا به النبي ﷺ قومه إلي الإسلام، وراسل به الملوك، وكتب به العهود، وشرح به الدين، وكذلك فعل أصحابه من بعده في خطبهم حين الاستخلاف وفي كتبهم بتولية عهودهم، وأوامرهم إلي قوادهم ووصاياهم لولاتهم ، وإرشادهم لقضاتهم وحثهم علي اجتماع الكلمة والتئام وحدتهم، وتزهيدهم في الدنيا، ودعوتهم إلي الاستشهاد في سبيل الله فكانت الخطابة والكتابة في مقدمة الفنون النثرية في عهد البعثة المحمدية[٢] .

---

(١) راجع النثر الفني وأثر الجاحظ فيه صـ١١٢ ط٢ لجنة البيان العربي.
(٢) انظر كتاب نصوص أدبية من عصري صدر الإسلام والأموي صـ٢٧ وما بعدها للمؤلف.

الفصل الأول
المؤثرات في أدب العصر الإسلامي

أ- القرآن الكريم وأثره في اللغة:

القرآن الكريم هو كتاب الله الذي أنزله علي نبيه محمد ﷺ ليكون برهان نبوته ودليل رسالته والمعجزة الخالدة علي مر الزمن، فيه آيات بينات ودلائل واضحات، وأخبار صادقة، ومواعظ بليغة، وشريعة واضحة، فهو آية الله الدائمة، وحجته الخالدة، ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾.

وقد نزل القرآن الكريم علي محمد ﷺ ، جاءه به الروح الأمين منجما بحسب الحوادث والمقتضيات، فاستغرق نزوله بضعا وعشرين سنة بين مكة والمدينة، وكان أكثر ما نزل منه بمكة .

وكان الوحي ينزل علي رسول الله ﷺ بالآيات من القرآن إرشادا للمسلمين في أمر من أمور دينهم، أو تجلية لغامض من شئونهم، أو إجابة لسائل أو بشري بنصر ، أو تعزيرا لمقصر، أو صفحا عن مذنب، أو فضيحة لمنافق، أو براءة لمتهم إلي غير ذلك من أغراضه الشريفة، فصاغ من تلك الأمة المفككة العري المقطوعة الأواصر أمة تجتمع علي كلمة واحدة، وضمن لها السعادة باتباع سبيله والاهتداء بنوره، عباراته تأخذ بالألباب، وأساليبه يعجز البشر عن محاكاتها، فهو نثر معجز، يتكون من آيات متينة التراكيب حلوة النغم، عذبة الإيقاع، تارة تكون آياته متفقة الفواصل، وطورا تكون متوازنة تتساوي فيها

الفقرات، وتتحد فيها الجمل، وأحيانا يخلو من هذا وذاك، ليس لأحد من البشر بالغا ما بلغ من الفصاحة أن يأتي بمثل آياته أو يفكر في محاكاتها، أنزله الله علي رسوله ليبلغه قومه وهم فحول البلاغة وأمراء الكلام فبهرهم بيانه، وأذهلهم إحكام آياته، فاهتدي به من صح نظره، وصد عنه أهل العناد والمكابرة، فتحداهم أن يأتوا بمثله فنكصوا ، ثم بعشر سور مثله فعجزوا، ثم بسورة من مثله فانقطعوا ، فحق عليهم إعجازه. ولذلك كان رسول الله ﷺ عندما يمضي في ترتيله عليهم يبهر السامعين ويأخذ بمجامع قلوبهم، سواء أكانوا من أنصاره أم كانوا من أعدائه. فقد روي أن الوليد بن المغيرة وهو من أكابر قريش وسادتها وكان من ألد الخصوم للرسول ﷺ قد سمع من النبي ﷺ بعض آيات من القرآن الكريم، فلما عاد إلي قومه قال لهم: "والله لقد سمعت من محمد كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة[١] ، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق[٢]، وإنه يعلو ولا يعلي عليه" وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[٣].

وللقرآن فضل عظيم علي اللغة، فقد أثر فيها بما لم يؤثر أي كتاب، سماويا كان أو غير سماوي في اللغة التي كان بها. إذ ضمن

(١) طلاوة بضم الطاء : حسن وبهاء .
(٢) أسفله لمغدق: يحيط به الخير من كل جوانبه، فالمغدق الكثير الخير .
(٣) سورة الإسراء آية ٨٨ .

لها حياة مستمرة وزودها بمعان لم تعرفها، وعبارات لم يكن لها عهد بها، فدعا الناس إلي عبادة الله الواحد، والتأمل في خلقه، والوصول إلي الدليل علي وحدانيته من النظر في السموات والأرض وما فيها ، ومن تاريخ الأمم وما فيه من عظات، وخاطب في الإنسان وجدانه وعواطفه حينا، وعقله وفكره حينا آخر، وقرر أن حياة الإنسان إلي زوال وأن هناك حياة أخري بعد البعث والنشور، وأن كل نفس بما كسبت رهينة، وأن المرء محاسب علي أعماله إن خيرا فخير وإن شرا فشر، وأفاض في وصف الجنة والنار والثواب والعقاب في الدار الآخرة.

ومن آثاره أيضا أنه أمد اللغة العربية بكلمات جديدة كالنفاق والكفر والإيمان، والشرك والإسلام، والصلاة والسلام والزكاة والتيمم، والركوع والسجود، والجنة والنار، والوضوء، والغسل، وغير ذلك من الكلمات والمصطلحات .

كما أنه هذب اللغة العربية من الغريب المهجور، وأبعدها عن الزوائد والفضول فاللفظ علي قدر المعني كأنما رسم له رسما ، ومن أسلوب القرآن الكريم ونهجه القويم، أخذ الكتاب والخطباء والشعراء يصوغون آثارهم الأدبية مهتدين بأسلوب القرآن الكريم وحسن مخارج الحروف فيه، ودقة الكلمات في مواضعها من العبارات، مستوفية معانيها.

ويقتبسون من آياته فيما يقولون، ويستشهدون بهـا فـي قـولهم ووعظهم ومحاوراتهم وجدلهم .

كما ظهر أثره واضحا في توحيد لهجات العرب في أفصح لهجة وأعذب لغة وهي لغة قريش، وارتقي بها من حيث أغراضها ومعانيها وألفاظها وأساليبها فأصبحت اللغة بفضله خالدة باقية، كما أوجد القرآن الكريم علوما عديدة وفنونا شتي، مثل النحو، والصـرف، والبلاغـة، والأدب، والبديع، والقراءات، والتفسير، وأصول اللغة، وأصول الفقه، والتوحيد، والفقه، والتجويد، كما دفع بالشعراء الإسلاميين إلـي هجـر الأغراض الجاهلية من المبالغة في المديح والفخر والهجاء، والمجـون في الغزل، والدعوة إلي العصبية والانتقام والأخذ بالثأر، واتجهوا إلـي الأغراض الشريفة السامية كالدعوة إلي الفضيلة والبر والخير والبـذل والعطاء في سبيل الله والجهاد والتضحية من أجـل نصـرة الإسـلام والمسلمين، والدعوة إلي الالتزام بالقيم والآداب الإسلامية، ومـا زال القرآن الكريم معينا لا ينضب للبلغاء والأدباء والكتاب والفقهاء وأرباب القلم والفكر، فهو كتابهم الأدبي ودستورهم الخالد الـذي أضـاء لهـم الطريق فساروا علي هداه مهما اختلفت ألوانهم وتباعدت ديارهم[١].

ب- الحديث النبوي وأثره في اللغة:

لقد بعث الله محمدا ﷺ في هذه الأمة العربية التي تعتـز ببيانهـا وتباهي بفصاحتها، وبلغت في الفصاحة والبلاغة ما لم تبلغه أمة مـن

---

(١) انظر في هذا: كتاب نصوص أدبية من عصري صدر الإسـلام والأمـوي صـ١١ وما بعدها للمؤلف .

الأمم، فلم يكن يستطيع محمد ﷺ أن يظهر عليهم إلا بسلاحهم فأيده الله تعالي بالقرآن الكريم فبهرهم حسنه واستحوذ علي عقولهم أسره، ولما كان الرسول ﷺ محتاجا إلي التأثير في قومه ودعوتهم إلي الدين بأسلوب آسر، وبلاغة تفوق بلاغتهم فقد أنبته الله نباتا حسنا فجعله من قريش وهي في الذروة من الفصاحة، واختاره من خير بيوتها نسبا وصهرا، ثم كانت رضاعته في بني سعد وهم من أفصح القبائل، فنشأ ﷺ علي غير ما يعهد العرب في فصحائهم وما يألفون من بلغائهم، حتي لقد قال له أبو بكر الصديق رضي الله تعالي عنه: "لقد طفت في العرب وسمعت فصحاءهم، فما سمعت أفصح منك، فمن أدبك؟ ــ أي علمك ــ فقال عليه الصلاة والسلام : "أدبني ربي فأحسن تأديبي".

ولم تقف عناية الله برسوله إلي حد المولد والنشأة بل لقد علمه لغات العرب كلها فكان يخاطب كل قبيلة بلغتها فيبزهم فيها، ومثل ذلك لا يكون إلا بتعليم وتلقين من الله تعالي.

ولم يقف الأمر عند معرفة الرسول صلوات ربي وسلامه عليه بلغات العرب، بل كان الأمر أعظم من ذلك ، فقد أخذ يخاطب قومه بما لم يعهدوه في لغتهم، ولم يأثروه عن بلغائهم، كقوله في الحرب يوم حنين: "الآن حمي الوطيس" والوطيس: التنور ومجتمع النيران، استعاره رسول الله ﷺ لشدة الحرب، وقوله لأبي تميمة الجهيني : "إياك والمخيلة" فقال يا رسول الله نحن قوم عرب فما المخيلة؟ فقال عليه الصلاة والسلام : "سبل الإزار" يكني بذلك عن الكبر والخيلاء، وقوله:

"هدنة علي دخن والدخن دخان النار، يريد عليه الصلاة والسلام أن الصلح لم يذهب بالأحقاد جملة كما يبقي شئ من النار تحت الرماد فيستدل عليه بما يتصاعد عنه من دخان. وقوله لأنجشة حادي إبله وفيها النساء: "رفقا بالقوارير" وهي كناية عن النساء ليس بعد جمالها جمال، وقوله: "لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين" وهذا القول قاله النبي ﷺ لأبي عزة الشاعر، أسر يوم بدر، ثم من عليه رسول الله ﷺ ، وأتاه يوم أحد أسيرا، فقال: من علي، فقال عليه الصلاة والسلام: "لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين" أي لو كنت مؤمنا حقا لما عاودت قتالنا. وقوله: "إياكم وخضراء الدمن" قيل له وما ذاك يا رسول الله ؟ قال: المرأة الحسناء في منبت السوء،شبهها بالشجرة الناضرة في دمنة البعر[١] وأكلها مؤذ. وغير ذلك كثير مما ورد عنه ﷺ . هذا إلي جانب جوامع كلمه عليه الصلاة والسلام التي اشتملت علي الحكمة الرائعة وجرت مجري المثل، كلمة عليه الصلاة والسلام : "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده"، وقوله: "اليد العليا خير من اليد السفلي"، وقوله: "إنما الصبر عند الصدمة الأولي"، وقوله: "إن من البيان لسحرا" وقوله: "ترك الشر صدقة".

فالحديث النبوي هو ذلك القول الحكيم، الصادر من الرسول ﷺ ، الذي لا ينطق عن الهوي، وما أثر عنه، يأتي في درجة البيان بعد القرآن الكريم، يقتبس الأديب من لفظه، ويستمد من أثره، ويستضئ الحكيم بحكمته، ويستعين به الفقيه علي إصدار أحكامه من أمور الدين،

---

(١) دمنة البعر: ما اختلط من البعر والطين عند حوض المياه فتلبد (المزبلة).

وهو الأصل الثاني للتشريع الإسلامي، ولذا وجدناه تفصيلا لما أجملــه القرآن، وتوضيحا لأهدافه ومقاصده، متناولا شئون الدين والدنيا مــن عبادات، ومعاملات، وتنظيم للمجتمع علي أسس سليمة تقوم علي حسن العلاقة بين أهله وأدب السلوك فيه.

وقد استفادت اللغة العربية من الحديث النبوي الشريف اســتفادة عظيمة فقد زاد عليه الصلاة والسلام في اللغة ألفاظا كثيرة، وأجــري فيها اشتقاقات عديدة، وتوسع في معاني بعض ألفاظها بما لم يعهد قبله، فكان للغة منه مادة جديدة زادت من ثروتها، ووسعت من حصــيلتها. فمن ذلك تسميته "صفرا الأول" "محرما" وذلك حــين أبطــل الإســلام النسئ، وكذلك وصفه عليه الصلاة والسلام لفرس ركبه بأنه: "بحر" أي ينساب في جريه كما ينساب ماء البحر، كذلك وصفه للزانية بالزمــارة قال ثعلب: "الزمارة: الزانية لأنها تشيع أمرها كأنها تنفخ فــي بــوق، وهذه الكلمة لم تسمع إلا في هذا الحديث الذي رواه أبوهريرة ﷺ عــن النبي ﷺ "إن النبي نهي عن كسب الزمارة".

هذا إلي جانب ألفاظ كثيرة جرت علي لسانه ﷺ في بيان الشريعة الإسلامية لم ترد في القرآن الكريم.

كذلك فقد ساعد الحديث النبوي علي تهــذيب الألســنة، وتثقيــف الطباع والقضاء علي الحوشية والغرابة والتعقيد في البيان، وأحل محل ذلك السلامة والسهولة والرونق والوضوح وسلامة الأسلوب وتــرابط الكلام، كما قضي علي سجع الكهان، ورفع منزلة النثر بعــد أن كــان

الشعر في مقدمة الفن القولي، وهذب أغراض الأدب وفنونه. كما أثـر الحديث النبوي في معاني الأدباء والشعراء وأخيلـتهم تـأثيرا كبيـرا فنضجت بسببه معانيهم، ودقت أفكارهم وأصبحت المعـاني يسـودها الإحكام والترتيب، ويغلب عليها السمو والطهر والنزوع إلـي المثـل العليا والمبادئ الشريفة. كما أثر في أغراض الأدب تأثيرا كبيرا فهجر الشعراء الهجاء الكذب والفخر المبالغ فيه، والغزل الماجن، والـدعوة إلي الانتقام والأخذ بالثأر، وإثارة العصبية وغير ذلك من الأغـراض والمعاني المجافية للأخلاق الإسلامية مما كـان سـائدا فـي الشـعر الجاهلي.

واتجه الشعراء إلي النظم في الدعوة إلي الخير والحق والفضيلة، وفي نصرة الإسلام والدفاع عنه والجهـاد فـي سـبيل الله بـالأنفس والأموال، وفي تأييد العقيدة الإسلامية وفي كل شريف من الأغـراض وكريم من الموضوعات.

ومن ذلك يتبين لنا أن الإسلام كان فتحا جديدا في حيـاة الأمـة العربية، فقد شملت قوانينه كل فرع من هذه الحياة، وكان القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بداية حقيقية لتغيير العقليـة العربيـة والحيـاة بأسرها، فقد قضت تعاليم الإسلام السـمحة علـي العصـبية القبليـة والمفاخرات بالأحساب والأنساب، وأثرت تعاليم الإسلام الجديدة في كل قلب، وانعكس ذلك علي الفنون الأدبية فانتظم الشعراء فـي صـفوف المجاهدين يحاربون معهم بالكلمة المنغومة، ويستلهمون فـي شـعرهم

مبادئ الإسلام وقيمه، متأثرين في معانيهم وأساليبهم بـــالقرآن الكـــريم والسنة النبوية، كما نشأت فنون نثرية جديدة لم يكن للعرب عهد بهـــا مثل المـــواعظ الدينيـــة، والخطابـــة الدينيـــة، والرســـائل السياســـية والتشريعية.

الفصل الثاني

النثر الفني وأعلامه

مدخل:

مما لا شك فيه أن الإسلام بمبادئه ودعوته الإصلاحية كان انقلابا هائلا في الحياة السياسية والاجتماعية والدينية والأدبية والفكرية فقد غير من أوضاع الأمة العربية تغييرا هائلا في كل ناحية من نواحي حياتها بدرجة لم تكن لأي حدث في أية أمة سواها، حتي إننا لنقول وبصدق إن الإسلام خلق الأمة خلقا جديدا فكان لذلك أثره البالغ في كل مناحي الحياة ، فقد جاء الإسلام يدعو إلي دين واحد ونبذ المعتقدات الزائفة من أصنام وغيرها ،أساسه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ويأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا. وكانت مبادئه وتشريعاته السمحة لها أثرها العظيم في تغيير نفسية العرب في عقائدهم وعباداتهم، في عاداتهم وأخلاقهم وتعاملاتهم، ونظم حياتهم، وكان أسرع ما طبعوا عليه وعملوا به واتخذوه الإمام والقدوة اللغة فقد حادوا بها عن القديم إلي ما أشاعه الإسلام في نفوسهم فنبذوا المعبودات السابقة، وتركوا الأوهام والخرافات، كذلك لم يبق بينهم ميدان للتفاخر بالعصبية والدعاء بدعوي الجاهلية. وصارت كلمة التوحيد هي السائدة وتغذية الأمة بروح الإسلام ومعالم الدين ووقفها علي أسرار هذا الدين وما دعا إليه حتي تعتصم بحبله المتين وتستمسك بعروته التي لا تنفصم وأصبح القرآن الكريم هو المثل الحي أمامهم في كلامهم ومعاملاتهم، وبذلك

تغير حسهم ووجداناتهم فقد بهرهم القرآن بأسلوبه ومحكم آياته وتلاؤم فواصله، فاتجهوا إليه يقتبسون وبه يستعينون فكـــان المنبــع المعــين والقرار المكين، ومع أنهم عجزوا عن محاكاته فإن أثــره ظهــر فــي كلامهم من حيث الألفاظ والأساليب والمعاني والأغراض، فأخــذ بيــد اللغة إلي ذروة البيان ونهض بها إلي المكانة السامية مــن الفصــاحة والبلاغة في الألفاظ والأساليب والأغراض ومطابقة الكلام لمقتضــي الأحوال .

وإذا كان للعرب في جاهليتهم نثر يلائم حياتهم وما كان بينهم من تنافس علي موارد العشب والماء وحروب لا تكاد تنقطع فإن ما وصل إلينا من نصوص صحيحة لا يكاد يذكر، أما أزهي عصور الخطابــة العربية فهو عصر صدر الإسلام وبني أمية، ذلك أن حياة الجهاد التي شملت الأمة العربية في هذين العصرين كانت فاتحتها دعوة الرســول ﷺ إلي الدين الجديد، فاضطر العرب إلي الخصام والمحاجة للدفاع عن عقائدهم الموروثة، وكان النبي ﷺ وأصحابه يبذلون جهدهم في تأييــد هذا الدين الجديد بألسنتهم وخطبهم.

ولما قبض النبي ﷺ كثرت الأحداث والفتن التي طال فيها الجدل والاختلاف في الرأي واحتدم فيها النزاع. وكان أول ما ظهر من ذلك اختلاف المهاجرين والأنصار فيمن يتولي أمر الأمة بعد النبي ﷺ ، ثم كانت فتنة المرتدين في عهد أبي بكر رضي الله تعالي عنه، والــدعوة إلي جهادهم ثم تجهيز الجيوش للجهاد في سبيل الله، ثم نكبة المســلمين

بمقتل عثمان بن عفان وانقسام جماعة المسلمين إلي شيع وأحزاب أيام علي بن أبي طالب، وزمن دولة بني أمية ، يحارب بعضها بعضا، فكانت الخطابة سلاح المتجادلين وأداة المتخاصمين، يوضح كل منهم بها مذهبه، ويدلي من خلالها بحجته ليس هذا فقط، وإنما كان للخطابة مع ظهور الإسلام شأن وأي شأن فقد جعلها الدين شعار الاجتماعات الرسمية كالجمعة والعيدين، وموسم الحج، كما كان عليها اعتماد القوم عند التقاء الصفوف وقدوم الوفود ولذلك تنوعت الخطابة ما بين دينية، وسياسية وحزبية، واجتماعية، ووصلت الخطابة في هذه الفترة إلي أرقي منزلة بتأثير القرآن الكريم والحديث النبوي وما تناولته من جوانب الحياة المختلفة التي أوضحناها، وكان أعظم الخطباء علي الإطلاق في عصر صدر الإسلام هو النبي ﷺ ، ثم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ ، ومن أشهر الخطباء: زياد بن أبيه، والحجاج بن يوسف الثقفي .

كما ظهر فن آخر من فنون النثر في عصر صدر الإسلام وهو فن الرسائل الأدبية، وهذا الفن جديد في الأدب الإسلامي ظهرت بوادره في عهد النبوة والخلافة الراشدة، وقد روي للرسول عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين كثير من الرسائل البلغة الموجزة، إلا أن هذا اللون الأدبي قد اتسع اتساعا عظيما وتطور تطورا كبيرا في العصر الأموي علي يد سالم مولي هشام، وعبدالحميد الكاتب، وتعددت ألوان هذه الرسائل وتنوعت حتي كانت معلما بارزا من معالم

النهضة الأدبية في العصر الأموي ، وفي الصفحات التاليـة عـرض لأهم ألوان النثر في هذا العصر.

أولا: الخطابة:

لقد ازدهرت الخطابة في العصر الجاهلي ازدهارا عظيما، ولكنها مع هذا الازدهار لم تكن تعني بالترتيب والتسلسل، ولا تخاطب العقـل مخاطبة واعية بصيرة ،وكان الارتجال هو الغالب علي هذه الخطـب مع كثرة الخطباء، وهذا ما يؤكده الجاحظ في كتابه البيـان والتبيـين حيث يقول: "وكل شئ للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنـه إلهـام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكر"[١] وجاء محمـد عليـه الصلاة والسلام والخطابة الجاهلية لا ترتكز علي أساس مـن وحـدة الموضوع وصحة المنطق، فأحدث فيها انقلابا كبيرا إذ لـم يرهـا ﷺ مجال خلابة ومباهاة، وموضوع افتخار بالفصـاحة والإغـراب فـي المعاني، فوضع عليه الصلاة والسلام بخطبه الميزان الجديد للخطيـب المنصف الأمين، وقد هيأت الأقدار لمحمد عليه الصـلاة والسـلام أن يكون المثل الأعلي للخطيب الممتاز، فقد اهتم عليه الصـلاة والسـلام بالموضوع في خطبه، فلا يهم بالحديث في موقف من المواقف حتـي يهيئ معاني القول، لأنه يعلم أنه مسئول عن كل لفـظ، وأن صـحابته سيتداولون حديثه كما نطق به ،فلابد أن يختار من الألفاظ المحددة بما لا يدع المجال للتفريع والثرثرة والافتخار بالفصـاحة، كمـا امتـازت خطبه بالإيجاز، فالإيجاز العربي في بلاغته المعجزة وليد ذهن ثاقـب

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ٢/ ٣٥ .

يستعرض حشودا من المعاني ليبرزها في عبارة محددة، تكون جوامع الكلم وشوارد المثل ، فهي عصارة مركزة لمادة دسمة تضم من أسباب القوة ما يتيح لها التغلب والنفاذ ، فالرسول عليه الصلاة والسلام لا يقر الثرثرة والحشو في الكلام ويري أن الثرثرة مضـــرة ببلاغـــة القـــول ومدعاة الشغب في القول[١] حتي قال في حديثه الشريف:"إن أبغضـــكم إلي وأبعدكم مني مجلسا يوم القيامة الثرثارون المتشدقون المتفيهقون"٠

فظهور الإسلام كان من أهم الأسباب التي بلغت بالخطابة غايـــة كمالها فقد اتخذها الرسول أداة للدعوة إلي الدين الحنيف ، يبين للنـــاس معالم الدين الحنيف الذي جاء به ومعانيه الروحية التي تقوم علي تأكيد وجدانية الله سبحانه وتعالي، كما تقوم علي الترغيب في العمل الصالح، والإيمان بأن وراء هذه الحياة التي نحياها حياة أخري، يجد المرء فيها جزاء ما عمل، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، فكانت الخطابة عدته في أكثر مواقفه عليه الصلاة والسلام منذ أن أمر أن يجهر بالدعوة حتـــي انتقل إلي الرفيق الأعلي . لقد كان يعرض الحلول لمشكلات المجتمع ، كمشكلة الرق، وتوزيع الثروة، وتحديد العلاقة بـــين الرجـــل والمـــرأة وميراث البنات وعدم حرمانهم من ثروات آبائهم، وغيـــر ذلـــك مـــن المشكلات ، ولهذا كانت خطابة الرسول شارحة للقرآن الكريم ومتممة له ، ومن هنا كانت فرضا في صلاة الجمعة، وشـــاعت فـــي مواســـم الحج٠

---

(١) انظر : البيان النبوي للدكتور / محمد رجب البيومي ط دار الفكر ــ مـــايو ١٩٨٠م ــ ١/ ٤٤ ٠

وقد ظهر إلي جانب الخطابة الدينية الخطابة السياسية، استجابة للمواقف التي كانت تطرأ في المجتمع الإسلامي كخطب أبي بكر ﷺ في يوم السقيفة، وخطبه حين ارتد بعض العرب وامتنعوا عن أداء الزكاة، كما اتخذها الدعاة والمعلمون الذين كانوا يرسلون إلي القبائل العربية مبشرين ومعلمين، أداة لهم ووسيلة تحقق مهمتهم، وتوصلهم إلي غايتهم، كما اتخذها القادة السياسيون وسيلة لهم في شرح سياستهم وتبليغ أخبارهم وتوجيه دعواتهم إلي الناس من حولهم، وجعلوها وسيلة لاستنفار الناس إلي الحروب ومحاجة الخصوم أثناء الفتن، واتخذها السفراء أيضا في إقناع من يرسلون إليهم، وفي شرح غايتهم ، ثم تكون الفتوحات ويخطب أبوبكر وعمر في الجيوش الغازية يحض كل منهما علي الجهاد ونشر الدين الحنيف وترتفع أصوات القواد بالخطابة في كل قطر، يحثون علي الصبر في القتال، حتي الاستشهاد، طلبا لما عند الله من الثواب والنعيم المقيم .

ثم تستمر المعركة بين علي ومعاوية ويتكاثر الخطباء ويزدادون كل له خطباؤه وتجري بين الفريقين مناظرات عمادها الجدل المستمد من نصوص القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، وهكذا أدت الأحداث وتتابعها في المجتمع الإسلامي إلي ازدهار الخطابة ودقتها .

خصائص الخطابة:

علي الرغم من تلك الأحداث السياسية ظلت الخطابة تستمد معانيها من القرآن الكريم تارة، ومن خطابة رسول الله ﷺ وأحاديثه

تارة أخري، وأصبح ابتداؤها بحمد الله والصلاة والسلام علي رسوله ملتزما بصفة عامة، وفي خطب الجمع والعيدين بصفة خاصة، وكانت كل خطبة تخلو من التحميد يسمونها : "البتراء" كما يسمون كل خطبة تخلو من الاقتباس من القرآن الكريم والصلاة علي الرسول "شوهاء" كما كان الخطيب أحيانا يستشهد بالشعر تأكيدا للمعني الذي يريده.

إلي جانب عذوبة ألفاظها ومتانة أسلوبها وقوة تأثيرها في النفوس، واقتباسها من القرآن الكريم، وخطابة الرسول وأحاديثه وانتهاجها منهجه حتي لقد يجعل بعض الخطباء خطبته كاملة مجموع آيات قرآنية، كما فعل مصعب بن الزبير ، لما قدم العراق وأراد أن يحرض أهله علي الطاعة لأخيه عبدالله بن الزبير، فصعد المنبر وقال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وأشار بيده نحو الشام ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ (وأشار بيده نحو الحجاز) ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ (وأشار بيده إلي العراق) [١].

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ٢/ ٢٩ وانظر: تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ١/ ١٩١ دار الهلال .

كما أصبحت الخطابة تدور حول موضوع واحد غالب يجول فيه الخطيب ويصول فيعرض حدثه محددا من أحداث الإسلام ثم يلم بأطرافه وتفاصيله، مع شئ كثير من الموازنة والاقتباس ليؤكد الخطيب بها معانيه التي يريد أن يصبها في نفوس سامعيه.

كما أن خطباء هذا العصر قد حرصوا علي البعد عن السجع حتي انحسر تماما عن خطابة هذا العصر، ولم يكن إلا شيئا عارضا، إذ كان الرسول ﷺ لا يسجع في خطابته، وكان ينفر منه حين يلهج به أحد محدثيه كراهية للتشبه بسجع الكهان، الذي كان غرضا من أغراض الخطابة في العصر الجاهلي، وسار علي هديه الخلفاء الراشدون وغيرهم من صحابته رضوان الله تعالي عليهم. وإذا كان خطباء هذا العصر قد أهملوا السجع فإنهم لم يهملوا جزالة اللفظ ورصانته بل كان هم كل خطيب أن يحسن قوله وأن يصوغه صياغة رائعة، مما جعل بعض الخطباء ـ كما تذكر بعض الروايات ـ يعددن كلامهم وينظرون فيه ثم يلقونه علي الناس، وقد روي ذلك عن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب(١). هذا وقد بقي للخطابة في هذا العهد كثير من عاداتها الجاهلية القديمة، فقد كان الخطباء لا تخطبون إلا قائمين علي مرتفع من الأرض يشرفون منه علي السامعين، ومن هنا جعلت المنابر في بيوت الله ، وكانوا إذا قاموا اعتمدوا علي شئ في أيديهم كعصا أو سيف من الخشب، هذا إلي ما يعنون به من لبس العمامة، والاشتمال

---

(١) تاريخ الطبري ٢/ ٤٥٦ وعيون الأخبار ٢/ ٢٣٥ وانظر: العصر الإسلامي للدكتور شوقي ضيف ط٧ دار المعارف بمصر .

بالرداء وحسن الزي وإصابة الإشارة وجهارة الصوت مع جمال الموقف وتمام الوقار إلي غير ذلك مما إذا صحب فصاحة الخطيب وبلاغته وصل ببيانه الغاية المنشودة من نفوس السامعين وحقق الغرض المطلوب في قلوب المستمعين ٠

والتضمين من الأمثال والأشعار والحكم الإسلامية ، وها هي أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ عندما نزل عليه قول الحق تبارك وتعالي: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[1] فقد روي البخاري ومسلم عن ابن عباس قال: "لما نزلت ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ خرج رسول الله ﷺ حتي صعد الصفا، فهتف يا صاحباه، فقالوا: من هذا ؟ فاجتمعوا إليه فقال: "أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبا، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب عظيم " فقال أبولهب: تبا لك ألهذا جمعتنا؟! ثم قام فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ السورة ٠

فهذه خطبة موجزة بليغة ، من جوامع كلمه عليه الصلاة والسلام حيث تمرس بأساليب البيان والإيجاز، وعرف خطر الكلمة ووقعها علي النفوس، وهذا الإيجاز هو الغالب علي خطب رسول الله ﷺ وقد فطن الأستاذ أحمد حسن الزيات إلي روعة الإيجاز في بيان محمد عليه الصلاة والسلام فقال: "الإيجاز هو تأدية المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة وهذا غالب علي أسلوب الرسول، لأن الإيجاز قوة في التعبير، وامتلاء

---

(١) سورة الشعراء آية ٢١٤ ٠

في اللفظ، وشدة في التماسك، وهذه صفات تلازم قوة العقل، وقوة الروح، وقوة الشعور، وهذه القوي كلها علي أكمل ما تكون في الرسول، ومن هنا نشأت جوامع الكلم في خطبه"(١).

ومع حرص الرسول علي الإيجاز في خطبه، فقد يستدعي الموقف أن يفيض في القول، وأن يسهب في التوجيه والإرشاد. ومن ذلك خطبته التي عرفت بخطبة الوداع. ونثبتها هنا كاملة لأنها نموذج رفيع للخطابة التي تعكس الأسس الفنية للخطابة وأركانها الأساسية.

ففي موقف تاريخي خالد ، وفي مشهد مهيب رائع، وفي يوم من أيام الله المحرمة، وفي ساحة عرفات الطاهرة، وفي حجة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة، ركب محمد عليه الصلاة والسلام ناقته القصواء، وهتف في الجموع الحاشدة التي تحيط به يبلغ الناس وحي الله، ويلقي إليهم دستور الحياة، في آخر لقاء مع أضخم حشد من جموع المسلمين، فقد حرص عليه الصلاة والسلام علي أن يوصيهم وصيته الجامعة، فلعله لا يلقاهم بعد عامه هذا، ولعله يقف بينهم بعد موقفه هذا. فقال: "إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، نعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أوصيكم بتقوي الله، وأحثكم علي طاعة الله، وأستفتح بالذي هو خير ، أما بعد :

---

(١) وحي الرسالة للزيات ٣/ ١٩ .

أيها الناس، اسمعوا مني أبين لكم، فإني لا أدري لعلي لا ألقـاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا، أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم حـرام عليكم إلي أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلـدكم هذا ، وأنتم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، ألا هل بلغت ؟ اللهـم اشهد ٠

فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلي من ائتمنه عليها، وإن كل ربـا موضوع[١] ولكن لكم رءوس أموالكم، قضي الله أنكم لا تظلمـون ولا تظلمون، قضي الله أنه لا ربا، وأن ربا عمي العباس بن عبـدالمطلب كله موضوع، وأن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وأن أول دمائكم أضع: دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب، وكان مسترضعا في بني ليث فقتلته هذيل، فهو أول ما أبدأ به مـن دم الجاهليـة، وإن مآثر الجاهلية موضوعه غير السدانة والسقاية[٢]، والعمد قود[٣]، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهـل الجاهلية. أيها الناس: إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضـكم هـذه، ولكنه رضي أن يطاع فيما سوي ذلك مما تحقرون من أعمالكم، أيهـا الناس: "إنما النسيء[٤] زيادة في الكفر، يضل به الذين كفـروا يحلونـه عاما ويحرمونه عاما، ليواطئوا عدة ما حرم الله" ، وإن الزمـان قـد

---

(١) موضوع: أي ساقط محرم ٠

(٢) السدانة: خدمة الكعبة، والسقاية: سقاية الحجاج ٠

(٣) العمد: أي القتل المتعمد، والقود: قتل القاتل عن عمد ٠

(٤) النسيء شهر المحرم كانوا يحرمونه عاما ويحلونـه عامـا آخـر إذا أرادوا الإغارة علي الأعداء يقولون إنه بعد شهر صفر ويؤجلونه ٠

استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ﴾ ثلاثة متواليات، وواحدة فرد ، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادي وشعبان، أيها الناس: إن لنسائكم عليكم حقا، ولكم عليهن حق، لكم عليهن ألا يوطئن فراشكم أحدا تكرهونه، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن، فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضربا غير مبرح، فإن انتهين فأطعنكم، فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيرا، فإنهن عندكم عوان، لا يملكن لأنفسهن شيئا، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيرا، أيها الناس: اسمعوا قولي فإني قد بلغت وقد تركت منكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا، أمرا بينا: كتاب الله وسنة نبيه . أيها الناس: اسمعوا قولي واعقلوه، لتعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم، اللهم هل بلغت؟ قالوا: اللهم: نعم، فقال: اللهم اشهد، فلا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي علي عجمي فضل إلا بالتقوي، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد، قالوا: نعم، قال: فليبلغ الشاهد منكم الغائب، أيها الناس: إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا

فيكم

يجوز لوارث وصية، ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث، والولد للفراش، وللعاهر الحجر[١]، من ادعي إلي غير أبيه أو تولي غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا[٢] والسلام عليكم ورحمة الله"[٣].

هذه الخطبة خطبة جامعة جمعت أصول الدين وقواعد البر، ومنهج السلوك الإنساني مع أخيه الإنسان، ونظمت علاقة المرء بربه وبنفسه وبالمجتمع الذي يعيش فيه، لقد أعلنت حقوق الإنسان للعالم أجمع قبل أن تعرف دساتير الأرض ما هي حقوق الإنسان بأكثر من ألف عام، إنها رسمت الطريق وأوضحت المعالم، وبينت حدود الله، ولم تكن تلك القيم بعيدة عن أذهان الناس بعد أن استقر الإسلام وقامت دولته، فقد جاء بها القرآن الكريم وطبقها الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو هنا يركز عليها ويذكر بها ويدعو إلي التمسك بها والعمل علي هديها قبل أن يلتحق بالرفيق الأعلي، لأنها تضع أساس الحياة الكريمة لكل أفراد المجتمع التي لو عملوا بها لكانوا بحق خير أمة أخرجت للناس.

يقول الدكتور شوقي ضيف شارحا خصائص هذه الخطبة: وهذه الخطبة تصور في دقة حسن منطق الرسول في خطابته، وأنه لم يكن

---

(١) أي إن الثمرة الناتجة عن الزنا لا تنسب إلي الزاني وإنما ينسب الولد لأمه، وللعاهر الحجر، أي للزاني الخيبة والخسران.

(٢) الصرف: التوبة، والعدل: الفدية.

(٣) هذه الخطبة ورد أكثرها في صحيح البخاري بتقديم بعض الألفاظ وتأخير بعض، وفي إرشاد الناسك أنه خرجها مسلم وأبوداود وابن ماجة عن جابر مرفوعا.

يستعين فيها بسجع ولا بلفظ غريب، فقد كان يكره اللونين جميعا من الكلام لما يدلان عليه من التكلف، وقد برأه الله منه إذ يقول في كتابه العزيز: قل يا محمد "ما أنا من المتكلفين" والذي لا شك فيه أنه كان يبلغ بعفوه وقوي فطرته ما تنقطع دونه رقاب البلغاء"[١] ولذلك نجد الجاحظ يصف بلاغة رسول الله ﷺ وصفا يعكس خصائص خطابته وأقواله جميعها فيقول: "إنه جانب أصحاب التعقيب ، واستعمل المبسوط في موضع البسط والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة ، وشيد بالتأييد، ويسر بالتوفيق، وهو الكلام الذي ألقي الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول، وجمع له من المهابة والحلاوة، وبين حسن الأفهام وقلة عدد الكلام ، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجته السامع إلي معاودته، لم تسقط له كلمة، ولا زلت له قدم، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبذ الخطب الطوال بالكلم القصار، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق، ولا يطلب الفلج[٢] إلا بالحق ولا يستعين بالخلابة ... ولم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ولا أقصد لفظا، ولا أعدل وزنا، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا، ولا أحسن موقعا، ولا أسهل مخرجا، ولا أفصح معني، ولا أبين في فحوي[٣] من كلامه ﷺ" [٤].

---

(١) العصر الإسلامي للدكتور شوقي ضيف ط٧ صـ١٢ دار المعارف بمصر .
(٢) الفلج: الفوز والتغلب علي الخصم .
(٣) فحوي : دلالة .
(٤) البيان والتبيين للجاحظ ، وانظر: العصر الإسلامي صـ١٢١ .

أشهر خطباء عصر الإسلام

أما أشهر الخطباء في عصر صدر الإسلام والخلفاء الراشدين بعد محمد عليه الصلاة والسلام: خلفاؤه أبوبكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، والحجاج بن يوسف الثقفي، وزياد بن أبيه، وقطري ابن الفجاءة وسحبان بن وائل، غير أن بعضهم كان أخطب من بعض، فعلي بن أبي طالب قد كان خطيبا موهوبا، حتي إن كلامه يأتي في مراتب البلاغة بعد القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وكلام سيد المرسلين.

١- **أبوبكر الصديق** ﷺ: يذكر المؤرخون أن اسمه عبدالله بن أبي قحافة، وأن أبا قحافة أبوه، اسمه عثمان بن عامر، ويروي أنه كان يدعي قبل الإسلام عبدالكعبة، فلما أسلم دعاه الرسول ﷺ عبدالله، وقيل إنه كان يسمى عتيقا، لأنه لم يكن يعيش لأمه ـ سلمي بنت صخر بن عامر ـ ولد، فنذرت إن ولد لها ولد أن تسميه: عبدالكعبة وتتصدق به عليها، فلما عاش أبوبكر وشب سمي عتيقا كأنه أعتق من الموت، علي أن الرواة يذهبون إلي أن اسمه لم يكن عتيقا، وإنما كان لقبا عليه لبياض لونه، وتذكر بعض الروايات أن عائشة ابنته سئلت: لم سمي أبوبكر عتيقا؟ قالت: نظر إليه رسول الله فقال: هذا عتيق الله من النار أو لأن أبا بكر أقبل يوما ومعه طائفة من أصحابه، فقال رسول الله : "من سره أن ينظر إلي عتيق من النار فلينظر إلي هذا" أما كنيته: أبوبكر، فقد ذكر بعض الرواة المتأخرين أنه كنى بها لأنه بكر إلي

الإسلام قبل غيره وقد ولد أبوبكر سنة ٥٥ قبل الهجرة (٥٦٨م) في مكة ، وعاش في طفولته وصباه عيشة أمثاله بمكة، فلما بلغ سن الشباب عمل في التجارة بزازا يبيع الثياب، فكان موفقا في تجارته، أما عن خلقه، فقد حدثتنا عنه ابنته عائشة فقالت: كان رجلا رضي الخلق رقيق الطبع، رزينا، لا يغلبه الهوي ولا تملكه الشهوة، وكان لرزانته وحسن رأيه ورجاحة عقله لا يشارك قومه في كثير من عقائدهم وعاداتهم، كما ذكرت أنه لم يشرب الخمر في جاهليته ولا إسلامه علي الرغم من انتشارها في مجتمعه، وكان نسابة، حسن الحديث، لطيف العشرة وكانت إقامته بمكة بالحي الذي تعيش فيه خديجة بنت خويلد، سببا في ارتباطه بمحمد عليه الصلاة والسلام برباط الألفة والمحبة، بعد أن تزوج محمد من خديجة وانتقل إلي دارها، وكان أبوبكر يصغر محمدا بسنتين وبضعة أشهر، فلما بعث محمد ذكر أبا بكر ورجاحة عقله فتحدث إليه ودعاه إلي الإسلام، فلم يتردد أبوبكر وأجاب داعي الله ومن يومئذ توثقت الصلة بينه وبين رسول الله ﷺ ثم زادها صدق أبي بكر في الإيمان بمحمد ورسالته متانة وقوة، فقول عائشة رضي الله عنها: "ما عقلتُ أبوي إلا وهما يدينان الدين، وما مر علينا يوم قط إلا ورسول الله يأتينا فيه بكرة وعشية"(١).

ومنذ اليوم الأول للدعوة المحمدية شارك أبوبكر محمدا في الدعوة إلي الله ، فاستجاب الكثير إليه حيث تابع أبا بكر علي الإسلام

---

(١) انظر: الصديق أبوبكر للأستاذ محمد حسين هيكل ط٢ مطبعة مصر ١٣٦٣هـ.

عثمان بن عفان وعبدالرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص ، والزبير بن العوام ، كما أسلم من بعدهم بدعوة أبي بكر: أبوعبيدة بن الجراح، وكثيرون غيره من أهل مكة. يقول عليه الصلاة والسلام عن أبي بكر وإسلامه: "ما دعوت أحدا إلي الإسلام إلا كانت عنده فيه كبوة ونظر وتردد، إلا ما كان من أبي بكر بن أبى قحافة، ما عكم ــ ما انتظر ولا عدل ــ حين ذكرته له وما تردد فيه" فأبوبكر كان من حكماء أهل مكة الذين يرون أن عبادة الأصنام حمق وجهل، وإنه كان يعرف من أمر محمد وأمانته وصدقه ورجاحة عقله ما لم يدع في نفسه موضعا للريبة فيما قص عليه مما رأي وسمع في غار حراء والوحي الذي نزل عليه، وقد بلغت قوة إيمانه بالدين الجديد وبالرسول الذي جاء به من عند الله مبلغا لا تدانيه قوة، ولا يتغلب عليه سلطان، وكان لذلك أثره في السنوات الأولي من الدعوة المحمدية، وبقي ذلك الأثر إلي أن تولي الخلافة وإلي أن مات ﷺ .

وأبوبكر لم يسلم من أذي قريش، كما لم يسلم محمد من هذا الأذى، ولم ير أبوبكر قريشا تؤذى محمدا إلا وقف وعرض حياته للدفاع عنه ، وله من المواقف المشهودة في هذا الجانب ما لا يحصي، وعن جهوده في الدفاع عن المسلمين وافتداء الأرقاء الذين أسلموا، فعذبهم سادتهم من أجل إسلامهم وأذاقوهم الهوان ألوانا، فهذا جانب من جهاده وتضحياته فعندما رأي بلالا الحبشي قد ألقاه سيده علي الرمال في لظي الشمس المحرقة ، ووضع حجرا علي صدره وتركه ليموت لأنه أسلم، ولم نرد بلال وهو علي هذه الحال علي أن يكرر: "أحد أحد" عند ذلك

اشتراه أبوبكر وأعتقه، وعذب عامر بن فهيرة فاصطفاه أبوبكر راعبا لأغنامه، واشتري كثيرا من الموالي رجالا ونساء ممن تعرضوا لعذاب أسيادهم بسبب إسلامهم وأعتقهم. ولما كانت الإسراء في السنة الأولي قبل الهجرة، صدق أبوبكر رسول الله ﷺ في كل ما قاله، فسماه الرسول: "الصديق"، وكان رفيق رسول الله في هجرته، واختبأ في غار ثور ريثما يهدأ عنهما الطلب، وعندما مر المشركون بالغار ووقفوا ينظرون استشعر أبوبكر شيئا من الخوف، لا علي نفسه، وإنما علي رسول الله فطمأنه الرسول وقال له: "لا تخف يا أبا بكر، إن الله معنا"، وفي ذلك نزل القرآن الكريم، حيث يقول جل جلاله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾[١].

وبعد وفاة الرسول ﷺ اختار المسلمون أبابكر خليفة، فقضي في الخلافة سنتين من سنة ١١ ــ ١٣ للهجرة (٦٣٢هــ ــ ٦٣٤م) وحدثت في أيامه الردة، فتصدي لها، وسير المجاهدين لإخمادها فردوا العرب إلي الله وطاعة رسوله، وفي أيامه بدأت الفتوح في العراق والشام، واتسعت رقعة الإسلام .

ثم إنه فتح العراق، وأوشكت جيوشه أن تدخل المدائن عاصمة الفرس وساير النصر أعلامه إلي دمشق، وبينما تبهر هذه الانتصارات

---

(١) سورة التوبة آية ٤٠ .

أنظار العالم يخطو أبو بكر خطوة أخرى فيقيم الحكم في البلاد العربية علي أساس الشوري، ثم يجمع كتاب الله في مصحف واحد، حيث كان القرآن الكريم متفرقا في الصحف عند نفر من الصحابة وفي صدور القراء، فيقر له الجميع بأنه أعظم المسلمين أجرا في جمعه للقرآن الكريم .

وإذا كانت عظمة مجهود الخليفة الأول في تدعيم ركائز الدولة الإسلامية خلال سنتين وثلاثة أشهر إلي جانب تقدم السن، فإن ذلك قد أسلمه إلي المرض، فقد أصابته الحمي ـ كما يذكر ابناه عبدالله وعائشة ـ لخمسة عشر يوما، كان يأمر عمر بن الخطاب ﷺ أن يصلي بالناس وكان ذلك نذيرا بنهايته حيث توفي رحمه الله تعالي ورضي عنه في يوم الأثنين لإحدي وعشرين ليلة خلت من شهر جمادي الآخرة للسنة الثالثة عشرة للهجرة (٢٢ أغسطس ٦٣٤م) وهو في الثالثة والستين من عمره، فقد توفي مساء بعدما غابت الشمس ودفن ليلا، وتولت زوجه أسماء بنت عميس غسله، وعاونها ابنه عبدالرحمن، كما أوصي هو بذلك قبل وفاته، ثم إنه حمل علي السرير الذي حمل عليه رسول الله ﷺ إلي المسجد، ليدفن كما أوصي إلي جواره ﷺ في بيت عائشة في المدينة المنورة[١].

---

(١) انظر في ذلك: الصديق أبوبكر للأستاذ محمد حسين هيكل الطبعة الثانية مطبعة مصر ١٣٦٢هـ.

خطابته :

لخليفة المسلمين الأول أبي بكر ﷺ خطب متعددة إلى جانب الرسائل والوصايا التي قالها في مناسبات متعددة، ومنها خطبته يوم بويع خليفة للمسلمين ، فقد حمد الله وأثني عليه ثم قال: أما بعد: فإني وليت عليكم ولست بخيركم، ولكن نزل القرآن، وسن النبي ﷺ وعلمنا فعلمنا، واعلموا أن أكيس الكيس التقي، وأن أحمق الحمق الفجور، وأن أقواكم عندي الضعيف حتي آخذ له الحق، وأن أضعفكم عندي القوي حتي آخذ منه الحق، أيها الناس إنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن رأيتموني علي حق فأعينوني، وإن رأيتموني علي باطل فردوني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم"[١] فكان هذا أول حديث لأبي بكر بعد مبايعته بالخلافة إلي الأمة الإسلامية وهو آية من آيات الحكمة وفصل الخطاب.

ولما تولي أبوبكر الخلافة كان أول أمر أصدره أن قال: "ليتم بعث أسامة" وأسامة هو قائد الجيش الذي أمر النبي بتجهيزه من جلة المسلمين، مهاجريهم وأنصارهم، لغزو الروم، بعد الذي كان بينهم وبين المسلمين في موقعة مؤتة، وفي موقعة تبوك، ذلك أنه عليه الصلاة والسلام كان يخشي دائما أن يدهم الروم المسلمين متأثرين بما بين الدين الناشئ وبينهم من خلاف، متأثرين أكثر من ذلك بتحريض اليهود الذين نزحوا إلي فلسطين. بعد أن أجلاهم النبي عليه الصلاة

---

(١) تاريخ الطبري ٢/ ٤٥٠، وعيون الأخبار ٢/ ٢٣٢ .

والسلام عن المدينة، وعن أكثر المواطن التي كانوا يقيمون بها. ثم خرج أبوبكر ليودع جيش أسامة، فوقف في رجاله خطيبا، فقال: أيها الناس، قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون علي قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئا بعد شئ، فاذكروا اسم الله عليه، وستلقون أقواما قد فحصوا أوساط رءوسهم، وتركوا حولها مثل العصائب، فاخفقوهم بالسيف خفقا، واندفعوا باسم الله .." [١].

ولأبي بكر خطب عديدة في مناسبات مختلفة، كما أن له رسائل ووصايا متعددة، يرسلها إلي الولاة وإلي قادة الجيوش، إلي جانب بعض الأقوال المأثورة التي تعكس قوة إيمانه وإخلاصه لله ولرسوله، ومن ذلك: ثلاث من كن فيه عليه لا له: البغي ، الغدر، والمكر، وقوله: إياكم والكذب، فإن الكذب مجانب للإيمان، وقوله: احرص علي الموت توهب لك الحياة رحم الله خليفة رسول الله أبا بكر الصديق ورضي عنه وجزاه عما قدم للإسلام والمسلمين خير الجزاء.

---

(١) تاريخ الطبري ٢/ ٤٦٣ .

فخطابة أبي بكر ﷺ في الذروة من الفصاحة والبلاغة، يصدر فيها عن روح الإسلام السمحة وتعاليمه السامية، ولم يلهج بسجع، وإنما كان كلامه جزلا فصيحا واضح الدلالة عما في نفسه، ألفاظه مختارة ومعانيه واضحة، يسري فيها بيان القرآن الكريم بترغيبه وترهيبه، وبيان الرسول بمواعظه وتشريعاته، فتنصاع له القلوب وتطمئن إليه النفوس، وكان ﷺ يختم خطبه بهذا الدعاء: اللهم اجعل خير زماني آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم لقائك".

* * *

٢ـ **عمر بن الخطاب**: ولد عمر بن الخطاب ﷺ بعد مولد الرسول ﷺ بثلاث عشرة سنة (٤٠ق.هـ ـ ٥٨٣م) ونشأ نشأة فتيان قريش فرعي الماشية صغيرا، ومارس التجارة، ثم أخذ نفسه بثقافة الأشراف من قومه، فتعلم الكتابة واشتهر بين قومه ببلاغة اللسان ، وثبات الجنان وقوة الشكيمة ومضاء العزيمة، فجعلت قريش له السفارة بينهم وبين قبائل العرب في السلم والحرب، ولما ظهر الإسلام وعرف أن محمدا يدعو إلي دين جديد، عارضه وناهضه بشدة، وثار علي هذه الدعوة ثورة عارمة، وكان الرسول ﷺ يدعو أن يعز الإسلام به أو بأبي جهل لمكانتهما بين قومهما ، ولما عهد في عمر في جاهليته من القسوة والشدة والغلظة. وتأتي مقدمات إسلام عمر أملا في هدايته وإعزاز الإسلام به فعن عمر ﷺ قال: خرجت أتعرض رسول الله ﷺ قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلي المسجد، فقمت خلفه فاستفتح سورة

الحاقة، فجعلت أتعجب من تأليف القرآن، فقلت: هو شاعر كما قالت قريش، فقرأ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١﴾ (١) فقلت: كاهن علم ما في نفسي، فقرأ: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾(٢) إلي آخر السورة، يقول عمر: فوقع الإسلام في قلبي كل موقع"(٣) وبذلك بدأت مقدمات الإسلام تتوارد خواطرها علي قلب عمر، إلي أن شاء الله له أن يدخل في الإسلام، فذهب متقلدا سيفه في ثورة من ثورات غضبه ضد الإسلام، بينما كانت تدخره الأقدار لدين الله، وأراد الله تعالي أن يتحول من طاقة عدوانية ضد الإسلام ليكون قوة في جانب المسلمين وأراد الله له أن يدخل الإسلام وأن يستجيب فيه دعاء الرسول عليه الصلاة والسلام "اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب" وهداه الله وشرح صدره للإسلام، وذهب إلي دار الأرقم بن أبي الأرقم، حيث كان الرسول يجتمع بمن آمنوا به، يقول عمر: فأتيت فضربت الباب فاستجمع القوم، فقال لهم حمزة: ما لكم؟ قالوا: عمر، قال عثمان: عمر، افتحوا له، فإن أقبل علينا قبلنا منه، وإن أراد شرا قتلناه بسيفه الذي يحمله، فسمع رسول الله ﷺ ذلك فخرج، فتشهدت فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل مكة، قلت يا رسول الله: ألسنا علي الحق؟ قال: بلي، قلت: ففيم الاختفاء؟ فخرجنا صفين أنا في أحدهما وحمزة في الآخر حتي دخلنا المسجد فنظرت قريش إلي وإلي حمزة

---

(١) سورة الحاقة ٤٠ ، ٤١ .

(٢) الحاقة ٤٢ .

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده .

فأصابتهم كآبة شديدة، فسماني رسول الله ﷺ : "الفاروق" يومئذ، وكـــان ذلك وسنه ست وعشرون سنة، وأخذ عمر منذ ذلك اليوم يجاهـــد فـــي سبيل الله، فيدفع الأذي عن المسلمين، ويعادي من يعادي رسول الله ﷺ ولما أراد أن يهاجر لم يشأ أن يخرج في خفية وإنما تقلد سيفه وتنكـــب قوسه، وأتي الكعبة وأشراف قريش بفنائها، فطاف وصلي، ثـــم أقبـــل عليهم وقال: "شاهت الوجوه، من أراد أن تثكله أمه، وييتم ولده، وترمل زوجته، فليلقني وراء هذا الوادي فلم يتبعه أحد .

وقد عرف سيدنا عمر رضي الله عنه بإلهام الله تعالي لـــه، وتوفيقـــه إيـــاه وموافقاته للوحي، ويؤيد هذا قول رسول الله ﷺ عن عمر: "إن الله جعل الحق علي لسان عمر وقلبه"[١]، فقد كان يري الرأي فيشير بـــه علـــي الرسول ﷺ فينزل القرآن مؤيدا لرأي عمر ومن هذه الموافقـــات مـــا يرويه أنس عن عمر بن الخطاب فيقول: "وافقـــت ربـــي فـــي ثـــلاث ووافقني ربي في ثلاث: قلت يا رسول الله: لو اتخذت مقـــام إبـــراهيم مصلي؟ فأنزل الله : ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾[٢] وقلت يا رسول الله: يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المـــؤمنين بالحجـــاب فأنزل الله آية الحجاب، وبلغني معاتبة النبي بعـــض نســـائه، فـــدخلت عليهن وقلت: انتهين أو ليبدلن الله رسوله خيرا منكن، حتي أتت إحدي نسائه فقالت: يا عمر: أما في رسول الله ما يعظ نساءه حتي تعظهـــن أنـــت؟ فـــأنزل الله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٍ

(١) رواه الترمذي وأحمد والطبراني .
(٢) سورة البقرة آية ١٤٥ .

مُؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾[١] ولم يزل عمر رضي الله تعالي عنه مع رسول الله ﷺ الصاحب الأمين يؤيده بلسانه وسنانه حتي قبض رسول الله ﷺ .

واختلف الأنصار والمهاجرون فيمن يكون الخليفة، فأيد هو أبا بكر، حتي تمت له البيعة، وقام منه في خلافته مقام المستشار المؤتمن والقاضي العادل، حتي حضرت الوفاة أبا بكر فلم يجد غيره من يعهد إليه بالخلافة، فتولاها بقوة المؤمن المخلص وعزيمة القوي الشجاع، وهو أول من تسمي بأمير المؤمنين، وفي عهده فتحت العراق وفارس والشام ومصر . وعمر هو الذي أقام الدولة الإسلامية، فقد دون الدواوين [أوجد السجلات والدوائر الحكومية] وجعل الدولة إسلامية في كل شئ وكانت الشوري الركيزة الأولي لسياسته ، كما أمر عمر بأن تكون الهجرة (٦٢٢م) أول التاريخ الهجري، وكان إلي جانب تفانيه في إقامة العدل في ربوع البلاد حكيما في الإمارة، ما أصدر أمرا إلا بعد أن يكون قد احتاط لجميع المشاكل التي يمكن أن تنشأ من جراء تنفيذه ومنع عمر إعطاء المؤلفة قلوبهم من الزكاة وقال: "كنا نعطيهم يوم كان الإسلام ضعيفا، وكنا ندفع بذلك الشر عن الإسلام، أما الآن فقد أغني الله عنهم ، ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ ولا تزال خلافته مثلا من المثل العليا في النظام والعدل والأمن. وكان عمر بن الخطاب خطيبا مفوها، يملك ناصية البيان، وتحفظ له كتب الأدب والتاريخ

---

(١) رواه البخاري والآية رقم ٥ من سورة التحريم .

والسير آثارا خطابية كثيرة له، كما كانت عهـوده ومواثيقـه وكتبـه للقضاة والولاة تعكس رؤيته الصائبة وفقهه وحنكته، وذلك بفضل مـن الله وتوفيقه. وقد عاش عمر في الخلافة عشر سنين من سنة ١٣هـ إلي ٢٣هـ [٦٣٤ ــ ٩٤٤م] وقد أرضي الله والناس بعدله وفضله لكن ذلك لم يرض العبد المجوسي الفارسي الذي يسمي "فيروز" ويكني: "أبا لؤلؤة" وهو غلام المغيرة بن شعبة، عندنا شكا هـذا الغـلام سـيده : "المغيرة" إلي أمير المؤمنين ــ وهو يمر في السوق ــ بأنه قد فـرض عليه درهمين في اليوم نظير أن يتركه يعمل لحساب نفسه ، فقال لـه: ما صناعتك؟ فقال: نجار حداد نقاش، فقال له عمر: ما أدري خراجك كثيرا، فامتلأت نفس هذا الشقي حقدا وكراهية لخليفة المسلمين ، وأخذ يتحين الفرصة ليشفي حقده وكراهيته للخليفة، حتي كانت ليلة الأربعاء لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ٢٣هـ، فدب إليه في الظلام وهو قـائم يصلي بالناس صلاة الفجر، فطعنه بخنجر ذي نصلين طعنـات أودت بحياته رضوان الله تعالي ورحماته عليه[١]، ولما علم عمر ﷺ أن قاتله غير مسلم حمد الله تعالي.

---

(١) انظر في ترجمة عمر بن الخطاب: تاريخ عمر بن الخطاب: تأليف جمـال الدين بن الجوزي مصر ١٩٢٤، الفاروق عمر تأليف: محمد حسـين هيكـل مصر ١٣٦٤، تاريخ الأدب العربي للدكتور عمر فروخ ــ دار العلم للملايين ١/ ٢٧٩ وما بعدها، تاريخ الأدب العربي للأستاذ أحمد حسن الزيـات ط٢٥ صـ١٨١، العشرة المبشرون بالجنة "هدية جريدة صـوت الأزهـر" مقـال الدكتور/ أحمد عمر هاشم "عمر بن الخطاب" صـ٣٢ .

ومن خطابته ﷺ : أنه خطب الناس يوما، فقال: أيها النـــاس، إنـــه أتي علي حين من الدهر، وأنا أحسب أن من قرأ القرآن إنما يريد بـــه الله وما عنده ، ألا وإنه قد خيل إلي أن أقواما يقرءون القرآن يريـــدون به ما عند الله ، ألا فأريدوا الله بقراءتكم، وأريدوه بأعمالكم، فإنما كنـــا نعرفكم إذ الوحي ينزل وإذ النبي ﷺ بين أظهرنا، فقـــد رفـــع الـــوحي وذهب النبي ﷺ ، فإنما أعرفكم بما أقول لكم، ألا فمن أظهر لنا خيـــرا ظننا به خيرا، وأثنينا به عليه، ومن أظهر لنا شـــرا ظننـــا بـــه شـــرا وأبغضناه عليه، فدعوا هذه النفوس عن شهواتها، فإنها طلعة، وإنكم إلا تقرعوا تنزع بكم إلي شر غاية، إن هذا الحق ثقيل مرئ، وإن الباطـــل خفيف وبئ، وترك الخطيئة خير من معالجـــة التوبـــة، ورب نظـــرة زرعت شهوة، وشهوة ساعة أورثت حزنا طويلا"[1].

ومن خطبـه أيضا: بعد حمد الله والثناء عليه : "أيها الناس: إني داع فأمنوا: اللهم إني غليظ فليني لأهل طاعتك بموافقة الحق ابتغاء وجهك والدار الآخرة، وارزقني الغلظة والشدة علي أعدائك أهل الـــدعارة [2] والنفاق، من غير ظلم مني لهم ولا اعتداء عليهم ، اللهم إنـــي شـــحيح

---

(١) **معاني الكلمات الصعبة:** اتدعو هذه النفوس: أى كفوها وامنعوها من عمـــل القبيح مأخوذة من تدع النفس يقرعها: أي ردها وكفها، إنهـــا طلعـــة: بضـــم الطاء: أي متطلعة طامعة في أشياء كثيرة، مرئ: أي عاقبته حميدة، وبئ: أي عاقبته وخيمة أي إن أول الحق ثقيل علي النفس لكن عاقبته بعد ذلك حميـــدة يرضي عنها ربنا .

(٢) الدعارة: الخبث والفجور، النوائب جمع نائبة وهي المصيبة فلما أضيفت إلي المعروف صار معناها: المصائب التي تحتاج إلي المعروف لتلافيها والتغلب عليها .

فسخني في نوائب المعروف قصدا من غير سـرف[١] ولا تبـذير ولا رياء ولا سمعة، واجعلني أبتغي بذلك وجهك والـدار الآخـرة اللهـم ارزقني خفض الجناح ولين الجانب للمؤمنين، اللهم إني كثيـر الغفلـة والنسيان، فألهمني ذكرك علي كل حال، وذكر الموت في كـل حـين، اللهم إني ضعيف عن العمل بطاعتك، فارزقني النشاط فيهـا والقـوة عليها، بانية الحسنة التي لا تكون إلا بعزتك وتوفيقك ، اللهـم ثبتنـي باليقين والبر والتقوي، وذكر المقام بين يديك ، والحياء منك، وارزقني الخشوع فيما يرضيك عني، والمحاسبة لنفسي، وإصـلاح السـاعات والحذر من الشبهات، اللهم ارزقني التفكير والتدبر لما يتلوه لساني من كتابك، والفهم له، والمعرفة بمعانيه ، والنظر في عجائبه والعمل بذلك ما بقيت، إنك علي كل شئ قدير".

ومن خطبـه: أنه لما بلغه أن قوما يفضلونه علي أبـي بكـر ﷺ ، ذهب إلي المسجد في سرعة مغضبا وصعد المنبر فحمـد الله وأثنـي عليه، وصلي علي نبيه ﷺ ثم قال: "أيها الناس، إني سـأخبركم عنـي وعن أبي بكر، إنه لما توفي رسول الله ﷺ ارتدت العـرب، ومنعـت شاتها وبعيرها[٢]، فأجمع رأينا كلنا أصحاب محمد ﷺ أن قلنا لـه: يـا خليفة رسول الله، إن رسول الله ﷺ كان يقاتل العرب بالوحي والملائكة يمده الله بهم، وقد انقطع ذلك اليوم، فالزم بيتك ومسجدك، فإنه لا طاقة

---

(١) القصد في غير سرف ولا تبذير: القصد: التوسط ومعني السرف هنا التقتير حتي يكون عطف التبذير عليه للمغايرة.
(٢) أي منعت الزكاة .

لك بقتال العرب، فقال أبوبكر الصديق: أو كلكم رأيه علي هذا، فقلنا: نعم، فقال: والله لأن أخر من السماء فتخطفني الطير أحب إلي من أن يكون هذا رأيي، ثم صعد المنبر، فحمد الله وكبره، وصلي علي نبيه ﷺ ثم أقبل علي الناس فقال: أيها الناس، من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، أيها الناس: أئن كثر أعداؤكم، وقل عددكم ركب الشيطان منكم هذا المركب؟!، والله ليظهرن الله هذا الدين علي الأديان كلها ولو كره المشركون، قوله الحق، ووعده الصدق ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ ، ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ والله يا أيها الناس لو أفردت من جميعكم لجاهدتهم في الله حق جهاده حتي أبلي بنفسي[١] عذرا، أو أقتل قتلا، والله أيها الناس لو منعوني عقالا لجاهدته عليه، واستعنت بالله عليهم وهو خير معين ، ثم نزل ، فجاهد في الله حق جهاده حتي أذعنت العرب بالحق[٢] .

وكان عمر ﷺ يحرص علي إنهاء خطبه بهذا الدعاء: "اللهم لا تدعني في غمرة، ولا تأخذني في غرة، ولا تجعلني من الغافلين" .

وتكثر الخطابة في هذا العصر كثرة لم يعرف لها نظير من قبل وذلك لدواعيها المتعددة وتنهمر كلمات الخطباء لتعايش الأحداث والتطورات التي حدثت في المجتمع الإسلامي، فتلقانا خطب الخليفة

---

(١) حتي أبلي بنفسي عذرا : أي إنه يفعل ما يعذر معه، بعد أن يبذل قصاري جهده .

(٢) انظر الخطبة في الكامل للمبرد .

الثالث عثمان بن عفان ﷺ، ولعل أكثر الناس أثرا بينا في الخطابة هو علي بن أبي طالب ﷺ فقد كانت كلماته تتدفق تدفق السيل، وتنهمر كلماته في خطابته انهمار الغيث، وتحفظ لنا كتب التاريخ والأدب آثارا خطابية لسعد بن أبي وقاص ، والزبير بن العوام، وعبدالرحمن بن عوف، وأبي عبيدة بن الجراح، وكثير غير هؤلاء من القادة السياسيين والقادة العسكريين أمثال خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص، والقعقاع بن عمرو، والنعمان بن مقرن والمثني بن حارثة، وهاشم بن عتب بن أبي وقاص، وعشرات غيرهم ممن برزوا في الحرب والقيادة٠

وفي الفتنة الكبري التي أعقبت قتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان تلقانا خطب كيرة لعبدالله بن عباس، والأشتر النخعي، وأبي موسي الأشعري وغيرهم ممن صلى بنار الفتنة وخاض غمراتها ٠

كما نجد كثيرا من النساء يفرضن وجودهن علي الساحة الأدبية بخطابتهن المؤثرة ليشاركن بها في التوجيه والحث علي قتال أعداء المسلمين، وجمع الكلمة ومجابهة الخارجين علي الجماعة٠ ومن هؤلاء: عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالي عنها، وأروي بنت الحارث بن عبدالمطلب، وأم الخير بنت الحريش البارقية ٠

ومن مواقفها التي يسجلها لها التاريخ بالفخر والإعزاز، أنها وفدت علي معاوية ــ بعد أن اعتلي الحكم ــ فقال لها: كيف كلامك يوم قتل عمار بن ياسر؟ قالت: لم أكن والله زورته[١] قبل ولا رويته

---

(١) زورته: أي أعددته ٠

بعد، وإنما كانت كلمات نفثهن لساني حين الصدمة، فإن شئت أن أحدث لك مقالا غير ذلك فعلت، قال: لا أشاء ذلك، ثم التفت إلي أصحابه فقال: أيكم يحفظ كلامها؟ قال رجل من القوم: أنا أحفظه يا أمير المؤمنين كحفظي سورة الحمد، قال: هاته. قال: نعم. كأني بها تقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ إن الله قد أوضح الحق، وأبان الدليل ، ونور السبيل ، ورفع العلم، فلم يدعكم في عمياء مبهمة، ولا سوداء مدلهمة، فأني تريدون رحمكم الله، أفرارا عن أمير المؤمنين، أم فرارا من الزحف، أم رغبة عن الإسلام، أم ارتدادا عن الحق؟ أما سمعتم الله عزوجل يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ ثم رفعت رأسها إلي السماء، وهي تقول: اللهم قد عيل الصبر، وضعف اليقين، وانتشرت الرغبة، وبيدك يا رب أزمة القلوب، فاجمع الكلمة علي التقوي، وألف القلوب علي الهدي، ورد الحق إلي أهله، هلموا رحمكم الله إلي الإمام العادل[١] والوصي الوفي، والصديق الأكبر، إنها إحن بدرية[٢] وأحقاد جاهلية، وضغائن أحدية، وثب بها معاوية حين الغفلة ليدرك بها ثارات بني عبد شمس ثم قالت: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ صبرا معشر المهاجرين والأنصار، قاتلوا علي بصيرة من ربكم،

(١) تقض الإمام علي رضي الله تعالي عنه .
(٢) إحن: جمع إحنة وهي الضغائن والأحقاد، وبدرية نسبة إلي موقعة بدر فهي تقول: إن هذه الأحقاد تولدت من هذه الموقعة بعد أن قتل المسلمون فيها قادة قريش وزعمائها، وقولها بعد ذلك: ضغائن أحدية: نسبة إلي موقعة أحد .

وثبت من دينكم، وكأني بكم غدا وقد لقيتم أهل الشام[١] كحمر مستنفرة فرت من قسورة"، لا تدري أين يسلك بها من فجاج الأرض. باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الضلالة بالهدي ، وباعوا البصيرة بالعمي، و﴿ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴾ حتي تحل بهم الندامة، فيطلبون الإقالة[٢]، إنه والله من ضل عن الحق وقع في الباطل، ومن لم يسكن الجنة نزل النار، فقال معاوية: والله يا أم الخير ما أردت بهذا إلا قتلي، والله لو قتلتك ما حرجت[٣] في ذلك. فقالت: والله ما يسوءني يا ابن هند أن يجري الله ذلك علي يدي من يسعدني الله بشقائه[٤]، قال: هيهات يا كثيرة الفضول: ما تقولين في عثمان بن عفان؟ قالت: وما عسيت أن أقول فيه، استخلفه الناس وهم كارهون، وقتلوه وهم راضون، فقال: إيها[٥] يا أم الخير ، هذا والله أصلك الذي تبنين عليه ، قالت : لكن الله يشهد ، ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ ما أردت بعثمان نقصا، ولقد كان سباقا إلي الخيرات، وإنه لرفع الدرجات، وفي نهاية اللقاء قال لها: أعفيتك وزرها مكرمة إلي بلدها.

* * *

---

(١) تقصد جيش معاوية وأتباعه .
(٢) الإقالة: أي العفو والمسافحة .
(٣) ما حرجت: أي لم أرتكب إثما .
(٤) تقصد معاوية .
(٥) أي اسكتي .

٣ ـ علي بن أبي طالب:

ولد علي بن أبي طالب قبل الهجرة بإحدي وعشرين سنة في نحو الثلاثين من عمر النبي ﷺ ، وكان أبوه أبوطالب رجلا من أشراف قومه، ورث مكانة أبيه عبدالمطلب في شرفه وسيادته علي قريش وكان أبو طالب من أكثر قريش ولدا وأقلهم مالا، فعاش علي سنواته الأولي حياة التقشف والشظف حتي شارف العام السادس، وكانت قد نزلت بقريش أزمة وقحط شديدين، فقال رسول الله ﷺ لعميه حمزة والعباس: ألا نحمل ثقل أبي طالب في هذه الضائعة؟ فجاءوا إليه وسألوه أن يدفع إليهم أولاده ليكفوه أمرهم، فقال: دعوا لي عقيلا وخذوا من شئتم، وكان شديد الحب لعقيل، فأخذ العباس طالبا، وأخذ حمزة جعفرا وأخذ رسول الله عليا، وينتقل علي من بيت كان للوثنية فيه صوت وأثر قوي إلي بيت أقام الله صرحه علي دعائم التوحيد، وشاد دعائمه علي الإخلاص واليقين، وبذلك ينشأ علي في مدارج الوحي ومهبط التشريع، يلقي من رعاية محمد وحبه وعطفه ما أشاع السعادة والغبطة في نفسه ، فشب علي الإيمان طاهر العقيدة ، لم يسجد لصنم ولم يعبد من دون الله شيئا، روي انه دخل علي النبي ﷺ بعيد بعثته فوجده والسيدة خديجة يصليان، فقال: ما هذا يا محمد؟ فقال له: هذا دين الله الذي بعث رسله فأدعوك إلي الله، وأن نكفر باللات والعزي فقال: هذا أمر لم أسمع به إلا اليوم، فلست بقاصد أمرا حتي أخذت أبا طالب، فقال النبي : يا علي، إن لم تسلم فاكتم، فمكث علي ليلته يفكر في شأنه وشأن هذا الذي جاء به محمد، ولكن هداية الله كانت تحدوه

فلم يكد يطلع ضوء النهار حتي أسرع إلي رسـول الله معلنـا إيمانـه بدعوته وكانت سنه عندئذ عشر سنوات، ويعايش علي تلك المواجهات العنيفة التي قوبل بها محمد ودعوته وتغلغلت أصول الدين فـي قلبـه، وحفظ القرآن الكريم وكانت مخالطته للرسول ومعيشته الدائمـة معـه جعلته يتعلم منه أمور الدين وتغذي بالبيان والحكمة النبـويين، وفقـه الكتاب والسنة ، فكان حجة في الفقه والتفسير والحـديث قـدوة فـي الروع، لا يعرف الهوادة في الدين ولا المرونة في أمور الدنيا، يقـول الأستاذ أحمد حسن الزيات: "ولا نعلم بعد رسول الله فيمن سلف وخلف أفصح من علي في المنطق، ولا أبل ريقا في الخطابة، كما كان حكيما تتفجر الحكمة من بيانه، وخطيبا تتدفق البلاغة علي لسـانه، وواعظـا ملء السمع والقلب، ومترسلا بعيد غور الحجة، ومتكلما يضع لسـانه حيث شاء، وهو بالإجماع أخطب المسلمين وإمام المنشئين، وخطبه في الحث علي الجهاد، ورسائله إلي معاوية .... تعد من معجزات اللسان العربي، وبدائع العقل البشري، وما نظن ذلك قد تهيـأ لـه إلا لشـدة خلاطه للرسول ﷺ ومرافقه علي الخطابة له والخطابة فـي سـبيله"[١] ويعتبره النقاد أول ثلاثة سمت بهم الخطابة فـي العصـر الإسـلامي، ثانيهم زياد بن معاوية، وثالثهم الحجاج بن يوسف الثقفي، يـدل علـي ذلك خطبه الكثيرة المتفرقة في كتب الأدب والسيرة، فهو خطيب مـن أعظم فصحاء العرب، وأقدرهم خطابة، يستميل القلوب بقوة أسـلوبه، وجمال معانيه، وروائع حكمه، ويقنعها بقوة حجته، وتـرابط أفكـاره،

---

(١) تاريخ الأدب العربي للأستاذ أحمد حسن الزيات ــ الطبعة ٢٥ صــ١٨٦ .

وقوة استدلاله، وتمتاز خطبه بأنها قصيرة غالبا، موجزة قصيرة الحمل، متينة التركيب، جامعة لأوجه البلاغة واضحة المقاصد، تكثر فيها الحكم، ومعظم خطبه في السياسة ومهاجمة أعدائه، وأقلها في الزهد، أما عن حياته فكانت مليئة بالأحداث الجسام بعد وفاة الرسول ﷺ ، فلم تلق شخصية من شخصيات التاريخ الإسلامي من المحن والابتلاءات في حياتها العلمية والعملية مثل ما لقيته شخصية علي بن أبي طالب ومع ذلك لم تزده هذه الأحداث المتعاقبة في حياته إلا استمساكا بالدين والتقي، وإعراضا عن زخارف الدنيا ومن ذلك لما قتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان سنة ٣٥هـ اضطر إلي قبول الخلافة وكانت الأحوال مضطربة جدا وأراد أن يسير بالحزم والعدل، ولكن عصيان معاوية بن أبي سفيان عليه وإلحاحه مع قومه بالاقتصاص من قتله عثمان شغلاه عن تحقيق ما يريد، ثم نشب القتال بين علي وخصومه معاوية وأتباعه والسيدة عائشة وأنصارها في حرب الجمل بتحريض معاوية وتأييد طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ويكثر القتلي في جيش الإمام علي دون أن تنجلي المعارك الدائرة ويخرج طائفة من أتباع علي من صفوفه وهم الذين عرفوا بالخوارج وتتوالي الأحداث حتي وصل الأمر إلي اتفاق بين مجموعة منهم بقتل معاوية وعمرو بن العاص وعليا، ولكن تشاء لأقدار أن ينجو معاوية وعمرو، وأن يقتل عبدالرحمن بن ملجم عليا في ١٧ من رمضان سنة ٤٠هـ بمسجد الكوفة وقد بلغ ثلاثا وستين سنة ومضي علي خلافته أربع سنوات وتسعة أشهر إلا أياما وبذلك انتهت الخلافة الراشدة .

خطابته:

يقول الشريف الرضي في كتاب: "نهج البلاغة" المنسوب للإمام علي ﷺ إن الكلام المنسوب إلي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ يدور علي أقطاب ثلاثة : الخطب والأوامر، والكتب والرسائل ، والحكم والمواعظ .

ومن خطبه أول خلافته: "إن الله تعالي أنزل كتابا هاديا بين فيه الخير والشر فخذوا نهج الخير تهتدوا، واصرفوا عن سمت الشر تقصدوا، الفرائض الفرائض، أدوها إلي الله تسودكم إلي الجنة، إن الله حرم حراما غير مجهول وأحل حلالا غير مدخول، وفضل حرمة المسلم علي الحرم كلها، وشد بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين في معاقدها، فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، إلا بالحق، ولا يحل أذي المسلم إلا بما يجب، بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم، وهو الموت، فإن الناس أمامكم وإن الساعة تحدوكم من خلفكم، تخففوا تلحقوا، فإنما ينتظر بأولكم آخركم، الله في عباده وبلاده، فإنكم مسئولون عن البقاع والبهائم، وأطيعوا الله ولا تعصوه، وإذا رأيتم الخير فخذوا به ، وإذا رأيتم الر فأعرضوا عنه" .

وقد امتحن بالثورة عليه، فلم تنحرف نفسه، بل ظل صابرا يتلو القرآن ويدعو الناس إلي أن لا يحدثوا فتن هذه الفرقة، وهو في أثناء ذلك يعظهم أن لا تبطرهم الدنيا وأن يؤثروا ما بقي علي ما يفني فيلزموا الجماعة ولا يتخاذلوا فيصبحوا أحزابا، ولذلك كان من الطبيعي

أن تكثر خطبه في مهاجمة خصومه والمتألبين عليه،الناكثين العهد وظل أربع سنوات يحثهم علي جمع الكلمة وترك الفرقة، ويحث أصحابه علي الجهاد والتضحية في سبيل نصرة الدين. ومن ذلك خطبته في الخوارج يدعوهم فيها إلي القتال لتأييده والجهاد ضد معاوية وأتباعه .

فيقول بعد حمد الله والصلاة علي رسوله: عباد الله : ما لكم إذا أمرتكم أن تنفروا في سبيل الله أثاقلتم إلي الأرض، أرضييم بالحياة الدنيا من الآخرة بدلا؟ وبالذل والهوان من العز خلفا؟ لله أنتم! تكادون ولا تكيدون، وتنقض أطرافكم فلا تمتعضون، ولا ينام عنكم وأنتم في غفلة ساهون، إن أخا الحرب اليقظان ذو العقل، وبات لذل من وادع، وغلب المتخاذلون، والمغلوب مقهور ومسلوب : أما بعد

فإن لي عليكم حقا، وإن لكم علي حقا، فأما حقكم علي فالنصيحة لكم ما صحبتكم، وتوفير فيئكم عليكم وتعلمكم كي لا تجهلوا ، وتأديبكم كما تعلموا، وأما حقي عليكم فالوفاء بالبيعة، والنصح لي في المغيب والمشهد، والإجابة حين أدعوكم، والطاعة حين آمركم، فإن يرد الله بكم خيرا تنزعوا عما أكره، وترجعوا إلي ما أحب، تنالوا ما تطلبون، وتدركو ما تأملون" هذا جزء من خطبة للإمام علي يدعو فيها الخارجين الذين لم يرضوا بالتحكيم بين علي ومعاوية إلي القتال والجهاد لرد معاوية عن موقفه المعادي لعلي، وهي تعكس خصائص خطابة الإمام علي كرم الله وجهه ففيها : قصر الفقرات، والاستشهاد

بالقرآن الكريم، والأسلوب البلاغي الراقي، وترابط الأفكار والحـــرص علي استمالة المستمعين وإقناعهم بما يدعو إليه، كما انتقل الإمام مـــن مقدمته الاستفهامية إلي الموازنة مستعينا بالحكمة وضرب المثل، كمـــا حرص علي بيان وتوضيح شق كل من الحاكم والمحكوم علي الآخر ، والحرص علي الأسلوب الوغض الذي يخرج من القلب فيصـــل إلـــي القلب ٠

يقول الشريف الرضي عن بلاغة الإمام علي في مقدمة شـــرحه للكتاب نهج البلاغة المنسوب للإمام علي : "كان أمير المؤمنين عليـــه السلام مشرع الفصاحة وموردها، ومنشأ البلاغة ومولدها، ومنه ظهر مكنونها، وعنه أخذت قوانينها، وعلي أمثلته حذا كل قائـــل وخطيـــب، وبكلامه استعان كل واعظ وبليغ"٠

خطباء آخرون:

سبق أن ذكرنا أن الساحة الإسلامية امتلأت بالخطباء من الخلفاء الراشدين القادة السياسيين والقادة العسكريين وغيرهم حيث أتـــيح فـــي هذا العصر من أسباب النهوض ودواعي القول الشـــئ الكثيـــر ومـــن هؤلاء القائد المظفر خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، والقعقاع بـــن عمرو، والنعمان بن مقرن، وهاشم بن عتبة بن أبي وقاص وعشـــرات غيرهم ممن برزوا في الحرب والقيادة وفي الفتنة الكبري التي أعقبت قتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان فسمع خطبا لعبـــدالله بـــن عبـــاس،

والأشتر النخعي، وأبي موسي الأشعري، ولغيرهم ممن صلي بنار الفتة وخاض غمارها •

ثانيا: الكتابة:

إذا كان النثر الفني في العصر الجاهلي قد اتجه إلي الخطابة والوصية والمفاخرة والمنافرة أو المثل والحكمة فإنما كان ذلك لأن العربي كان لا يعرف القراءة والكتابة خطية أو إنشائية أثر من آثار الحضارة والرقي الاجتماعي، ولذلك لما جاء الإسلام بتعاليمه ودعوته الإصلاحية الشاملة إلي جانب ما استجد من أحداث في المجتمع الإسلامي أثر كل ذلك وغيره في الأفهام وفتح مجالات جديدة لم يكن للإنسان العربي معرفة بها فقد وجدت الكتابة لحاجة الملك والسلطان إليها وأبقي علي الخطابة وارتقي بها ارتقاء عظيما حيث جعلها أهم الأساليب في حمل رسالة الدين الجديد، حتي ازدهرت وتنوعت فكانت الرسائل والوصايا والمواعظ الدينية وغيرها مما يحمل رسالة الدين الجديد ويسهم في نشره وبيان أهدافه ومبادئه ، وابتعد الناس عن المفاخرة والمنافرة لأنها لا تتفق مع تعاليم الإسلام الذي قضي علي العصبية الجاهلية والتعالي والتفاخر بالأحساب والأنساب وقرر: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ ولذلك قلت الأمثال والحكمة وانحصرت في ظواهر محدودة حيث بهرتهم حكم القرآن الكريم وأمثاله ومواعظه وحديث الرسول المتمثل في جوامع الكلم، فقد ملك ذلك عليهم نفوسهم، وشغل منهم حواسهم، وأفكارهم فلم يدعهم ينصرفون إلي ما سواهما ،

كما أصبحت الكتابة في عصر صدر الإسلام والخلافة الراشدة ، الوسيلة علي نشر القرآن وتعلمه وكتابته: حث كان بعض الصحابة ممن تعلموا الكتابة يحفظونه ثم يكتبونه أمثال عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وزيد بن ثابت، وأبي بن كعب ، وغيرهم ، كما كان يكتب للرسول ﷺ في حوائجه: خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان ... وكان حنظلة بن الربيع يخلف كل كاتب عن كتاب الرسول ﷺ إذا غاب فغلب عليه لقب الكاتب"[١] ولذلك اتسعت أغراض الكتابة منذ ذلك العصر، واستخدمت في كتابة كل ما يهم المسلمين في معاملاتهم ومعاهداتهم وعقودهم وأصبحت تؤدي تعاليم الدين الحنيف وكل ما دعا إليه من صلاح الجماعة الإسلامية وسعادتها وكل ما فرضته من معان إنسانية في معاملة من يدخلون في لوائه وينخرطون في جماعته[٢] وسار المسلمون في فتوحاتهم علي نهج معلمهم رسول الله ﷺ فاتخذوا الكتابة وسيلة لهم يكتبون بها عهد الصلح بينهم وبين البلاد التي يفتحونها علي الجزية أو الخراج، وعهود الولاية علي الأعمال، والصدقات، واستكثر منها الخلفاء الراشدون في كتابة الرسائل لولاتهم، ينصحونهم ويستنجزونهم ما أمروهم به، ويحاسبونهم علي ما خالفوا فيه، وإلي القادة يوجهونهم في ميادين القتال، أو يوصونهم بالجند، ويذكرونهم بالواجب، ومن القادة إلي الأعداء يدعونهم إلي الإسلام ويبينون لهم الهدف من غزوهم، أو يردون عليهم

---

(١) انظر: الوزراء والكتاب للجهشياري ط الحلبي صـ١٢، والعصر الإسلامي للدكتور شوقي ضيف صـ١٣٠ .

(٢) انظر: العصر الإسلامي للدكتور شوقي ضيف صـ١٣٢ .

إذا أرسلوا لهم، ومن القادة إلي الخلفاء يستمدون منهم العون والمدد إذا ما احتاجوا إلي ذلك في جهادهم أعداء الإسلام، أو يهنئونهم بالنصر الذي تحقق للمسلمين، أو يستشيرونهم أو يطلبوا منهم النصيحة والرأي فيما قد يحدث لهم من قضايا، كذلك كان للكتابة دور كبير في الصراع بين علي ومعاوية في هيئة رسائل يكتبها كل منهما إلي الآخر يدعوه إلي الطاعة ، وبيان استحقاق علي الخلافة وغير ذلك مما دار بينهما من كتابات ولما أنشئت الدواوين في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب كانت هذه الدواوين مجالا واسعا ولتباري الكتاب في تجويد كتاباتهم حتي يحظون بالعمل في هذه الدواوين ٠

بعد هذا العرض يتبين لنا أن أهم ألوان الكتابة في ذلك العصر هي الرسائل، والوصايا، والعهود ٠

١ – الرسائل: تعددت الرسائل واتسع نطاقها في هذا العصر فقد كانت الوسيلة الناجحة في نقل الأفكار والقيم الإسلامية ، وبيان ما يمتاز به الإسلام من مبادئ تحرص علي إقامة مجتمع متكافل متضامن كما كانت السبيل إلي نقل ما يحرص عليه الرسول ﷺ وخلفاؤه وقواد الجيش وغيرهم من توجيهات ونصائح ودعوة إلي الالتزام بما شرعه الإسلام، وما دعا إليه من الجهاد والتضحية بالنفس والمال في سبيل الله وغير ذلك مما يراه القائد والزعيم من عتاب أو توجيه أو نصح وإرشاد وغير ذلك ومن هذه الرسائل ما أرسل به رسول الله محمد ﷺ إلي ملك الروم: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلي

هرقل عظيم الروم، سلام علي من اتبع الهدي، أما بعد ، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم ، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ وهذه الرسالة كما نري رسالة قصيرة بدأت بالبسملة ثم أما بعد : من محمد رسول الله، وأسلوبها جزل واضح اعتمد علي الجمل القصيرة، والاستشهاد بآيات من القرآن الكريم حتي كان ما يقرب من نصف هذه الرسالة آية قرآنية من سورة آل عمران[١] ، ومما يتضح فيه أهم خصائص الرسائل المحمدية رسالته إلي خالد بن الوليد، وكان قد بعثه إلي بني الحارث فأجابوه إلي الإسلام دون حرب، بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلي خالد بن الوليد ، سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإن كتابك جاءني مع رسولك ، يخبرني أن بني الحارث قد أسلموا قبل أن تقاتلهم، وأجابوا إلي ما دعوتهم إليه من الإسلام، وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، وأن قد هداهم الله بهديه، فبشرهم وأنذرهم، وأقبل وليقبل معك وفدهم والسلام عليك ورحمة الله وبركاته" فقد بدأت الرسالة بالبسملة ثم اسم المرسل منه دون تعظيم وهذا ما طبع الرسائل الإسلامية وميزها حيث تذكر اسم الكاتب والمكتوب إليه مجردين إلا من ألزم الصفات التي لابد منها

---

(١) آية رقم ٦٤ .

كالرسالة مع النبي ، أو الخلافة، كذلك فإنهم حرصوا علي استخدام الضمائر علي حقيقتها المفرد للمفرد، والمثني للمثني، والجمع ليس إلا للجمع فيقول الكاتب كذلك عن نفسه: أنا، وبي ، وجاءني، وعمن يخاطبه: أنت، وبك وجاءك ثم امتازت هذه الخطبة بجزالة ألفاظها ، وبلاغة معانيها، وانتهائها بتحية الإسلام: "والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته" كما بدأت بالسلام دون الإطالة أو التكلف والحرص علي الإيجاز فالمعاني اقتصرت علي الحقائق دون مبالغة، والهدف واضح من الرسالة، قصد إليه الرسول بعد الحمد والسلام.

بل إننا نجد بعض الرسائل موجزة إيجازا غير مخل ومن ذلك ما كتبه عمر بن الخطاب ﷺ إلي عمرو بن العاص بمصر يستنجده في مجاعة فقال: من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلي العاص بن العاص: سلام، أما بعد، فلعمري يا عمرو ما تبالي إذا شبعت أنت ومن معك، أن أهلك أنا ومن معي، فيا غوثاه، ثم يا غوثاه".

وكان رد عمرو بن العاص أوجز من تلك الرسالة حيث بعث إلي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فقال: "إلي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من عمرو بن العاص، أما بعد ، فيا لبيك قد بعثت إليك بعير أولها عندي وآخرها عندك والسلام".

ومن الرسائل الطويلة نوعا ما رسالة عمر بن الخطاب إلي سعد بن أبي وقاص، فقد تولي سعد بن أبي وقاص قيادة جيش المسلمين الذي توجه لحرب الفرس في القادسية وزوده عمر بن الخطاب بهذه

الرسالة فقال بعد البسملة وحمد الله أما بعد فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوي الله علي كل حال، فإن تقوي الله أفضل العدة علي العدو، وأقوي المكيدة في الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصي منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم[١]، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا، فاعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون" فاستحيوا منهم ولا تعلموا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، واسألوا الله العون علي أنفسكم كما تسألونه النصر علي عدوكم، أسأل الله تعالي ذلك لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله".

هذه رسالة عمر بن الخطاب إلي سعد بن أبي وقاص يوصيه فيها بالتمسك بالتقوي في كل حال لأن تقوي الله أقوي الأسلحة فهي القوة المعنوية التي تدفع الجنود إلي الحرص علي النصر، كما يحذره من الوقوع في المعصية لأنها مصدر الخطر الأول علي المجاهدين علي أنها أشد عليهم من خطر العدو، إلي آخر ما جاء في الرسالة التي بدأها بالبسملة وحمد الله ثم أما بعد فهذه الرسالة تعكس عمن نظرة عمر فتأتي كلماتها وكأنها موزونة بميزان الحكمة والقوة معا يعكس عمق البصيرة بالنفس الإنسانية، والإنسان والمواقف والمشكلات، فيناشد جنوده أن يلتمسوا عون الله في مواجهة النفس، كما يلتمسون عونه

---

(١) أخوف عليهم من عدوهم: أي أشد خطرا عليهم من عدوهم .

تماما في النصر علي العدو، مما يجعل هذا النص واحدا من دساتير الحرب الهامة، كما أن هذا النص ينبض بالعاطفة الدينية التي كان لها أثرها في اختيار الألفاظ والعبارات، كما يلاحظ علي هذه الرسالة أن فقراته متوازنة في معظمها منسجمة بعضها مع بعض ، ويمتاز بالترتيب المنطقي حيث يقدم الدعوي والدليل والبرهان علي صحتها، كقوله: "فإني آمرك بتقوي الله .. فإن تقوي الله أفضل العدة" ومثل: "وإنما يصر المسلمون بمعصية عدوهم، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة" مما يؤكد حرص عمر علي أن يلفت أنظار الجنود إلي أن الانتصار علي النفس ومحاربة شهواتها وسيلة هامة في تحقيق النصر علي الأعداء.

٣ - الوصايا والعهود :

الوصايا هي خلاصة تجارب ينقلها الموصي إلي من يوصيه حرصا علي أن يستفيد من تجاربه ويتجنب ما اعترضه من مشكلات وأن تكون الوصية له بمثابة بيان لسبك الخير، وتحذير من الانحرافات وفاقد يضر بالشخص أو يقال من كرامته، أو هي فن قولي يمتاز بالدقة والتركيز والشمول المستخلص من تجربة عاشها الموصي، أو راقبها، أفادته خبرة وسعت آفاقه الفكرية وأرهفت إحساسه ووجدانه موجهة إلي شخص حميم عنده يريد له السلامة والسواد في أي شأن من شئون الحياة وليفيد من خبرته وينتفع بها.

ولذلك كانت الوصية تمتاز بوضوح أفكارها ودقتها، كما تمتاز بالإيجاز في التعبير، وقصر الجمل، والاتجاه إلي مخاطبة العقل لإقناعه، مع حسن الوقع في الأذن بالحرص علي تساوي الجمل أو السجع الذي لا تكلف فيه.

وكانت الحاجة إلي الوصية في عصر صدر الإسلام والخلافة الراشدة نتيجة للظروف التي دعت إليها الحياة الجديدة في المجتمع الإسلامي فقد استكثر منها رسول الله ﷺ توجيها للأفراد والجماعات، وكانت هذه الوصايا النبوية تعاليم دينية أو شرائع إسلامية أو ترغيبا فيما عند الله ، ودعوة إلي الاتصال الدائم بالله، أو تزهيدا في أمتعة الحياة الدنيا، أو نحو ذلك مما من شأنه أن يعمق الإحساس الديني في النفس الإنسانية[١].

وقد كثرت وصايا رسول الله ﷺ لقوامه يذكرهم بما يجب عليهم وما ينبغي هجره، ويعرفهم بأقدار من معهم من الرجال وطبائع من سيلقونهم من الأعداء ، وتوصيتهم بما يعاملون به المشركين، والتحريض علي قتالهم، والتحذير من كيدهم، والتبشير بنيل إحدي الحسنيين: الشهادة أو النصر عليهم، كما كثرت وصاياه عليه الصلاة والسلام لعماله حين يرسلهم ولاة علي الأقاليم يذكرهم بالعدل والسعي في خير الناس ، والبعد عن المضارة ، والحرص علي تطبيق شرع الله، وأن يكونوا قدوة حسنة لمن يتعاملون معهم، كما كثرت كتابة

---

(١) انظر: الشعر الإسلامي في ظلال النبوة والخلافة الراشدة للدكتور/ عبدالسلام عبدالحفيظ صـ٨٥ .

العهود والمواثيق في العهد النبوي حيث كان عليه الصلاة والسلام وكذلك الخلفاء الراشدون يبرمون المعاهدات مع الآخرين ويكتبون المواثيق لمن يدعونهم إلي الإسلام، ومن يراجع كتب الحديث النبوي الشريف، والتاريخ والأدب يجد الكثير من تلك الوصايا والعهود التي صدرت عن الرسول ﷺ وعن الخلفاء من بعده.

ومن الوصايا العامة التي أوصي بها سيد الخلق محمد ﷺ أمته ما يرويه الإمامان أمد والترمذي[١] عن أبي هريرة ﷺ فينتفع بهن أو يعلمهن من ينتفع بهن؟ فقال أبوهريرة: قلت: أنا يا رسول الله، فأخذ بيدي وعد خمسا فقال: اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغني الناس، وأحسن إلي جارك تكن مؤمنا ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما، ولا الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب" ومعظم أحاديث الرسول وصايا ليعمل بها كل من هداه الله إلي الإسلام.

ومن وصايا أبي بكر الصديق لعمر بن الخطاب عندما أوصي له بالخلافة: "إني مستخلفك من بعدي، وموصيك بتقوي اله، إن لله عملا بالليل لا يقبله بالنهار، وعملا بالنهار لا يقبله بالليل، وإنه لا يقتل نافلة حتي تؤدي الفريضة، فإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا، وثقل عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلا، وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٨٠٨١) والترمذي (٢٣٠٥) وحسنه الألباني .

باتباعهم الباطل وخفته عليهم، وحق الميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفا، إن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم، وتجاوز عن سيئاتهم ، فإذا ذكرتهم قلت: إني أخاف أن لا أكدن من هؤلاء، وذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ أعمالهم، ولم يذكر حسناتهم، فإذا ذكرتهم قلت: إني لأرجو أن لا أكون من هؤلاء ، وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغبا راهبا ولا يتمني علي الله غير الحق، ولا يلقي بيده إلي التهلكة، فإذا حفظت وصيتي هذه فلا يكن غائب أحب إليك من الموت وهو آيتك، وإن ضيعت وصيتي فلا يكن غائب أبغض إليك من الموت، ولست بمعجز الله"٠

ومما سجله التاريخ من عهود ما كتبه عمر بن الخطاب ﷺ إلي أهل إيلياء ــ بيت المقدس ــ : بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطي عبدالله بن الخطاب أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها، وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم، ولا تهدم ولا ينفض منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شئ من أموالهم، ولا يكرهون علي دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن إيلياء معهم أحد من اليهود، وعلي أهل إيلياء أن يعطوا الجزية عن كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم ، فمن خرج منهم فإنه آمن علي نفسه وماله حتي يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما علي أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم، ويخلي بيعهم وصلبانهم فإنهم آمنون علَي أنفسهم وعلي بيعهم وصلبانهم حتي يبلغوا مأمنهم"٠

الفصل الثالث

الشعر والشعراء

بداية الشعر الإسلامي:

كان الشعر في الجاهلية سمة العرب التي يعرفون بها وديوان آدابهم، ولسان بيانهم ، وسجل أيامهم المشهودة وأعمالهم المأثورة، وكان الفراغ والانطلاق من قيود الدين، تجعلهم يهيمون به في كل واد، يفصحون به عما يقع تحت حواسهم، أو يخطر علي قلوبهم من وصف ، أو غزل لا يتحرزون فيه من ذكر الغافلات المقصورات في قدورهن إلي هجاء ومدح، فيهما كثير من المبالغة والبعد عن الحقيقة، كذلك كانت العصبية تسيطر علي الشعراء فجاءت أغراضه تخدم هذه العصبية من فخر ومباهاة ، مما يثير الضغائن والأحقاد ويضرم نار العداوات بين القبائل بعضها وبعض، ولذلك حرصت كل قبيلة علي أن يكون لها شاعر ينافح عنها، ويسجل محامدها ومفاخرها، فلما أشرق الإسلام بنوره علي هذا الكون، بدلهم بحياتهم الجاهلية، المشوبة بالوثنية والحمق الجاهلي حياة راقية، من حيث التدين والتعقل والاجتماع والسياسة، فامتلأت حياتهم بالمساعي النافعة، والحرص علي تحصيل الدين أو نشر تعاليمه ومبادئه، حيث أبطل الإسلام كثيرا من أمور الجاهلية، وفي مقدمتها العصبية التي كانت مبددة لوحدتهم، مفرقة لجماعتهم، وقيدهم بالحدود التي يجب أن يلتزموا بها وألا يتعدوها في دين أو أدب، فحرم الغيبة والنميمة والكذب وإشاعة الفاحشة في الناس،

والتفاخر بالأنساب والأحساب والوقـوع فـي الأعـراض، وتأريـث العداوات، لذلك نري الشعراء مع بداية الإسلام، قد هالهم ما جاء بـه الدين الحنيف من تعاليم تحارب ما كانوا عليه من كثير من العـادات، وما رأوا من بلاغة القرآن الكريم وفصاحة النبي الكـريم، حتـي إن بعض الشعراء وقفوا أمام بلاغة القرآن الكريم متأملين، وعكفوا علـي تذوقه والتعرف علي حسن بيانه فانقطعوا عن الشعر، مثل: لبيد الـذي كان من المقدمين المشهورين بين شعراء الجاهلية، ولم يقل في الإسلام إلا بيتا واحدا هو:

الحَمدُ لِله إذْ لَمْ يَـأْتِنِي أَجَلِـي ∴ حَتَّى اكْتَسَيْتُ مِنَ الإِسْلَامِ سِرْبَالَا

وبعضهم احتقر الشعر وقوله، واعتبروه مشغلة لهم عن مدارسـة القرآن، وعبادة الله تعالي، وخاصة بعد أن سمعوا قول الحـق تبـارك وتعـالي: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾.

وقول الرسول ﷺ : "لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتي يريه خير له من أن يمتلئ شعرا"[١].

---

(١) يريه: أي يفسده ، والحديث في كتاب العمدة ١/ ١٢ .

إلي جانب أن المسلمين كانوا في مكة، علي درجة من الضعف في مواجهة قوي الشر فلم يتمكنوا من الانتصاف لأنفسهم بالقول، فضلا عن قول الشعر الذي كان يخشى بأسه، ويعمل حسابه ٠

فالذين لا يقدرون علي دفع من يحاربهم في أرزاقهم، وينزلون بهم ألوانا من العذاب والهوان، ويحرمونهم من ضرورات الحياة، لا يستطيعون أن يجهروا بالشعر، يهجون به من عذبهم وأذاهم إذا هم قالوه،ولا يستطيعون أن يعاتبوا به، إذا سمحت نفوسهم بالعتاب، لكن بعد هجرة المسلمين إلي المدينة يبدل الحال، ويدخل الناس في دين الله أفواجا، فازداد المسلمون قوة، وانحلت عقدة الخوف من قول الشعر فهم في مأمن من أذي قريش، وفي الوقت نفسه أخذ الرسول ﷺ يشجعهم علي قول الشعر، وبدأ الصراع الحقيقي بين المسلمين الفارين بدينهم من دولة الشرك إلي يثرب حاملين، معهم الدعوة إلي الدين الجديد، وبين المشركين حماة الوثنية، ومن التف حولهم من القبائل، ومن تآمر معهم من اليهود، واشتدت الخصومة بين الرسول ﷺ وبين قريش، فجردوا عليه الأسنة والألسنة، وأخذوا يهجون الرسول ﷺ ويحطون من دعوته وبدأ هذه الحملة عبدالله بن الزبعري وعمرو بن العاص، وأبوسفيان، وكعب بن الأشرف، فآذوا رسول الله ﷺ وأتباعه بأفحش الهجاء، فأهاج ذلك من شاعرية المسلمين، وودوا لو يأذن لهم الرسول ﷺ بالرد عليهم، فما هو إلا أن قال لهم: "ما يمنع الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم؟ فقال حسان بن ثابت: أنا لها، وأخذ بطرف لسانه وقال: يا رسول الله، والله: ما يسرني به مقول بين

بصري وصنعاء[١]، فقال له رسول الله ﷺ : "وكيف تهجوهم وأنا منهم؟" قال: "إني أسلك منهم كما تسل الشعرة من العجين" فقال عليه الصلاة والسلام له: "اذهب إلي أبي بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم، ثم اهجهم وجبريل معك"[٢] فأخذ حسان يهجوهم مدافعا عن رسول الله وعن دينه، وانضم إليه في ذلك نفر من الشعراء كان في مقدمتهم: عبدالله بن رواحة، وكعب بن مالك، ولكن حسانا كان أشدهم وأوجعهم، وكثيرا ما كان ﷺ يقول له: "شن الغارة علي بني عبد مناف فوالله لشعرك أشد عليهم من وقع الحسام في غلس الظلام"، يأخذ السجال الكلامي بين الفريقين طريقه إلي الساحة الأدبيه ويسجل التاريخ معارك كلامية حامية، سميت بالنقائض، وينثال القريض يسجل ويبدع نقائض تعزف في ملحمة النضال بين الكفر والإيمان، وبين قوي الشر وأصحاب الدعوة السمحة، الآخذة بأتباعها إلي طريق الهدي والرشاد وقد سجلنا في كتابنا "النقائض في عهد البعثة المحمدية" أكثر من ثلاثين نقيضة قيلت في معظم الأحداث التي شهدها الصراع بين الجانبين ابتداء من تعرض المشركين لمن آمنوا بمحمد في بيعة العقبة الثانية، ثم ما حدث في موقعة بدر الكبري وأحد، وإجلاء بني النضير، وغزوة الخندق وبني قريظة، وبعد غزوة الأحزاب، ثم بعد فتح مكة[٣] .

---

(١) انظر الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ٤/ ١٣٧ ط دار الكتب مصورة.

(٢) بصري بضم الباء اسم لموضعين بصري الشام من أعمال دمشق وبصري بغداد وهي إحدي قري بغداد .

(٣) انظر هذا بالتفصيل في كتابنا: النقائض في عهد البعثة المحمدية ـ الطبعة الأولي ١٩٨٤م مطبعة الشباب الحر.

ومن ذلك ما قاله حسان بن ثابت ردا علي ما قاله عبدالله بن الزبعري السهمي حين بكي قتلي بدر:

اِبْكِ بَكَتْ عَيْنَاكَ ثُمّ تَبَادَرَتْ ∴ بِدَمٍ تُعَلُّ غُرُوبُهَا سَجامِ
مَاذَا بَكَيْتَ عَلَيَ الَّذِينَ تَتَابَعُوا ∴ هَلاَّ ذَكَرْتَ مَكَارِمَ الأَقْوَامِ؟
وَذَكَرْتَ مِنَّا مَاجِدًا ذَا هِمَّةٍ ∴ سَمْحَ الخَلاَئِقِ صَادِقَ الإِقْدَامِ
أَعْنِي النَّبِيَ أَخَا المَكَارِمِ والنَّدَي ∴ وَأَبَرَّ مَنْ يُولِي عَلَي الإِقْسَامِ
فَلِمِثْلِهِ وَلِمِثْلِ مَا يَدْعُو لَهُ ∴ كَانَ المُمَدَّحَ ثَمّ غَيْرَ كَهَامِ[1]

فحسان بن ثابت يشهد بكاء عبدالله بن الزبعري وتحسره وحزنه علي أولئك النفر الكرام الذين تضرجوا في دمائهم حول بدر، والألم يعتصر قلبه، وتعجبه في لوعة مما حدث لأبطال قومه أصحاب المحامد والمكارم والمآثر والأعراق الأصيلة في قريش، ويذكر منهم أبا جهل الرئيس الماجد وعتبة بن ربيعة وغيرهما٠ فيرد عليه حسان بهذه الأبيات التي يستحثه فيها علي الاستمرار في البكاء والعويل، داعيا له بأن يكون الدم المدرار بكاء عينيه، بدلا من الدمع، ثم يوضح له في سخرية لاذعة، أن الدمع وحده غير كاف في رثاء هؤلاء

---

(١) انظر الأبيات في ديوان حسان بن ثابت الأنصاري دار صادر بيروت صـ٢٣٠، والمرجع السابق صـ٦٧ وما بعدها٠ **ومعني الكلمات الصعبة:** **تعل** ـ بضم التاء وفتح العين: تكررت مأخوذ من العلل وهو الشرب بعد الشرب، **الغروب** ـ بفتحهما ـ جمع غرب وهو مجري الدمع، **سجام**: سائل، تتابعوا: أي ألقوا بأنفسهم في التهلكة، فكانوا حصاد بدر، **يولي**: يقسم ويحلف، الإقسام: مفرد قسم بفتح القاف والسين وهو اليمين بالله أو بغيره، **وكهام**: الكهام : الكليل البطئ ٠

الكرام، وأن بكاءهم الصحيح، هو ذكر أمجادهم وأفضالهم، وإذا ذكرت ذلك فإن ذكر النبي عليه الصلاة والسلام بمحامده الكريمة وصفاته الشريفة، وأخلاقه النبيلة يلغي كل ما تذكر، ويطغي علي جميع ما تذهب إليه في جانب هؤلاء وأمثالهم، واستتبع ذلك شحذ الهمم واستخدام أمضى الأسلحة وأقواها لدي كل فريق، وخاصة بعد أن فهموا أن الدين الإسلامي لم يكره الشعر كله علي إطلاقه، وإنما كره منه ذلك النوع الذي يمزق الشمل ويثير الضغائن، وهو الذي هاجمه القرآن الكريم والرسول ﷺ ، واستراحت نفوسهم بعد أن أبدي الرسول عليه الصلاة والسلام إعجابه بالشعر الذي لا يفرق الصفوف، أو يتناول الآخرين بالهجاء والأذي حيث قال عليه الصلاة والسلام في مدح الشعر: "أصدق كلمة قالها لبيد: "ألا كل شئ ما خلا الله باطل" كما عرفوا أن الآية الكريمة التي نزلت في الشعراء إنما يراد بها شعراء قريش الذين اتخذوا الشعر أداة للهجاء والطعن في الأعراض ، والغزل الفاحش الصريح، تملق الناس بالمدح والفخر الباطل، ووصف الخمر وما يكون في مجالسها من الندمان والقيان، أما الأشعار التي تحرص علي الدفاع عن الحق وتلتزم بالقيم الإسلامية، وتهتدى بنور الإيمان، فإن الإسلام يشجعها ولا يرفضها، وأخذ الشعراء المسلمون يلتزمون بما وجه إليه دينهم الحنيف وشحذوا هممهم، وأخذوا ينتصرون لأنفسهم بالكلمة المنغومة ممن تناولوهم بالسباب والعدوان تطاولا عليهم وشاركوا مشاركة فعالة في تلك المعارك الكلامية التي اشتعلت بين فريق الكفر والضلال من جهة وفريق الإيمان والهدي والرشاد من

جهة أخري، فرافقت أشعارهم وسائل الدفاع العديدة التـي لجـأ إليهـا الفريقان، بل كانت مجالا رحبا لأربـاب البيـان وفرسـان القـول، فاستخدموا كل وسائلهم الفنية في هذا النزال الشرس، حفزا للمشـاعر، وتثبيتا للقلوب، فاحتدمت المعارك الحربية والأدبية، واسـتعر أوارهـا بين الفريقين، وأخذ رجال الفكر وأصحاب الكلمـة الفنيـة يصـورون أحداثها في أدب رفيع رائع، فكانت الحصيلة كما هائلا من الفن الأدبي الراقي ، فقصائد تحكي مواقف وبطولات رائعة، ومطولات تعـرض للكفاح المرير ضد قوي الشـر الباغيـة، ومقطوعـات تسـجل آراء ومعتقدات فريق الهدي والرشاد، وأناشيد هادرة تدعو إلي الحب والخير وترك العناد والمكابرة، ونقائض تهـدم الأضـاليل وتـرفض البغـي والفساد، ليحل محلها التواصي بالحق والعـدل والتـراحم[1]، وتمتلـئ الساحة الأدبية بالعديد من الشعراء الذين أسهموا بجهودهم وأشـعارهم في حمل رسالة الإسلام السمحة، والدعوة إلي التآخي والتناصر، ونبـذ الحقد والكراهية .

ومن هؤلاء بعد الشعراء الثلاثة الذين حملـوا عـبء الصـراع الشعري بين المسلمين وقريش: حسان بن ثابت، وعبدالله بن رواحـة، وكعب بن مالك، وكعب بن زهير، والخنساء، وعبـاس بـن مـرداس السلمي، ومالك الريب التميمي، والأعشي الكبير، وسويد بن الصـامت الذي كان يلقب بالكامل، وخبيب بن عدي بن مالك، والنابغة الجعـدي، وعمرو بن الجموح بن زيد بن حرام، والحباب بن المنذر بن الجموح،

(١) راجع: النقائض في عهد البعثة المحمدية للمؤلف صـ٤، ٥ .

وغيرهم ممن أسلموا بعد أن انتشر الإسلام. وأقبل عليه من هداهم الله ووفقهم إلي الانضواء تحت راية الإسلام ونأخذ في التعريـف بـبعض هؤلاء الشعراء.

١- حسان بن ثابت

أ- حياته:

هو أبوالوليد حسان بن ثابت المنذر الأنصاري الخزرجي ويكنـــي أبا الوليد، وأبا الحسام وأبا عبدالرحمن وبنو النجار الذين ينتسب إلـــيهم حسان هم أخوال رسول الله ﷺ ولذلك كان لحسان بالرسول ﷺ صـــلة قرابة إلي جانب صلة الدين والعقيدة، وأم حسان هي: الفريعة بنت خالد بن حبيش من الخزرج أيضا، أدركت الإسلام فأسلمت، وكان أبوه ثابت وجده المنذر من أشراف قومهم والحكام بـــين الأوس والخـــزرج فـــي المدينة قبل بعثة الرسول ﷺ .

ولد حسان بيثرب بنحو ستين عاما قبل الهجرة، ونشأ فـــي بيـــت شرف وجاه، وأدرك بعض وقائع قومه الخزرج مع الأوس في الجاهلية قبل الإسلام.. فكان شاعرهم. عمر حسان بن ثابت عشـــرين ومائـــة سنة ستين في الجاهلية وستين في الإسلام ، عندما قدم رســـول الله ﷺ المدينة كان لحسان يومئذ ستون سنة أو إحدي وستون سنة[١] .

نشأ حسان في بيت في الشعر، فأبوه وجـــده شـــاعران، وابنـــه عبدالرحمن وجنده سعيد شاعران، وكان هو أشعر أهل بيته، بل كـــان أشعر الحضر في عصره، فبعد أن شب واتسعت مداركه وأحس مـــن نفسه قدرة علي قول الشعر الجيد، ورأي فحول زمانه من أمثال النابغة والأعشي والحطيئة يتكسبون بالشعر ويحترفون المـــدح، رغـــب فـــي

---

(١) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ٤/ ١٣٦ .

عرض مدائحه علي ملوك العرب، فكان يقصد بهـا آل جفنـة ملـوك غسان، بشرقي الشام ، وهم من قبيلة الأزد، فكان يقصـدهم بمدائحـه عاما، ويقعد عنهم عاما، وكان يرجع عنهم بالجوائز العظيمة، حتي قيل إنهم جعلوا له مرتبا سنويا يصل إليه ، كما اتجه إلي النعمان بن المنذر ملك الحيرة ومدحه بشعره، وكان يلقي لديه كل تقدير وتكـريم، ولمـا هاجر الرسول ﷺ إلي يثرب أسلم حسان مع أهلها، وكان في السـتين من عمره، وجعل شعره في نصرة رسول الله ﷺ فكان شاعر الأنصار في الجاهلية، وشاعر النبي ﷺ خلال فترة النبوة في المدينة، وشـاعر اليمن كلها في الإسلام[1] وكان يهجو رسول الله ﷺ ثلاثة رهـط مـن قريش: عبدالله بن الزبعري، وأبوسفيان بن حرب، وعمرو بن العاص ـ قبل إسلامهما ـ فقال قائل لعلي بن أبي طالب رضوان الله عليـه : اهج عنا القوم الذين قد هجونا، فقال علي ﷺ : إن أذن لي رسـول الله ﷺ فعلت، فقال رجل: يا رسول الله ائذن لعلي كي يهجو عنـا هـؤلاء القوم، الذين هجونا، قال: "ليس هناك" أو "ليس عنده ذلـك" ثـم قـال للأنصار: "ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ، فقال حسان بن ثابت أنا لها ... فكان يهجوهم ثلاثـة مـن الأنصار : حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبدالله بن رواحة، فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قـولهم بالوقـائع والأيـام والمـآثر، ويعيرانهم بالمثالب، وكان عبدالله بن رواحة يعيرهم بالكفر، فكان فـي ذلك الزمان أشد القول عليهم قول حسان وكعب، وأهون القول علـيهم

---

(١) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ٤/ ١٣٧ .

قول ابن رواحة ، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام ، كأن أشد القول عليهم قول ابن رواحة[١]. يذكر صاحب كتاب الأغاني أن الرسول ﷺ كان في سفر، فقال : "أين حسان بن ثابت؟" فقال حسان: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: "احد" فجعل ينشد ويصغي إليه النبي ﷺ ويستمع، فما زال يستمع إليه وهو سائق راحلته حتي كان رأس الراحلة يمس الورك، حتي فرغ من نشيده، فقال النبي ﷺ : "لهذا أشد عليهم من وقع النبل"[٢] ومر الزبير بن العوام بمجلس من أصحاب رسول الله ﷺ وحسان بن ثابت ينشدهم من شعره، وهم غير نشط لما يسمعون منه، فجلس معهم الزبير، فقال: مالي أراكم غير آذنين لما تسمعون من شعر ابن الفريعة، فلقد كان يعرض لرسول الله ﷺ فيحسن استماعه، ويجزل عليه ثوابه، ولا يشتغل بشئ عنه، فقال حسان:

أَقَامَ عَلَي عَهْدِ النَّبِيِّ وَهَدْيِهِ .:. حَوَارِيه[٣] وَالقَوْلُ بالفِعْلِ يعْدِلُ

أَقَامَ عَلَي مِنْهَاجِهِ وَطَرِيقِهِ .:. يُوَالِي وَلِي الحَقّ والحَقّ عَدْلُ

هُوَ الفَارِسُ المَشْهُورُ والبطَلُ الَّذِي .:. يَصُولُ إِذَا مَا كَانَ يَوم مُحَجَّلُ

إِذَا كَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا الحربُ حَشَّهَا[٤] .:. بِأَبيضَ سَبَّاقٍ إِلَي المَوْتِ يُرْقِلُ[٥]

وَإِنَّ امْرَأً كانَتْ صفيةُ أُمهُ .:. وَمِن أَسَدٍ فِي بَيْتِهَا لَمُرَفَّلُ[٦]

---

(١) الأغاني ٤/ ١٣٨ .

(٢) الأغاني ٤/ ١٤٣ .

(٣) حواريه : حواري النبي الزبير بن العوام لقوله عليه الصلاة والسلام: "إن لكل نبي حواريا وإن حواري الزبير".

(٤) حشها: أهاجها وأسعرها.

(٥) يرقل: بضم الياء: يسرع في المسير.

(٦) المرفل: المعظم المسود .

لَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ قُرْبَى قَرِيبَةٌ .·. وَمِنْ نُصْرَةِ الإِسْلامِ نَصْرٌ مُؤَثَّلُ
فَكَمْ كُرْبَةٍ ذَبَّ الزُّبَيْرُ بِسَيْفِهِ .·. عَنِ المُصْطَفَى وَاللهُ يُعْطِي فَيُجْزِلُ
فَمَا مِثْلُهُ فِيهِم وَلا كَانَ قَبْلَهُ .·. وَلَيْسَ يَكُونُ الدهرَ مَا دَامَ يَذْبُلُ[١]
ثَنَاؤُكَ خَيْرٌ مِنْ فِعَالِ مَعَاشِرٍ .·. وَفِعْلُكَ يَا ابْنَ الهَاشِمِيَّةِ أَفْضَلُ[٢]

ولما كان عام الأحزاب وردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيرا، قال النبي ﷺ "من يحمي أعراض المسلمين؟" فقال كعب: أنا يا رسول الله، وقال : عبدالله بن رواحة: أنا يا رسول الله، وقال حسان بن ثابت: أنا يا رسول الله، فقال : "نعم اهجهم أنت فإنه سيعينك عليهم روح القدس"[٣].

ويذكر صاحب كتاب الأغاني[٤] أنه لما قدم علي النبي ﷺ وفد بني تميم في السنة التاسعة من الهجرة، وكانوا سبعين رجلا، فيهم الأقرع بن حابس، والزبرقان بن بدر، وعطارد بن حاجب، وقيس بن عاصم، وعمرو بن الأهتم، وانطلق معهم عيينة بن حصن، فقدموا المدينة، فدخلوا المسجد، فوقفوا عند الحجرات، فنادوا بصوت عال جاف: اخرج إلينا يا محمد، فقد جئنا لنفاخرك، وقد جئنا بشاعرنا وخطيبنا، فخرج إليهم رسول الله ﷺ فجلس، فقام الأقرع بن حابس فقال: "والله إن مدحي لزين، وإن ذمي لشين، فقال النبي ﷺ : "ذلك الله"

---

(١) يذبل: جعل في بلاد نجد .
(٢) هذه أبيات جاءت في ديوان حسان بعنوان: هو الفارس . انظر ديوان حسان بن ثابت الأنصاري صـ١٩٨ ، والأغاني ٤/ ١٢٤ وما بعدها .
(٣) السابق والصفحة .
(٤) الأغاني ٤/ ١٤٦ وما بعدها .

فقالوا: إنا أكرم العرب، فقال رسول الله ﷺ : "أكرم منكم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليه السلام" فقال: إيذن لشاعرنا وخطيبنا، فقام رسول الله ﷺ فجلس، وجلس معه الناس، فقام عطارد بن الحاجب فقال : "الحمد لله الذي له الفضل علينا وهو أهله، الذي جعلنا ملوكا، وجعلنا أعز أهل المشرق، وأتانا أموالا عظاما نفعل فيها المعروف، ليس في الناس مثلنا، ألسنا برءوس الناس وذوي فضلهم؟! فمن فاخرنا فليعدد مثل ما عددنا، ولو نشاء لأكثرنا، ولكنا نستحي من الإكثار فيما خولنا الله وأعطانا، أقول هذا فأقول بقول أفضل من قولنا، ألمر أبين من أمرنا، ثم جلس فقام ثابت بن قيس بن شماس فقال: الحمد لله الذي له السموات والأرض خلفه، فقضي فيهن أمره، ووسع كرسيه علمه، ولم يقض شيئا إلا من فضله وقدرته، فكان من قدرته أن اصطفي من خلقه لنا رسولا، أكرمهم حسبا، وأصدقهم حديثا، وأحسنهم رأيا، فأنزل عليه كتابا، وأتمنه علي خلقه، وكان خيرة الله من العالمين، ثم دعا رسول الله إلي الإيمان، فأجابه من قومه وذوي رحمته المهاجرون أكرم الناس أنسابا، وأصح الناس وجوها، وأفضل الناس فعالا، ثم كان أول من اتبع رسول الله ﷺ من العرب، واستجاب له نحن معشر الأنصار، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله، نقاتل الناس حتي يؤمنوا، ويقولوا: لا إله إلا الله، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ما له ودمه، ومن كفر بالله ورسوله جاهدناه في الله وكان جهاده علينا يسيرا، أقول قولي هذا ،وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات، فقام الزبرقان فقال:

نَحْنُ الكِرَامُ فَلَا حَـيٌّ يُعَادِلُنَـا .·. مِنَّا المُلُوكُ وَفِينَا يُؤْخَـذُ الرُّبُـعُ
تِلكَ المَكَارِمُ حُزْنَاهَا مُقَارَعَـةً .·. إِذَا الكِرَامُ عَلَي أَمْثَالِهَا اقْتَرَعُـوا
كَمْ قَدْ نَشَدْنَا مِنَ الأَحياءِ كُلِّهِمُو .·. عِنْدَ النِّهابِ وَنضلُ العِـزِّ يُتَّبَـعُ
وَننْحَرُ الكُومَ عَبْطَاً[1]فِي مَنَازِلِنَا .·. لِلنَّازِلِينَ إِذَا مَا اسْتَطْعَمُوا شَبِعُوا
وَنَحْنُ نُطْعِمُ عِنْدَ المَحْلِ مَا أَكلُوا .·. مِنَ الشِّوَاءِ إِذَا لَمْ يَظْهَرِ القَزَعُ[2]
وَنَنْصُرُ النَّاسَ تَأْتِينَا سَرَاتُهمُو .·. مِنْ كُلِّ أدب فَتَمْضِي ثُـمَّ تَتَّبِـعُ

فأرسل رسول الله ﷺ إلي حسان بن ثابت فجاء، فأمره أن يجيبه، فسأل حسان عما قاله الزبرقان لأنه كان غير موجود، فأنشدوه ما قـال فقال حسان:

إِنَّ الذَّوَائِبَ مِنْ فِهْرٍ وإِخْـوَتِهِمْ .·. قَدْ بَيَّنُـوا سُـنَّةً لِلنَّـاسِ تُتَّبَـعُ
يَرْضَي بِهَا كُلُّ مَنْ كَانتْ سَـرِيرَتُهُ .·. تَقْوَي الإِلَهِ وَبِالأَمْرِ الَّذِي شَرَعُوا
قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمُو .·. أَوْحَاوَلُوا النَّفْعَ فِي أَشْيَاعِهِمْ نَفَعُوا
سَجِيَّةٌ تِلكَ فِيهِمْ غَيْـرُ مُحْدَثَـةٍ .·. إِنَّ الخَلَائِقَ فَاعْلَمْ شَرُّهَا البِـدَعُ
لَا يَرْقَعُ النَّاسُ مَا أَوْهَتْ أَكُفُّهُمُ .·. عِنْدَ الدِّفَاعِ وَلَا يُوهُونَ مَا رَقَعُوا
إِنْ كَانَ فِي النَّاسِ سَبَّاقُونَ بَعْدَهُمُو .·. فَكُلُّ سَبْقٍ لِأَدْنَـي سَـبْقِهِمْ تَبَـعُ
أَعِفَّةٌ ذُكِرَتْ فِي الوَحْيِ عِفَّتُهُمْ .·. لَا يَطْمَعُونَ وَلَا يَزْرِي بِهِمْ طَمَعُ
وَلَا يَضِنُّونَ عَلَي جَارٍ بِفَضْلِهِمُو .·. وَلَا يَمَسُّهُم مِـنْ مَطْمَـعٍ طَبَـعُ

---

(١) **الكوم**: جمع أكوم وهو البعير الضخم السنام، **وعبطا**: بضم العـين، عـبط الذبيحة عبطاً: نحرها من غير داء ولا كسر وهي سمينة .

(٢) **القزع**: السحاب أي نطعم الذبيحة في المحل وضيق المعيشة .

يسْعَونَ للحَرْبِ تَبْدُوَ وَهِيَ كالِحَةٌ ∴ إذا الزَّعانِفُ مِنْ أظْفارِها خَشَعُوا[(١)]

لا يَفْرَحُونَ إذَا نَالُوا عَـدُوَّهُمو ∴ وَإنْ أُصِيبُوا فَلاَ خُورٌ وَلا جُـزُعُ

كَأنَّهُم فِي الوَغَيِ وَالموتَ مُكْتَنِعٌ[(٢)] ∴ أُسُودُ بِيشَةَ[(٣)] فِي أرْسَاغِهَا فَدَعُ[(٤)]

خُذْ مِنْهُمُو مَا أتَي عَفْواً وَإنْ مَنَعُوا ∴ فَلاَ يَكُنْ هَمُّكَ الأمْرَ الَّذِي مَنَعُـوا

فَإنَّ فِي حَرْبِهِمْ -فَاتْرُكْ عَدَاوَتَهُمْ- ∴ سُمّاً يُخَاضُ عَلَيهِ الصَّابُ وَالسَّلَعُ[(٥)]

أكْرِمْ بِقَوْمٍ رَسُولُ اللهِ قَائِـدُهُم ∴ إذَا تَفَرَّقَـتِ الأهْـوَاءُ والشِّـيَعُ

أهْدَي لَهُمْ مَدْحِي قَلْبٌ يُـوَازِرُهُ ∴ فِيمَا أرادَ لِسَـانٌ حَائِـلٌ صَـنَعُ

فَإنَّهُمْ أفْضَلُ الأحْيَـاءِ كُلِّهِمُـو ∴ إنْ جَدَّ بِالنَّاسِ جِدُّ القَوْلِ أوْ شَمَعُوا[(٦)]

فقال الأقرع بن حابس: والله إن هذا الرجل لمؤتي لــه، والله إن لشاعره أشعر من شاعرنا، ولخطيبه أخطب من خطيبنا، ولأصـــواتهم أرفع من أصواتنا، اعطني يا محمد، فأعطاه، فقال: زدني فزاده، فقال: اللهم إنه سيد العرب، فنزلت فـيهم :﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [(٧)] ثم إن القوم أسلموا، وأقاموا عند النبـي ﷺ

---

(١) **الزعانف**: أرذال الناس.

(٢) **مكتنع**: الداني القريب .

(٣) **بيشة**: وادي بيشة علي خمس مراحل من مكة وهو موضع مشـجر كثيـر الأسود.

(٤) **مدع**: اعوجاج في رسغ اليد .

(٥) **يخاض**: يخلط، **والصاب والسلع**: نوعان من الشجر مران.

(٦) **شمعوا**: أي فرحوا .

(٧) سور الحجرات آية ٤ .

يتعلمون القرآن ويتفقهون في الدين، ثم أرادوا الخروج إلي قومهم فأعطاهم رسول الله وكساهم[١].

ب- شخصية حسان بن ثابت: ١ - مما لا شك فيه أن حسان بن ثابت كان لسان حال الدعوة الإسلامية، والمنافح عن رسول الله ﷺ بالكلمة المنغومة التي كان وقعها علي أعداء الإسلام أشد من وقع النبل كما قال رسول الله ﷺ ، ولذلك حظي برضا الرسول ﷺ حتي سأل الله أن يؤيده بروح القدس ، ولكنه لم يكن رغم كل ذلك مثاليا فيما يختص بتعاليم الإسلام وروحه النقية الطاهرة، فقد أخذ عليه مآخذ وأخطاء لا يصدر مثلها من شخص تمكن الدين من قلبه وسيطر علي نزعاته وجوارحه، ومن ذلك أن اشترك في حديث الإفك المشئوم"[٢] ففي غزوة بني المصطلق التي وقعت سنة ست من الهجرة اصطحب الرسول ﷺ السيدة عائشة التي وقعت عليها القرعة في هذه الرحلة، حيث كان النبى إذا أراد سفرا صنع قرعة بين نسائه، فأية واحدة منهن خرج سهمها خرجت معه، فلما فرغ رسول الله ﷺ من هذه الغزوة، عاد متوجها إلي المدينة بأصحابه، فلما كان قريبا من المدينة نزل منزلا فبات به بعض الليل وبات الناس معه، ثم أذن في الناس بالرحيل، فارتحلوا ورفعوا هودج عائشة علي بعيره، وهم لا يدرون أنها ليست فيه — حيث كانت

---

(١) انظر قصة هذا اللقاء وأبيات الزبرقان وحسان في ديوان حسان بن ثابت صـ١٤٤ وما بعدها مع اختلاف في بعض الأبيات في هذا الديوان وما جاء في الأغاني ٤/ ١٤٦ وما بعدها .

(٢) تاريخ الشعر العربي للدكتور محمد عبدالعزيز الكفراوي ١/ ٢٦ دار نهضة مصر للطبع والنشر .

خفيفة الجسم — وساروا عائدين إلي المدينة، وكانت عائشة قد تركت هودجها لتقضي حاجتها بعيدا عن اجتماع القوم، وفي عنقها عقد، فلما عادت إلي رحلها لم تجد العقد في عنقها، فرجعت إلي المكان الذي قضت فيه حاجتها تبحث عن العقد وكان الوقت ليلا حتي وجدته، فرجعت إل مكان القوم فلم تجد أحدا، حيث ارتحلوا، فتلففت بجلبابها، واضطجعت في مكانها انتظارا لطلب القوم لها. ومر صفوان بن المعطل السلمي بها، وكان في مؤخرة القوم، فوقف عليها وأخذ يسترجع : "إنا لله وإنا إليه راجعون" ظعينة رسول الله ما خلفك يرحمك الله؟! فلم ترد عائشة عليه جوابا، فقرب إليها بعيره، وقال لها: اركبي، وتأخر عنها، وأخذ هو برأس البعير، وسار سريعا يطلب الناس فلم يلحق بهم، ودخل صفوان المدينة في الصباح يقود الجمل وعليه عائشة، فأرجف بها الناس، ورموها بالإفك، وكان في مقدمة هؤلاء: عبدالله بن سلول رأس المنافقين ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ وحسان بن ثابت، وأوذي الرسول ﷺ بهذا الحديث إيذاء شديدا، وبقي الأمر قريبا من شهر حتي نزل القرآن الكريم يبرئ ساحة أم المؤمنين العفيفة الطاهرة، في آيات تتلي إلي أن يرث الله الأرض ومن عليها : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ

خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [١] وسعد الرسول وزوجه بهذه البـــراءة الربانية ، وخرج رسول الله ﷺ بعد أن تنزلت عليـــه هـــذه البـــراءة ، فخطب الناس وتلا عليهم ما نزل من القرآن، وأمر بمسطح وبحســـان وحمنة، وبابن سلول وهم الذين أشاعوا الاتهام الخطير وأذاعـــوه بـــين الناس ، فضربوا حد القذف. وقيل إن صفوان ضرب حسان بن ثابـــت بالسيف لما قاله فيه وفي عائشة زوج النبي ﷺ من الإفك، لأن صفوان هو الذي رمي أهل الإفك عائشة به[٢] وقد كان حسان قد قـــال شـــعرا يعرض بابن المعطل وبمن أسلم من العرب، بعد أن رأي كثـــرة مـــن يأتي إلي النبي من العرب المهاجرين فيسلمون فقال:

أَمْسَى الجَلاَبِيبُ قَدْ عَزّوا وَقَدْ كَثُرُوا ∴ وَابْنُ الفُرَيْعَةِ أَمْسَى بَيْضَةَ البَلَـدِ[٣]
يَمْشُونَ بِالقَوْلِ سِرًّا فِي مُهَادَنَةٍ ∴ تَهَدّدا لِي كَأَنّيَ لَسْتُ مِـنْ أَحَـدِ
قَدْ ثَكِلَتْ أُمُّهُ مَن كُنتُ صَـاحِبَه ∴ أَوْ كَانَ مُنْتَشِباً فِي بُرْثُنِ الأَسَـدِ
مَا لِلقَتِيلِ الَّذِي أَعْـدُو فَآخُـذُه ∴ مِنْ دِيَةٍ فِـيهِ أُعْطِيهَـا وَلاَ قَـوَدِ
مَا البَحرحِينَ تَهُبّ الرِّيحُ شَامِيةً ∴ فَيَغْطَئِلّ وَيَرْمِي العِبْرَ بِالزَّبَـدِ[٤]
يَوْماً بِأَغْلَبَ مِنّي حِينَ تُبصِـرُنِي ∴ بِالسَّيفِ أَفْرِي كَفَرْي العارِضِ البَرِدِ[١]

---

(١) الأيتان رقم ١١، ١٢ من سورة النور.
(٢) انظر الأغاني ٤/ ١٥٦ .
(٣) **الجلابيب**: سمي بعض المهاجرين بالجلابيـــب استصـــغار لشـــأنهم، وابـــن الفريعة: يريد نفسه، **وبيضة البلد**: أي بيضة النعام، وفي المثل: هو أذل مـــن بيضة البلد، لأن النعام يترك بيضه فيحتضنه غيره .
(٤) **يغطئل**: اغطئل الشئ : ركب بعضه بعضا، **والعبر**: جانب النهر.

إلي آخر ما قاله، وواضح من البيت الثـاني أنـه يثيـر حادثـة الاختلاف التي حدثت بين أحد المهاجرين مع فتية من الأنصار علـي ماء كانوا يسقون دوابهم منه بعد عودة الرسـول مـن غـزوة بنـي المصطلق، وقد حاول عبدالله بن أبي بن سلول ـ رأس المنافقين ـ أن يستغل هذه الحادثة استغلالا سيئا، وأن يشعل الحرب بـين الأنصـار والمهاجرين، وساعده علي ذلك حسان حين أنشد تلك الأبيات، وربـط بين هذه الحادثة وبين مشكلاته الخاصة، التي نشأت عن اتهام عائشـة رضي الله عنها وصفوان بن المعطل، ولـذلك غضـب المهـاجرون وغضب رسول الله ﷺ مما قاله حسان، وقال له: "يا حسان نفست علي إسلام قومي"[٢] فغدا صفوان بن المعطل علي حسان فضربه بالسـيف وكاد يقضي عليه، وقال لحسان:

تَلَقَّ ذُبَابَ السَّيفِ عَنّي فَـإِنَّنِي .:. غُلَامٌ إِذَا هُوجِيتُ لَسْتُ بِشَـاعِرِ

فوثب قوم حسان علي صفوان فحبسوه، ثم جاء سعد بـن عبـادة فخلي سبيله، وكساه غضب من قومه قائلا: أتأخذون بأيديكم، ورسـول الله بين ظهرانيكم؟!

وقال حسان لأصحابه: احملوني إلـي رسـول الله ﷺ أترضـاه فأعرض عنه فردوه، ثم سألهم فحملوه إليـه الثانيـة فـأعرض عنـه

(١) **العارض:** السحاب المعترض في الأفق ، **والبرد:** بفتح الباء وكسر الراء: أي سحاب فيه قر وبرد . وانظر الأبيات في الأغاني ٤/ ١٥٧، وديوان حسـان صـ٦٢، مع اختلاف يسير في بعض الأبيات .

(٢) الأغاني ٤/ ١٦٠ .

فانصرفوا به، ثم قال لهم: عودوا بي إلي رسول الله فقالوا له: قد جئنا بك مرتين كل ذلك يعرض فلا نثقل عليه بك، فقال احملوني إليه هذه المرة وحدها ففعلوا، فقال يا رسول الله بأبي أنت وأمي : احفظ قولي:

هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ .:. وَعِنْدَ اللهِ فِي ذَاكَ الجَزَاءُ

فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي .:. لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ

فرضي عنه رسول الله ﷺ ووهب له سيرين أخت مارية القبطية أم ولد رسول الله ﷺ إبراهيم، فولدت لحسان ابنه عبدالرحمن[١] وهذان البيتان من قصيدة هجا بها حسان بن ثابت أبا سفيان بن حرب الذي كان يهجو رسول الله ويمعن في عداوته له، وهذان البيتان من قصيدة طويلة قالها يوم فتح مكة سنة ٨هـ يذكر ذلك اليوم الخالد ويتوعد قريشا بنصرة قومه لرسول الله علي مشركيهم، ويمدح الرسول ويهجو أبا سفيان بن الحارث والأبيات التي في هجاء أبي سفيان هي:

أَلاَ أَبْلِغْ أَبَا سُفيانَ عَنِّي .:. مُغَلْغَلَةً مِنْ بَرْحِ الخَفَاءِ

بِأَنَّ سُيُوفَنَا تَركَتْكَ عَبْدًا .:. وَعَبْدُ الدَّارِ سَادَتُهَا الإِمَاءُ

هَجَوْتَ مُحَمَّدًا وَأَجَبْتُ عَنْهُ .:. وَعِنْدَ اللهِ فِي ذَاكَ الجَزَاءُ

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ؟ .:. فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِ كُمَا الفِدَاءُ

هَجَوْتَ مُبَارَكًا بَرًّا حَنِيفًا .:. أَمِينَ اللهِ شِيمَتُهُ الوَفَاءُ

فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللهِ مِنْكُمْ .:. وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ؟!

---

(١) انظر الأغاني ٤/ ١٦٠ وما بعدها .

فَإِنَّ أَبِـي وَوَالِـدَهُ وَعِرْضِـي .:. لِعِرْضِ مُحَمَّـدٍ مِـنْكُمْ وِقَـاءُ[١]

ويحاول حسان بن ثابت أن ينفي عنه تهمة بالخوض في حادثـة الإفك ويعلن براءته منها فيقول:

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُـزَنُّ بِرِيبَـةٍ .:. وَتُصْبِحُ غَرْثَى مِنْ لُحُومِ الغَوَافِلِ[٢]
حَلِيلَةُ خَيْرِ النَّاسِ دِيناً وَمَنْصِبًا .:. نَبِيِّ الهُدَى وَالمَكْرُمَاتِ الفَوَاضِلِ
عَقِيلَةُ حَيٍّ مِنْ لُؤَيِّ بنِ غَالِـبٍ .:. كِرَامِ المَسَاعِي، مَجْدُهَا غَيْرُ زَائِلِ
مُهَذَّبَةٌ قَـدْ طَيَّـبَ اللهُ خِيمَهَـا .:. وَطَهَّرَهَا مِنْ كُلِّ سُـوءٍ وَبَاطِـلِ
فَإِنْ كُنْتَ قَدْ قُلْتَ الَّذِي قَدْ زَعَمْتُمُو .:. فَلَا رَفَعَتْ سَوْطِي إِلَـيَّ أَنَـامِلِي
وَإِنَّ الَّذِي قَدْ قِيلَ لَيْسَ بِلَائِـطٍ .:. بِهَا الدَّهْرَ بَلْ قَوْلُ امْرِئٍ بِيَ مَاحِلِ
فَكَيْفَ وَوُدِّي مَا حَيِيتُ وَنُصْرَتِي .:. لِآلِ بَنِـيِّ اللهِ زَيْـنِ المَحَافِـلِ
لَهُ رُتَبٌ عَالٍ عَلَى النَّاسِ كُلِّهِم .:. تَقَاصَرُ عَنْهُ سَـوْرَةُ المُتَطَـاوِلِ
رَأَيْتُكِ، وَلْيَغْفِرْ لَـكَ اللهُ حُـرَّةً .:. مِنَ المُحْصَنَاتِ غَيْرِ ذَاتِ غَوَائِلِ

(١) **مغلغلة**: رسالة، عبدالدار: بطن قريش، البر: الذي يبغـي الخيـر لقومـه، وحنيفا: لم يعبد الأوثان في الجاهلية، وانظر الأبيات في ديوان حسان بن ثابت : لعبدالرحمن البرقوقي وديوان حسان بن ثابت الأنصاري دار صادر بيروت صـ٩ ـ القاهرة ـ مكتبة الخانجي ١٩٢٩م.

(٢) **حصان** بفتح الحاء: عفيفة، **ورزان** : ذات وقار، **تزن بريبة**: لا يتطرق الشك إلي سلوكها ، **وغرثي**: جائعة، يريد أنها لا تغتاب أحـدا، **العقيلـة**: السـيدة الكريمة، **الخيم**: الأصل، **لائط**: لازق، **الماحل**: من يكيد للآخـرين بالسـعاية والافتراء عليه، **الرتب**: ما أشرف من الأرض، استعارة للمجـد والشـرف، **سورة**: بسكون الواو وثورة. وانظر الأبيات في ديوان حسان بن ثابـت دار صادر بيروت صـ١٨٨ .

يقول الدكتور محمد عبدالعزيز الكفراوي: "وهذا التناقض الواضح في تصرفات حسان، حيث يتصدي للدفاع عن الدعوة حينا، ثم يعود فيسئ إليها حينا آخر، ليس سوي صدي لوضعه القلق المضطرب في المجتمع الإسلامي الجديد، فهو رجل أعد نفسه أو أعدته الظروف ليعيش في جو الجاهلية، بما فيه من لهو وصخب وإنشاد للشعر، وقد ذاق حلاوة تلك الحياة في جوار الغساسنة بالشام، ولكن ما دامت الحياة تستقيم له، حتي تغيرت وفتح عينيه فرأي حياة جديدة بعيدة عن تلك التي أحبها وأعد نفسه لها كل البعد، بل رأي حكام تلك الدولة الجديدة قوما متقشفين لا يغدقون علي الشعراء رغم استغلالهم لملكاتهم في تأييد دعوتهم، والدعاية لمذهبهم، ومع كل هذا لا يستطيع أن يخرج عليهم فيرمي بالنفاق .."[1] ولكننا نقول كما قال رسول الله ﷺ : "كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون"[2] ولا يسلم الإنسان من أن يقع في بعض المحظورات، كما حدث من حسان في حديث الإفك، لكنه ــ كما أوضحنا سابقا، سارع إلي الاعتذار وإعلان براءته، وتاب عما يمكن أن يكون قد وقع منه ، ومن تاب الله ، عليه فالله تعالي يقول: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[3] .

ومما لا شك فيه أن هذا الرجل ــ كما يقول الدكتور نفسه في كتابه نفسه ــ : ".. يستوجب محبة الناس وتقديرهم لدفاعه عن الدعوة

(١) تاريخ الشعر العربي للدكتور محمد عبدالعزيز الكفراوي ١/ ٢٧ .
(٢) أخرجه الترمذي وابن ماجة.
(٣) سورة آل عمران آية ٨٩ .

وصاحبها، والذي حظي برضا الرسول ﷺ حتي سأل الله أن يؤيده بروح القدس"(١) كما يضيف الدكتور الكفراوي في نهاية دراسته لحسان: "بالرغم من المآخذ السابقة، كان الرسول به سعيدا، وعليه حريصا، لأنه أحد المعاول الهدامة، التي نقضت صرح الشرك من قواعده.." (٢) ونضيف إلي ذلك: أن حسان بن ثابت أمضي نصف عمره المديد في مجتمع جاهلي، وعاش تلك الحياة التي تختلف تماما عن الحياة الجديدة التي جاء بها الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، من حيث المبادئ والقيم والعادات والتقاليد وغيرها، مما يمكن معه أن نتجاوز عن بعض الهنات التي وقع فيها حسان، ويبقي أنه أخلص للرسول ﷺ وجند نفسه للدفاع عن رسول الله ﷺ وقدمه الرسول علي صاحبيه: كعب بن مالك وعبدالله بن رواحه ،ليكون شاعر الرسول وشاعر الدعوة المحمدية، فعن مجالد عن الشعبي قال: لما كان عام الأحزاب وردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيرا، قال النبي ﷺ : "من يحمي أعراض المسلمين؟" فقال كعب: أنا يا رسول الله، وقال عبدالله بن رواحة : أنا يا رسول الله، وقال حسان: أنا يا رسول لله فقال: "نعم اهجهم أنت، فإنه سيعينك عليهم روح القدس"(٣) ولما سبه قدم في مجلس عبدالله بن عباس دافع عنه، فعن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير قال: "كنا عند ابن عباس فجاء حسان، فقالوا: جاء اللعين، فقال ابن

(١) تاريخ الشعر العربي صـ٢٥ .
(٢) السابق صـ٢٩ .
(٣) انظر الأغاني ٤/ ١٤٥ .

عباس: ما هو بلعين، لقد نصر رسول الله ﷺ بلسانه ويده"[١] وعائشة رضي الله عنها تدافع عنه وتغضب ممن سبته: فعن عبدالعزيز بن عمران عن سفيان بن عيينة وسلم بن خالد عن يوسف بن ماهل عن أمه قالت: كنت أطوف مع عائشة بالبيت، فذكرت حسان فسببته، فقالت عائشة: بئس ما فعلت، أتسبينه وهو الذي يقول:

فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي ∴ لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ

فقلت أليس ممن لعن الله في الدنيا والآخرة بما قال فيك؟ قالت: لم يقل شيئا، ولكنه الذي يقول:

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيبَةٍ ∴ وَتُصْبِحُ غَرْثَي مِنْ لُحُومِ الغَوَافِلِ

فَإِنْ كَانَ مَا قَدْ جَاءَ عَنِّيَ قُلْتُهُ ∴ فَلَا رَفَعَتْ سَوْطِي إِلَيَّ أَنَامِلِي[٢]

ويتفق الدكتور شوقي ضيف معنا فيما ذهبنا إليه حيث يقول عن حسان بن ثابت: "والذي لا شك فيه أنه كان يحظي من الرسول ﷺ بمنزلة رفيعة ، حتي ليروي أنه كان يرفع أزواجه إلي أطمه[٣] حين يخرج لحرب أعدائه، وكان حين يعود يقسم له في الغنائم، وقد أهداه بستانا، كما أهداه سيرين ...... وكان الخلفاء الراشدون يجلونه ويفرضون له في العطاء ... ويضيف: وبحق سمي حسان شاعر

---

(١) السابق والصفحة ٠

(٢) الأغاني ٤/ ١٦٣ وما بعدها ٠

(٣) **أطم**: هو بناء عال كالحصن لحسان بن ثابت يسم فارعا، وكان من أحصن آطام المدينة. انظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١/ ١٥٢ دار المعارف بمصر الطبعة الثالثة٠

الإسلام ورسوله الكريم، فقد عاش يناضل عنه أعـداءه مـن قـريش واليهود ومشركي العرب، راميا لهم جميعا بسهام مصمية"[١].

٢ – وعلي الرغم من أن حسان بن ثابت قد أبلي البلاء الحسـن في الدفاع عن النبي وتعظيم أمر الإسلام والمسلمين، إذ لم يترك مقاما إلا قال فيه، فمن هجاء لقريش وأشرافها، إلي وصف لفوز المسـلمين في الغزوات، إلي مدح للنبي وصحابته، ولم تفتر همته في القول بعـد موت النبي، فقد استمر يرثيه ويمدح خلفاءه ويشيد بأعمالهم الجليلـة ـ علي الرغم ـ من ذلك كله فإنه عرف بالجبن وعدم الاشـتراك فـي غزوات الرسول ﷺ فلم يشهد زحفا ولا غزوة، وكان ـ كمـا يـذكر الرواة ـ يقيم مع الأطفال والنساء في الحصون، ومن ذلك ما حدثنا به عبدالله بن الزبير عن أبيه قال: كانت صفية بنت عبدالمطلب في فارع ـ حصن حسان بن ثابت ـ يعني يوم الخندق، قالت: وكان حسان معنا فيه والنساء والصبيان، قالت: فمر بنا رجل من يهود، فجعـل يطيـف بالحصن، وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ ليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا، ورسول الله والمسـلمون فـي نحـور عدوهم، لا يستطيعون أن ينصرفوا إلينا عنهم، إذ أتانا آت، قالت فقلت يا حسان: إن هذا اليهودي كما تري يطيف بالحصن، وإنـي والله مـا آمنه أن يدل علي عوراتنا من وراءه من يهود، وقد شغل عنا رسـول الله وأصحابه، فانزل إليه فاقتله، فقال: يغفر الله لك يابنة عبـدالمطلب، لقد عرفتَ ما أنا بصاحب هذا، قالت: فلما قال ذلك ولم أر عنده شـيئا

(١) العصر الإسلامي للدكتور شوقي ضيف صـ٧٨، ٧٩ .

احتجزت ــ أي شدت رداءها علي وسطها ــ ثم أخذت عمودا ونزلت إليه من الحصن، فضربته بالعمود حتي قتلته، فلما فرغت منه رجعت إلي الحصن، فقلت يا حسان: انزل إليه فاسلبه، فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل، قال: مالي بسلبه من حاجة يا بنت عبدالمطلب"(١) وقال الزبير: وحدثني علي بن صالح عن جدي أنه سمع حسان بن ثابت أنشد رسول الله ﷺ :

لَقَدْ غَدَوْت أَيَامَ القَوْمِ مُنْتَطِقَا ∴ بِصَارِمٍ مِثْلِ لَوْنِ المِلْحِ قَطَّاع
يَحْفِزُ عَنِّيَ نَجَاد السَّيْفِ سَابِغَة ∴ فَضْفَاضَة مِثْلَ لَوْنِ النَّهْي بالقَاع(٢)

قال: فضحك رسول الله ﷺ ، فظن حسان أنه ضحك من صفته نفسه مع جبنه"(٣) .

يقول أحد الباحثين: ونري أن تهمة الجبن واقعة علي حسان، لأنه أكثر من الفخر بشجاعته، ولم تعرف له مواقع شهدها، لا في جاهلية ولا إسلام، فدل ذلك علي أنه يستر بالقول عارا لاحقا به، علي أن شهود الغزوات مع النبي ﷺ كان شرفا كبيرا للصحابة، فكانوا يحرصون علي شهودها ويتفاضلون بمقدار ما حضروا منها، فقد حكوا

---

(١) الأغاني ٤/ ١٦٥ .

(٢) الأغاني ٤/ ١٦٦، ومعني الكلمات: **سابغة**: يقال درع سابغة إذا كانت طويلة تامة، **فضفاضة**: واسعة ، **والنهي**: بتشديد النون المفتوحة وسكون الهاء: الغدير .

(٣) كتاب تاريخ الأدب العربي في صدر الإسلام والعصر الأموي للدكتور/ السباعي السباعي بيومي ــ الطبعة الثانية مطبعة العلوم ١٩٣٥م صـ١٢١، ١٢٢ .

عن عمر أنه حضر مع النبي جميع غزواته، وأن عثمان لم يتخلف إلا عن بدر، وأن عليا شهدها جميعا إلا تبوك، فلو أن حسان بن ثابت ليس جبانا رعديدا، لشهد ولو واحدة منها"[١] كما روي عن ابنه عبدالرحمن أن أباه حسان بن ثابت كان يخضب شاربه ومقدم لحيتـه بالحنـاء ولا يخضب سائر لحيته، فقلت له: يا أبت لم تفعل هذا؟ قال لأكون كـأني أسد والغ في دم" كل هذه الأخبار وغيرها عن حسان بن ثابت تؤكد أنه لم يكن يقوي علي مواجهة الأعداء أو حمل السلاح، لخور فـي نفسـه وحرص منه علي السلامة وعدم المغامرة، وبخاصة أنه عاش منذ شب عن الطوق والهدايا والمنح تنهال عليه ممن يمـدحهم مـن الغساسـنة والنعمان بن المنذر ورسولنا محمد ﷺ حتي إن الرسول عليه الصـلاة والسلام كان يجعل له نصيبه من الغنائم[٢]، مع أنه لم يشـترك فيهـا ونضيف هنا ما أخبرنا به الزبير بن العوام قال: "وحدثني عمـي عـن الواقدي قال: كان أكحل حسان بن ثابت ــ عرق في وسط الـذراع ــ قد قطع فلم يكن يضرب بيده، وإن كنا لا نعتبر هذا مانعا من الاشتراك في المعارك، فليس كل مشترك فيها لابد وأن يشـترك فـي المعركـة فمنهم من يقوم بالحراسة، ومنهم من يقوم باستطلاع الأخبار، إلي غير ذلك مما يؤدي به الإنسان واجبه نحو دينه ورفعة شأنه، حسب قدرته، لكن حسان بن ثابت فيما تتظاهر عليه الأخبار، اكتفي بلسانه الذي كان

---

(١) الأغاني ٤/ ١٣٦ .

(٢) كما ذكر الدكتور شوقي ضيف فيما استشهدنا به سابقا .

أقوي من السنان، وخاض به معارك ضارية ضد أعداء الإسلام حيث يقول:

لِسَانِي صَارِمٌ لاَ عَيْبَ فِيهِ .:. وَبَحْرِي مَا تُكَدِّرُهُ الدِّلاَءُ

فاكتفي بإسهاماته في الذود عن الإسلام والدفاع عن الرسول ﷺ ومناهضة أعدائه وهجائهم بما ينال منهم ويقع عليهم كالسهام المصمية حتي شفي واستشفي، كما قال رسول الله ﷺ فيما روي عنه أنه قال: "أمرت عبدالله بن رواحة فقال وأحسن، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن، وأمرت حسان بن ثابت فشفي واستشفي"[١] ولذلك قال له رسول الله ﷺ : "إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما كافحت عن الله عزوجل وعن رسوله"[٢] وهذا ميدان لا يقل أهمية وخطورة عن ميدان حمل السلاح، مما يشفع لحسان ويدفع عنه ما ارتآه لنفسه من تخاذل وابتعاد عن مواقع القتال.

ويكفيه فضلا وشرفا من وجهة نظره ما قيل عنه إنه كان شاعر الأنصار في الجاهلية، وشاعر النبي ﷺ في النبوة، وشاعر اليمن كلها في الإسلام[٣] وأنه أشعر أهل المدر[٤]. وقد ولد حسان بن ثابت قبل مولد الرسول ﷺ بثماني سنوات وعمر طويلا، فعاش في الجاهلية ستين سنة وفي الإسلام مثلها، فتم له مائة عشرون سنة، قضي معظمها

(١) الأغاني ٤/ ١٤٣ .
(٢) الأغاني ٤/ ١٤٣ .
(٣) انظر الأغاني ٤/ ١٣٦ .
(٤) الأغاني ٤/ ١٣٥، والمدر بالتحريك: المدن والحضر.

موفور الصحة تام الحواس، ثم وهنت قواه في آخر أيامه، وكف بصره، ومات سنة ٥٤هـ في خلافة معاوية بن أبي سفيان فجزاه الله عن الإسلام خير الجزاء.

٣ ـ **شعره وأغراضه**: كان حسان بن ثابت في الجاهلية يدافع عن قومه الخزرج، ويفاخر بأمجادهم، حتي طارت شهرته في أنحاء الجزيرة العربية، كما اتصل بملوك الغساسنة ومدحهم، ونال عطاياهم، كما اتصل بملوك الحيرة حين رحل عنهم النابغة الذبياني، وحظي بجوائزهم، ونال كثيرا من عطاياهم، فكان أكثر شعره في الجاهلية الهجاء والذود عن قبيلته والدفاع عن حرماتها، حيث كان الصراع بين الأوس والخزرج محتدما، وكان قيس بن الخطيم يدافع عن الأوس، واستمرت المنافسة بين الشاعرين كل منهما يشهر بالآخر وبقبيلته، ويعلي من شأن قومه، ويفخر بهم، ويقوم هذا الفخر علي التغني بالشجاعة والكرم وشرف الأصل والنسب ، بعد مقدمة غزلية كما هو معهود في مقدمة القصيدة الجاهلية عند شعراء العصر الجاهلي.

وكان حسان قبل الإسلام يلهو ويشرب الخمر ويستمتع بالغناء ولذلك كان جانب من شعره الجاهلي في وصف مجالس اللهو والخمر والغناء والتغزل المختلط بالفخر والمدح، فلما جاء الإسلام انصرف عن التشبيب ووصف الخمر، واتجه بهجائه إلي أعداء رسول الله ﷺ ، وقصر مدحه علي النبي ﷺ وصابته، وبقي فخره بنسبه وبلاغته، وزاد عليه الفخر بالإسلام، وكان أجزل شعره وأقواه ما قاله في شبيبته

وكهولته في الجاهلية، مثل ما ناقض به قيس بن الخطيم في وقائع الأوس والخزرج ومدح به آل جفنة وآل النعمان بن المنذر، ولما أسلم كان قد مضي علي عمره ستون سنة، ولكنها مع ذلك لم تطفئ من شعلة خاطره، ووجد فيه رسول الله ﷺ بقية من النكاية لأعدائه أبقاها فيه انطباعه علي الهجاء منذ شب، فدعا له رسول الله ﷺ أن يؤيده في هذه البقية بروح القدس حيث كان الهجاء عند العرب من أقوي الأسباب في إدخال الغم والذل علي نفوسهم وإضعاف شوكتهم وتوهين أعدائهم ، فعكف حسان علي الدفاع عن الإسلام وعن رسول الله ﷺ واتجه إلي ما ينال من أعداء الإسلام، فلم يطعن في قريش ولا في نسبها، بل كان يعمد إلي الشخص منهم فيفصله عن النسب القرشي، ويجعله فيه غريبا يلجأ إليه دعيا أو متبني، أو لصيق بهم أو عبد ثم يذكر ما يستقبح من صفاته الخلقية والأخلاقية فيصفه باللؤم، وقطع الرحم، والجهل، وخفة الحلم، والبخل، والجبن، وبخاصة من أمعنوا في عداواتهم للرسول ﷺ ولاحقوه بالأذى، أمثال: أبي جهل، وأبي لهب، وأبي سفيان، وعبدالله بن الزبعري، وكعب بن الأشرف، وغيرهم.

ومن هجائه لأبي سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب هذه القطعة التي استله فيها من الشجرة الهاشمية ووجه إليه سهامه المصمية فيقول:

لَقَدْ عَلِمَ الأَقْوَامُ أَنَّ ابْنَ هَاشِمٍ ∴ هُوَ الغُصْنُ ذُو الأَفْنَانِ لا الوَاحِدُ الوَغْدُ
وَمَالَكَ فِيهِمْ مَحْتِدٌ يَعْرِفُونَهُ ∴ فَدُونَكَ فَالْصَقْ مِثْلَ مَا لَصِقَ القُرْدُ
وَإِنَّ سِنَامَ المَجْدِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ ∴ بَنُو بِنْتِ مَخْزُومٍ وَوَالِدُكَ العَبْدُ

وَمَا وَلَدَتْ أَبْنَاءُ زُهْرَةَ مِنْكُمُو .·. كَرِيماً وَلَمْ يَقْرُبْ عَجَائِزَكَ المَجْدُ
وَلَسْتَ كَعبَّاسٍ وَلاَ كَابْنِ أُمِّهِ .·. وَلَكِنْ هَجِينٌ لَيْسَ يُورَي لَهُ زَنْدُ
وَأَنْتَ زَنِيمٌ نِيطَ فِي آلِ هَاشِمٍ .·. كَمَا نِيطَ خَلْفَ الرَّاكِبِ القَدَحُ الفَرْدُ
وَإِنَّ امْرَأً كَانَتْ سُمَيَّةُ أُمَّهُ .·. وَسَمْرَاءُ مَغْلُوبٌ إِذَا بَلَغَ الجَهْدُ(١)

فقد استل أبا سفيان من الدوحة الهاشمية في براعة فائقة كما يستل الشعر من العجين وهي أبيات تعكس قدرة حسان بن ثابت علي أن يبتعد عما يكون فيه نيل من الرسول ﷺ وهذا مما علمه أبوبكر ﵁ الذي كان عالما بأنساب قريش، تمثل حذق حسان لنسب قريش، حتى قالت قريش، لقد قال ابن أبي قحافة بعدنا، أي أصبح شاعرا مثلهم .

وقال يهجو أبا لهب:

أَبَا لَهَبٍ! أَبْلِغْ بِأَنَّ مُحَمَّدًا .·. سَيَعْلُو بِمَا أَدَّي، وَإِنْ كُنْتَ رَاغِمَا
وَإِنْ كُنتَ قَدْ كَذَّبْتَهُ وَخَذَلْتَهُ .·. وَحِيدًا، وَطَاوَعْتَ الهَجِينَ الضَّرَاغِمَا
وَلَوْ كُنْتَ حُرًّا فِي أُرُومَةِ هَاشِمٍ .·. وَفِي سِرِّهَا مِنْهُمْ مَنَعْتَ المَظَالِمَا
وَلِكْن لِحَيَانَا أَبُوكَ وَرِثْتَهُ .·. وَمَأْوَي الخَنَا مِنْهُمْ، فَدعْ عَنْ هَاشِمَا
سَمَتْ هَاشِمٌ لِلْمَكْرُمَاتِ وَلِلعُلاَ .·. وَغُودِرْتَ فِي كَابٍ مِنَ اللُّؤْمِ جَاثِمَا(١)

---

(١) الأبيات في: ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ــ دار صادر بيروت صـ٨٩ ومعني الكلمات : **القرد**: بضم القاف وسكون الدال: دويبة تتعلق، بالبعير كالقحل، وقوله **فالصق**: يريد أنه ملصق بقريش لا منهم، **وعباس** ، **وابن أمه**: يريد عباسا وضرارا أخاه ابني عبدالمطلب، **سنام المجد**: أعلاه **زهرة**: حي من قريش، **الزنيم**: الدعي، **نيط**: علق، **سمية**: أم أبي سفيان ، **وسمراء**: أم أبيه الحارث بن عبدالمطلب، **وبنت مخزوم**: هي فاطمة بنت عمرو المخزومي وهي أم عبدالله وأبي طالب والزبير بن عبدالمطلب.

وقال يهجو أبا جهل:

سَمَّاهُ مَعشَرُه أبَا حَكَمٍ ∴ وَاللهُ سَمَّاهُ أبَا جَهْلِ

فَمَا يَجِئُ الدَّهْرَ مُعْتَمِرًا ∴ إلاَّ وَمِرْجَلُ جَهْلِهِ يَغْلِي

وَكَأنَّهُ مِمَّا يَجِيشُ بِهِ ∴ مُبْدِي الفُجُورِ وسَوْرَةَ الجَهْلِ

يُغْرِي بِهِ سَفَعٌ لعَامظَةٌ ∴ مِثلَ السباعِ شَرَعْنَ فِي الضَّحْل

أبقت رِياستُه لِمَعْشَرِه ∴ غَضَبَ الإلَهِ وَذِلَّةَ الأصْلِ

إنْ يَنْتَصِر يَدْهَي الجَبِين ، وَإن ∴ يَلبَثْ قَلِيلا يَودِ بالرَّجْلِ[٢]

وأما عن شعره في الإسلام فيذكر الباحثون والنقاد أنه لم يوجد لحسان بن ثابت في أصحاب رسول الله ﷺ ولا في أعدائه شاعر مثله، فقد نصب حسان نفسه للدفاع عن الدين الجديد، والرد على أعدائه، فنشبت بينه وبينهم معارك حامية، فكان الشعر سلاحه الذي يناضل به فيهجو أعداء رسول الله ﷺ ، ويمدح الرسول وأنصاره الذين أبلوا بلاء حسنا في الدفاع عن الدين ، ولم يكن المدح ولا الهجاء في هذا الاتجاه للتكسب أو طلب العطايا والمنح، ولكنه كان بوازع من حب خالص للإسلام ولرسوله ﷺ ، ولذلك **جاء مدحه** تعبيرا عن عاطفته الصادقة

---

(١) **الضراغم:** بضم الضاد: الغليظ الضخم، **لحيان:** أبوبطن ، **هاشم:** أبوعبدالمطلب، **الطأب:** سوء الحال، وانظر الأبيات في ديوان حسان بن هاشم الأنصاري ــ دار صادر بيروت صـ٢٤٧ .

(٢) الأبيات في ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ــ دار صادر بيروت صـ٢٠٣ ومعاني الكلمات: **يغري:** بضم الياء مبني للمجهول : يولع، **سفع:** سود: **لعامظة:** الواحد لغمط: الحريص الشهوان، **الضحل:** الماء القليل، ومعني البيت الأخير : إن انتصر كسب لوجهه ضعفا ولؤما، وإن غفل جاره سرق رحله .

حيث كان يؤمن بما يقول،ومن ذلك ما قاله تحت عنوان : "أغر عليه خاتم النبوة" .

أَغَرُّ عليهِ لِلنُّبُوَّةِ خاتَمٌ :. مِنَ اللهِ مَشْهُودٌ يَلُوحُ وَيَشْهَدُ

وَضَمَّ الإلهُ اسْمَ النَّبِيِّ إلى اسْمِهِ :. إذْ قَالَ فِي الخَمْسِ المُؤَذِّنُ أَشْهَدُ

وَشَقَّ لَهُ مِنَ اسْمِهِ لِيُجِلَّهُ :. فَذُو العَرْشِ مَحْمُودٌ، وَهذَا مُحَمَّدُ

نَبِيٌّ أَتانَا بَعْدَ يَأْسٍ وَفَتْرَةٍ :. مِنَ الرُّسْلِ،وَالأَوْثَانُ فِي الأَرْضِ تُعْبَدُ

فَأَمْسَى سِرَاجًا مُسْتَنِيرًا وَهَادِياً :. يَلُوحُ كَمَا لاَحَ الصَّقِيلُ المُهَنَّدُ

وَأَنْذَرَنَا نَارًا، وَبَشَّرَ جَنَّةً :. وَعَلَّمَنَا الإسْلاَمَ، فَاللهَ نَحْمَدُ

وَأَنْتَ إلهُ الخَلْقِ رَبِّي وَخَالِقِي :. بِذلِكَ مَا عُمِّرْتُ فِي النَّاسِ أَشْهَدُ

تَعَالَيْتَ رَبَّ النَّاسِ عَنْ قَوْلِ مَنْ دَعَا :. سِوَاكَ إلهاً، أَنْتَ أَعْلَى وَأَمْجَدُ

لَكَ الخَلْقُ وَالنَّعْمَاءُ وَالأَمْرُ كُلُّهُ :. فَإيَّاكَ نَسْتَهْدِي، وَإيَّاكَ نَعْبُدُ[١]

أغراض شعره:

لقد كان حسان بن ثابت شاعرا لا يشق له غبار، وشعره متعدد الأغراض، وقد اتفق الرواة والنقاد علي أنه أشعر أهل المدر في عصره، وأشعر اليمن قاطبة، وقد خلف ديوانا ضخما طبع طبعات مختلفة، وشرحه أكثر من باحث، ومن ذلك: ديوان حسان بن ثابت للأستاذ عبدالرحمن البرقوقي،مكتبة الخانجي بالقاهرة سنة ١٩٢٩م وديوان حسان بن ثابت الأنصاري ــ دار صادر بيروت ١٩٦١م

---

(١) الأغرّ: كريم الافعال واضحها. وانظر الأبيات في ديوان حسان بن ثابت دار صادر صـ٤٧ .

وديوان حسان بن ثابت طبع لاهور ١٢٩٥هـ، وديوان حسان بن ثابت مطبعة الإمام بمصر سنة ١٣٢١هـ وديوان حسان بن ثابت ـ بومباي ـ المطبعة الحميدية وغير ذلك، وقد شرح هذا الديوان شروحا متعددة ولعل أهمها وأقربها إلي الصحة والضبط شرح الأستاذ عبدالرحمن البرقوقي.وكانت أغراض شعر حسان متعددة وأهمها:

١ - **الهجاء** فقد قال حسان الهجاء في زمن الجاهلية في مناقضة قيس بن الخطيم، حيث كان قيس شاعر الأوس، وحسان شاعر الخزرج وكل منهما كان يدافع عن قومه ويهاجم خصومهم، ويذكر معايب ومثالب أعدائه بالحق أو بالباطل، ولما أشرق نور الإسلام اتجه حسان بهجائه إلي أعداء الدعوة المحمدية، فهجا زعماء الشرك وأنصاره بذكر ما قبح من صفاتهم، وما ينال من مكانتهم وشرفهم، وقد مر بك هجاؤه لأبي سفيان وأبي لهب وأبي جهل، وهي نماذج قليلة من هجاء حسان ابن ثابت لأعداء الرسول ودعوته الفارقة بين الحق والباطل، وله في ذلك جولات وصولات عديدة دافعت عن النبي ورسالته في إخلاص وحب صادقين لصاحب هذه الدعوة، ومن ذلك ما قاله يهجو قريشا ويعيرها بهزيمتها يوم بدر:

لَقَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ، يَوْمَ بَدْرٍ .:. غَدَاةَ الأَسْرِ وَالقَتْلِ الشَّدِيدِ
بِأَنَّا حِينَ تَشْتَجِرُ العَوَالِي .:. حُمَاةُ الرَّوْعِ، يَوْمَ أَبِي الوَلِيدِ
قَتَلْنَا ابْنَيْ رَبِيعَةَ يَوْمَ سَارُوا .:. إِلَيْنَا فِي مُضَاعَفَةِ الحَدِيدِ
وَفَرَّ بِهَا حَكِيمٌ ، يَوْمَ جَالَتْ .:. بَنُو النَّجَّارِ تحفـرا كَالأُسُودِ

وَدَلَّتْ عِنْدَ ذَاكَ جُمُوعُ نَهْرٍ .·. وَأَسْلَمَهَا الحُوَيْرِثُ مِنْ بَعِيدِ
لَقَدْ لاقَيْتُمُو خِزْيًا وَذُلاً .·. جهيزًا بَاقِيًا تَحْتَ الوَرِيدِ
وَكَانَ القَوْمُ قَدْ وَلَّوْا جَمِيعًا .·. وَلَمْ يَلْوُو عَلَى الحَسَبِ التَّلِيدِ[١]

وقد مرت بنا نماذج من هذا الهجاء ٠

٢ – **الفخر:** وهذا باب واسع في شعر حسان بن ثابت، فكان منه في الجاهلية ما دار بينه وبين قيس بن الخطيم في ملاحاتهما وخصومتها، كل منهما يدافع عن قومه، حيث يذكر حسان مآثر قومه الخزرج أو رهطه بني النجار، ومن ذلك يقول مفتخرا بنفسه وبقوله من قصيدة طويلة:

نَسَبِي أَصِيلٌ فِي الكِرَامِ وَمِذْوَدِي .·. تَكْوِي مَوَاسِمُهُ جُنُوبَ المُصْطَلِي
وَلَقَدْ تُقَلِّدُنَا العَشِيرَةُ أَمْرَهَا .·. وَنَسُودُ يَوْمَ النَّائِبَاتِ وَنَعْتَلِي
وَيَسُودُ سَيِّدُنَا جَحَاجِحَ سَادَةٍ .·. وَيُصِيبُ قَائِلُنَا سَوَاءَ المَفْصِلِ
وَنُحَاوِلُ الأَمْرَ المُهِمَّ خِطَابُهُ .·. فِيهِمْ، وَنُفَصِّلُ كُلَّ أَمْرٍ مُعْضِلِ
وَتَزُورُ أَبْوَابَ المُلُوكِ رِكَابُنَا .·. وَمَتَى نُحَكَّمُ فِي البَرِيَّةِ نَعْدِلِ[٢]

---

(١) انظر الأبيات في ديوان حسان بن ثابت الأنصاري صـ٧٧، ومعاني الكلمات هي: **تشتجر**: تختلط وتشتبك، العوالي: الرماح، الروع: الفزع، أبوالوليد: هو عتبة بن ربيعة، حكيم: هو حكيم بن حزام بن عبدالعزي انهزم يوم بدر، الحويرث: هو الحارث بن هشام بن المغيرة انهزم يوم بدر، ثم أسلم بعد ذلك، جهيزا: مسرعا، ومعني البيت أنهم تقلدوا الخزي والذل في أعناقهم، لم يلو: لم يقف ولم يراع، الحب التليد: الشرف القديم ٠

(٢) الأبيات من ديوان حسان بن ثابت الأنصاري – دار صادر صـ١٨١، ومعاني الكلمات هي: **مذود** : لساني الذي أذود به وأدافع ، مواسمه: هجاؤه الذي يسم به ، **المصطلي**: أي من اصطلي بناري، **تقلدنا العشيرة أمرها**:

أما فخره في الإسلام فكان منه ما يتخلله هجاءه لقريش أو غيرها من القبائل معتزا بقومه الأنصار ومفتخرا بنفسه وفصاحة لسانه وسيرورة شعره، كما يفتخر بنصر قومه لرسول الله ﷺ كقوله في يوم أحد :

وَقُلْ إِنْ يَكُنْ يَوْمٌ بِأُحـدٍ بَعْـدَهُ .:. سَفِيهٌ، فَإِنَّ الحَقَّ سَوْفَ يُشَـيَّعُ
وَقَدْ ضَارَبَتْ فِيهِ بَنُو الأَوْسِ كُلُّهُمْ .:. وَكَانَ لَهُمْ ذِكْـرٌ، هُنَـاكَ رَفِيـعُ
وَحَامَى بَنُو النَّجَّارِ فِيهِ، وَضَـارَبُوا .:. وَمَا كَانَ مِنْهُمْ، فِي اللِّقَاءِ جَزُوعُ
أَمَـامَ رَسُـلِ اللهِ لاَ يَخْذُلُونَـهُ .:. لَهُمْ نَاصِرٌ مِنْ رَبِّهِـمْ وَشَـفِيعُ
وَفَوْا إِذْ كَفَرْتُمْ يَا سَخِينُ بِرَبِّكُمْ .:. وَلاَ يَسْتَوِي عَبْدٌ عَصَى وَمُطِيـعُ
بِأَيْمَانِهِمْ بِيضٌ إِذَا حَمِيَ الْوَغَى .:. فَلاَبُدَّ أَنْ يَـرْدِي بِهِـنَّ صَـرِيعُ
كَمَا غَادَرَتْ فِي النَّقْعِ عُثْمَانَ ثَاوِياً .:. وَسَعْدًا صَرِيعًا، وَالوَشِيجُ شَرُوعُ
وَقَدْ غَادَرَتْ تَحْتَ العَجَاجَةِ مُسْنَدًا .:. أُبَيًّا، وَقَدْ بَـلَّ القَمِـيصَ بَجِيـعُ
بِكَفِّ رَسُولِ اللهِ حَتَّـى تَلَفَّفَـتْ .:. عَلَى القَوْمِ مِمَّا قَدْ يُثِرْنَ نَقُـوعُ
أُولَئِكَ قَوْمِي سَادَةٌ مِنْ فُرُوعِهِمْ .:. وَمِنْ كُلِّ قَـوْمٍ سَـادَةٌ وَفُـرُوعُ
بِهِـنَّ يُعِـزُّ اللهُ حِـينَ يُعِزُّنَـا .:. وَإِنْ كَانَ أَمْرٌ يَا سَـخِينُ فَظِيـعُ
فَإِنْ تَذْكُرُوا قَتْلِي وَحَمْزَةَ فِيهِمُو .:. قَتِيـلٌ ثَـوَى للهِ وَهْـوَ مُطِيـعُ
فَإِنَّ جِنَانَ الخُلْدِ مَنْزِلُـهُ بِهَـا .:. وَأَمْرُ الَّذِي يَقْضِي الأُمُورَ سَرِيعُ
وَقَتْلاَكُمُو فِي النَّارِ أَفْضَلُ رِزْقِهِم .:. حَمِيمٌ مَعًا فِي جَوْفِهَا وَضَرِيعُ(١)

تطيعنا، **الجحاجح**: السادة ، **سواء المفصل**: وسط المفصل أي أنهم يفصلون الخطة العظيمة، **المعضل**: الذي يصعب حله ٠

(١) الأبيات في ديوان حسان بن ثابت الأنصاري صـ١٥١، ومعاني الكلمات كالتالي: بعده: أراد يعتد به سفيه من قريش، يا سخين: مرخم يا سخينة: طعام يتخذ من دقيق وتمر، وكانت قريش تعير بأكلها إياه، عثمان وسعد: ابنا طلحة

٣ـ **المدح:** وهو يمثل معظم شعره في الجاهلية حيث كان ينال عليه العطايا والجوائز من ملوك العرب وغيرهم، أما مدحه في الإسلام فكان يأتي به متصلا بهجاء أعداء النبي ﷺ ، حيث يصف الرسول وأصحابه، ويشيد بعظمة مبادئ الدين الحنيف معلنا عن قيمه وفضائله، ومن ذلك ما قاله حسان في قصيدة يمدح المصطفي ﷺ وذلك قبل فتح مكة ويهجو أبا سفيان، وكان قد هجا النبي قبل إسلامه :

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إنْ لَمْ تَرَوْهَا .·. تُثِيرُ النَّقْعَ، مَوْعِدُهَا كَدَاءُ
يُبَارِينَ الأَعِنَّةَ مُصْعِدَاتٍ .·. عَلَى أكْتافِهَا الأَسَلُ الظِّمَاءُ
تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطِّرَاتٍ .·. تُلَطِّمُهُنَّ بِالخُمُرِ النِّسَاءُ
فَإِمَّا تُعْرِضُوا عَنَّا اعْتَمَرْنَا .·. وَكَانَ الفَتْحُ وَانْكَشَفَ الغِطَاءُ
وَإِلاَّ فَاصْبِرُوا لِجِلَادِ يَوْمٍ .·. يُعِزُّ اللهُ فِيهِ مَنْ يَشَاءُ
وَجِبْرِيلٌ أَمِينُ اللهِ فِينَا .·. وَرُوحُ القُدُسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ
وَقَالَ اللهُ: قَدْ أَرْسَلْتُ عَبْدًا .·. يَقُولُ الحَقَّ، إنْ نَفَعَ البَلَاءُ
شَهِدْتُ بِهِ فَقُومُوا صَدِّقُوهُ .·. فَقُلْتُمْ: لاَ نَقُومُ وَلَا نَشَاءُ
وَقَالَ اللهُ قَدْ يَسَّرْتُ جُنْدًا .·. هُمُ الأَنْصَارُ ، عُرْضَتُهَا اللِّقَاءُ
لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍّ .·. سِبَابٌ، أَوْ قِتَالٌ، أَوْ هِجَاءُ
فَنُحْكِمُ بِالقَوَافِي مَنْ هَجَانَا .·. وَنَضْرِبُ حِينَ تَخْتَلِطُ الدِّمَاءُ

بن أبي طلحة ، الوشيج: الرماح، شروع: مسددة للطعن، أبي: هو أبي بن خلف الجمحي، النجيع: الدم، وقوله: يكف رسول الله. يريد أن النبي قتله بحربته، النقوع: الواحد نقع وهو غبار الحرب، الحميم: الماء الحار، الضريع: طعام أهل النار، وهي من الكلمات التي لم يعرفها العرب قبل الإسلام ٠

أَلَا أَبْلِـغْ أَبَـا سُـفْيَانَ عَنـِّي .:. فَأَنْـتَ مُجَـوَّفٌ نَخْـبٌ هَـوَاءُ
بِـأَنَّ سُـيُوفَنَا تَرَكَتْـكَ عَبْـدًا .:. وَعَبْد الدَّارِ سَـادَتُهَا الإِمَـاءُ[(١)]

كما مدح كثيرا من أصحاب رسـول الله ﷺ وخلفائـه وفرسـان المسلمين بمقطعات بليغة، ومن ذلك ما قاله **يمدح مطعم بن عدي بـن** نوفل بن عبد مناف بن قصي القرشي:

أَعَيْنُ، أَلَا أَبْكِي سَيِّدَ النَّاسِ وَاسْفَحِي .:. بِدَمْعٍ فَإِنْ أَنْزَفْتِهِ فَاسْـكُبِي الـدَّمَا
وَبَكِّي عَظِيمَ المَشْعَرَيْنِ وَرَبَّهَـا .:. عَلَى النَّاسِ، مَعْرُوفٌ لَهُ مَا تَكَلَّمَا
فَلَوْ كَانَ مَجْدٌ يُخْلِدُ اليَوْمَ وَاحِدًا .:. مِنَ النَّاسِ، أَبْقَى مَجْدُهُ اليَوْمَ مُطْعِمَا
أَجَرْتَ رَسُولَ اللهِ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا .:. عِبَادَكَ مَا لَبَّـى مُلَـبٍّ وَأَحْرَمَـا
فَلَوْ سُئِلَتْ عَنْهُ مَعَـدٌّ بِأَسْـرِهَا .:. وَقَحْطَانُ، أَوْ بَاقِي بَقِيَّةِ جُرْهُمَـا
لَقَالُوا: هُوَ المُوفِي بِخُفْرَةِ جَارِهِ .:. وَذِمَّتِـهِ يَومًـا، إِذَا مَـا تَـذَمَّمَا
فَمَا تَطْلُعُ الشَّمْسُ المُنِيرَةُ فَوْقَهُمْ .:. عَلَى مِثْلِهِ، مِنْهُمْ أَعَـزَّ وَأَكْرَمَـا
إِبَاءً، إِذَا يَأْبَى، وَأَكْـرَمَ شِـيمَةً .:. وَأَنْوَمَ عَنْ جَارٍ إِذَا اللَّيْلُ أَظْلَمَا[(٢)]

(١) الأبيات من ديوان حسان بن ثابت الأنصاري صـ٨، ٩، ومعاني الكلمـات كالتالي: **النقع**: الغبار، **كداء**: الثنية العليا بمكة وهو طريق بمكة ممـا يلـي المقابر معروف بالمعلي، **يبارين الأسنة**: يسابقن الرماح، أي أن الخيل سريعة كأنها تسابق الأسنة، **مصعدات**: داخلات مكة، **الأسل**: الرمـاح، **متمطـرات**: مسرعات يسبق بعضها بعضا، **الخمر**: جمع خمار، وهو ما تغطي به المـرأة وجهها والمعني أن النساء يمسحن وجوه الخيل بالخمر لتجفف عرقها، انكشف **الغطاء**، تحقق وعد الله بفتح مكة .

(٢) الأبيات في ديوان حسان بن ثابت الأنصاري صـ٢٣٩، ومعاني الكلمـات هي: **تذمم**: طلب الذمة أي العهد، **أنوم عن جار**: أراد لا يؤذي جاره.

٤- **الرثاء:** قال حسان في الرثاء قصائد ومقطوعات تشجي القلب وتستذرف الدمع،حيث كان يصدر فيه عن عاطفة مفعمة بالأسي.وفـــي مقدمة هذا الرثاء،قصائد طويلة رثى بها رسول الله ﷺ،وبعضها متوسط أو قصير رثى بها الخلفاء الراشدين وكبار الصحابة-رضوان الله تعالى عليهم-ومن ذلك قوله يرثي رسول الله ﷺ :

مَا بَالُ عَيْنِكَ لَا تَنَامُ كَأَنَّمَا .·. كُحِلَتْ مَآقِيهَا بِكُحْلِ الْأَرْمَدِ

جَزَعًا عَلَى الْمَهْدِيِّ،أَصْبَحَ ثَاوِياً .·. يَا خَيْرَ مَنْ وَطِئَ الْحَصَى لَا تَبْعُدِ

جَنْبِي يَقِيكَ التُّرْبَ.لَهْفِي.لَيْتَنِي .·. غُيِّبْتُ قَبْلَكَ فِي بَقِيعِ الْغَرْقَدِ

بِأَبِي وَأُمِّي مَنْ شَهِدْتُ وَفَاتَهُ .·. فِي يَوْمِ الاثْنَيْنِ النَّبِيِّ الْمُهْتَدِي

فَظَلَلْتُ بَعْدَ وَفَاتِهِ مُتَبَلِّدًا .·. يَا لَهْفَ نَفْسِي لَيْتَنِي لَمْ أُولَدِ

أَأُقِيمُ بَعْدَكَ بِالْمَدِينَةِ بَيْنَهُمْ؟ .·. يَا لَيْتَنِي صُبِّحْتُ سُمَّ الْأَسْوَدِ

أَوْحَلَّ أَمْرُ اللهِ فِينَا عَاجِلاً .·. فِي رَوْحَةٍ مِنْ يَوْمِنَا أَوْ فِي غَدِ

فَتَقُومُ سَاعَتُنَا فَنلص طَيِّبًا .·. مَحْضًا ضَرَائِبُهُ كَرِيمُ الْمَحْتِدِ

يَا بِكْرَ آمِنَةَ الْمُبَارَكُ ذِكْرُهُ .·. وَلَدَتْكَ مُحْصَنَةٌ بِسَعْدِ الْأَسْعَدِ

نُورًا أَضَاءَ عَلَى الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا .·. مَنْ يَهْدِ لِلنُّورِ الْمُبَارَكِ يَهْتَدِ

يَا رَبِّ، فَاجْمَعْنَا مَعًا وَنَبِيَّنَا .·. فِي جَنَّةٍ تَثْنِي عُيُونَ الْحُسَّدِ

فِي جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ وَاكْتُبْهَا لَنَا .·. يَاذَا الْجَلَالِ وَذَا الْعُلَا وَالسُّؤْدَدِ

وَاللهِ أَسْمَعُ مَا بَقِيتُ بِهَالِكٍ .·. إِلَّا بَكَيْتُ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدِ[1]

---

(١) الأبيات في ديوان حسان بن ثابت الأنصاري صـ٥٧، ومعاني الكلمات هي: **متبلدا:** متحيرا، **صبحت:** سقيت صباحا، **ضرائب:** الواحدة ضريبة: الطبيعة والسجية ، **المحتد** : الأصل ، **تثني:** ترد وتدفع، **الإثمد:** الكحل.

وقال أيضا يرثي رسول الله ﷺ :

لَقَدْ غَيبُّوا حِلْماً وَعِلْماً وَرَحْمَـةً .·. عَشِيَّةَ عَلَّـوْهُ الثَّـرَى، لاَ يُوسَّـدُ
وَرَاحُوا بِحُزْنٍ لَيْسَ فِيهِمْ نبيهُم .·. وَقَدْ وَهَنَتْ مِنْهُمْ ظُهُورٌ وَأَعْضُدُ
تَبْكُونَ مَنْ تَبْكِي السَّمَوَاتُ يَوْمَهُ .·. وَمَنْ قَدْبَكَتْهُ الأَرْضُ فَالنَّاسُ أَكْمَدُ
وَهَلْ عَدلَتْ يَوْماً رَزِيَّةُ هَالِـكٍ .·. رَزِيَّةَ يَوْمِ مَـاتَ فِيـهِ محمـدُ؟
تَقطَّعَ فِيه مَنْزِلُ الوَحْيِ عَنْهُمُو .·. وَقَدْ كَانَ ذَا نُورٍ يَغـُورُ وَيَنْجِـدُ
يَدُلُّ عَلَى الرَّحْمَنِ مَنْ يَقْتَدِي بِهِ .·. وَيُنْقِذُ مِنْ هَوْلِ الكَشْرِاَياً وَيُرْشِدِ
إِمَامٌ لَهُمْ يَهْدِيهِمُ الْحَقّ جَاهِـدًا .·. مُعَلِّمُ صِدْقٍ إِنْ يُطِيعُوهُ يَسْـعَدُوا
عَفُوٌّ عَنِ الزَّلاَّتِ يَقْبَلُ عُـذْرَهُمْ .·. وَإِنْ يُحْسِنُوا فَاللهُ بِالخَيْرِ أَجْـوَدُ
وَإِنْ نَابَ أَمْرٌ لَمْ يَقُومُوا بِحَمْدِهِ .·. فَمَنْ عِنْدَهُ تَيْسِيرُ مَـا يَتَشَـدَّدُ[١]

وقال يرثي حمزة بن عبدالمطلب حين قدمت بنته أمامة المدينـة تسأل عن قبر أبيها ومصرعه:

تُسَائِلُ عَنْ قَرْمٍ هِجَـانٍ سَـمَيْدَعٍ .·. لَدَى الْبَأْسِ، مِغْوَارِ الصَّبَاحِ جَسُورِ
أَخِي ثِقَةٍ يَهْتَزُّ لِلْعُرْفِ وَالنَّـدَى .·. بَعِيدِ المَدَى، فِي النَّائِبَاتِ صَبُورِ
فَقُلْتُ لَهَا: إِنَّ الشَّهَادَةَ رَاحَـةٌ .·. وَرِضْوَانُ رَبٍّ، يَا أُمَـامُ غَفُـورِ
فَإِنَّ أَبَاكِ الْخَيْرَ حَمْزَةَ فَـاعْلَمِي .·. وَزِيرُ رَسُـولِ اللهِ خَيْـرُ وَزِيـرِ
دَعَاهُ إِلَهُ الخَلْقِ ذُو العَرْشِ دَعْوَةً .·. إِلَى جَنَّةٍ يَرْضَى بِهَـا وَسُـرُورِ
فَذَلِكَ مَا كُنَّا نُرَجِّـي وَنَرْتَجِـي .·. لِحَمْزَةَ يَوْمَ الحَشْرِ، خَيْرَ مَصِـيرِ

---

(١) من ديوان حسان بن ثابت الأنصاري صــ٥٥ ومعاني الكلمــات : أكمــد: أحزن، عدلت: سادت ·

فَوَاللهِ لَا أَنْسَاكَ مَا هَبَّتَ الصَّبَا .:. وَلأَبْكِيَنَّ فِي مَحْضَرِي وَمَسِيرِي
عَلَى أَسَدِ اللهِ الَّذِي كَانَ مِدْرَهَا .:. يَزُودُ عَنِ الإِسْلَامِ كُلَّ كضـــرر(١)

* * *

٥ـ **الحكمة والمثـل:** لقد حرص حسان بن ثابت ألا تخلو قصيدة أو مقطوعة من شعره من حكمة أو ضرب مثل، أو موعظة هادفة، وكان ذلك غريزة فيه منذ الجاهلية،وزاد الإسلام هذا الاتجاه رونقا وجـــلالا.

ومن ذلك قوله:

وَإِنَّ امْرَأً يُمْسِي وَيُصْبِحُ سَالِماً .:. مِنَ النَّاسِ إِ مَّا جَنَى لَسَـــعِيدُ(٢)

وقوله:

أَرَى كَثْرَةَ المَعْرُوفِ يُورِثُ أَهْلَهُ .:. وَسَوَّدَ عَصْرَ السُّوءِ غَيْرَ المَسُودِ(٣)

ومن **عظاته:**

وَإِنَّكَ لَنْ تَلْقَى مِنَ النَّاسِ مَعْشَرًا .:. أَعَزَّ مِنَ الأَنْصَارِ عِزًّا وَأَفْضَلَا(٤)

ومنها :

وَمَا فَقَدَ المَاضُونَ مِثْلَ مُحمـــدٍ .:. وَلَا مِثْلُهُ حَتَّى القِيَامَـــةِ يُفْقَـــدُ(٥)

---

(١) الأبيات من ديوان حسان بن ثابت الأنصاري صـــ١٠٥ ومعـــاني الكلمـــات كالتالي: **القرم:** السيد المعظم، **الهجان:** الكريم الحسب، **السميدع:** الشـــجاع **المدرة:** زعيم القوم .

(٢) الديوان صـــ٧٨ .

(٣) الديوان صـــ٧١ .

(٤) الديوان صـــ٢٠٨ .

(٥) الديوان صـــ٥٦ .

٢ - كعب بن مالك الأنصاري :

حياته: هو كعب بن مالك بن أبي كعب الأنصاري الخزرجي، أبوه مالك بن أبي كعب،شاعر، له آثار شعرية في الأوس والخزرج قبل إسلامهم[١] وقد اشتهر بيت كعب بالشعر، ورواية الحديث، كما عرف كعب بالشعر قبل إسلامه،وذاعت شهرته حتى بلغت مسامع النبي ﷺ قبل هجرته ٠

أسلم كعب بن مالك مبكرا،فقد كان من أوائل الأنصار الذين أسلموا من أبناء المدينة، فما أن وصل نور الإسلام إلى يثرب حتى أضاء جوانب نفسه،وانشرح صدره للإسلام،وكانت سنه حينئذ خمسا وعشرين سنة، فقد أسلم قبيل بيعة العقبة، وعندما ذهب وفد من أبناء يثرب إلى رسول الله ﷺ في العقبة الثانية كان أحدهم ، وهناك بايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام ، كما إنه صلى الجمعة قبل أن يهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وقد اتخذه الرسول ﷺ أحدالشعراء الثلاثة الذين انتدبهم للدفاع عن الإسلام،والرد على المشركين، وقد شهد مع الرسول ﷺ المشاهد كلها إلا بدرا،وتبوك،التي وقعت سنة تسع من الهجرة، فكان أحد الذين تخلفوا عن غزوة تبوك مع مَن تخلف مِن المسلمين،وعددهم ثلاثة وثمانون رجلا بأعذار مختلفة، منهم مَن كان منافقا،ومنهم مَن رأى أن الثمار قد حان حصادها،وقطافها،ويريد أن يقوم بذلك، ومنهم من خاف شدة الحرارة،وبُعد المسافة، ومن كان فقيرا

---

(١) الأغاني ١٦/ ٢٢٦ ٠

لا يملك راحلة يركبها، ولما عاد الرسول منْ تبوك ولم يلق الـــروم ـــ حيث صالح معظمهم على الجزية ـــ جاءه المتخلفون يعتذرون إليـــه، فقبل أعذارهم إلا ثلاثة نفر،هم: كعب بن مالك، ومرارة بـــن الربيـــع، وهلال بن أمية، فإنه غضب عليهم،وترك كلامهم، وأمر المســلمين أن يتجنبوا كلامهم، ثم أمر هؤلاء الثلاثة أن يعتزلوا نساءهم أيضا، وظلوا على هذه الحال خمسين يوما،حتى ضاقت عليهم الأرض بمـــا رحبـــت وضاقت عليهم أنفسهم،حتى نزلت آيتان كريمتان تقرر العفـــو عـــنهم ومسامحتهم فى تقصيرهم.فيقول تعالى فى سورة التوبة: ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾[١] .

وكان يروي أحاديث رسول الله ﷺ ، وقد كف بصره فى أخريات حياته، روى الواقدي أنه مات سنة ٥٠هـــ وهو قول أكثر المـــؤرخين وكان عمره آنذاك سبعة وسبعين عاما .

شعر كعب:

حارب كعب بن مالك أعداء الإسلام بلسانه،واشترك مع حسان بن ثابت وعبدالله بن رواحة فى الدفاع عن الإسلام،وعـــن رســـول الله ﷺ

---

(١) سورة التوبة الآيتان ١١٧، ١١٨ .

بالكلمة المنغومة،فكان وقع شعرهم على أعداء الإسلام أشد من وقع السنان. يقول **أبوالفرج الأصفهاني فى كتابه الأغاني**: "كان يهجوهم — يعنى قريشا — ثلاثة نفر من الأنصار،يجيبونهم — أى على هجائهم للرسول — : حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبدالله بن رواحة، وكان حسان وكعب يعارضانهم،بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ويعيرانهم بالمثالب، وكان عبدالله بن رواحة يعيّرهم بالكفر،وينسبهم إلى الكفر،ويعلم أنه ليس فيهم شر من الكفر، فكانوا فى ذلك الزمان أشد شئ عليهم قول حسان وكعب، وأهون شئ عليهم قول ابن رواحة، فلما أسلموا، وفقهوا الإسلام، كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة"[١].

وكان كعب من فحول الشعراء المطبوعين المجيدين.وأكثر شعره فى الحماسة ووصف الحرب،وهجاء الأعداء.وله ديوان مطبوع.

ومن أشعاره التى يرد بها على ضرار بن الخطاب بن مرداس التى قالها فى حصار الخندق يوم الأحزاب ومنها :

وَمُشْفِقَةٍ تَظُنُّ بِنَا الظُّنُونَا .: وَقَدْ كُنَّا عَرَنْدَسَةً طَحُونَا

كَأَنَّ زُهَاءَهَا أُحُدٌ إِذَا مَا .: بَدَتْ أَرْكَانُهُ لِلنَّاظِرِينَا

تَرَى الأَبْدَانَ فِيهَا مُسْبَغَاتٍ .: عَلَى الأَبْطَالِ وَاليَلَبَ الحَصِينَا[٢]

---

(١) الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ١٦/ ٢٣١ مطبعة دار الكتب المصرية.

(٢) معانى الكلمات : العرندسة: الشديدة القوة، وأراد بها كتيبة وفصيلة من الجيش، الطحون: التى تطحن ما مرت به، زهاؤها: تقدير عددها، الأبدان: يريد بها الدروع، مسبغات: صافيات كاملات، اليلب: التروس، الحصين=

فضرار يقود مع قومه عرندسة طحونا قوامها جيش جرار يوازى جيش أحد ويعدله عددا، متسلحا بأقوى الأسلحة وأشدها فتكا، متـدرعا بالدروع الحصينة •

فيرد عليه كعب بن مالك بقوله:

وَسَـائِلَةٍ تُسَـائِلُ مَـا لَقِينَـا .:. وَلَوْ شَـهِدَتْ رَأَتْنَـا صَـابِرِينَا

صَـبَرْنَا لاَ نَـرَى لِلهِ عِـدْلاً .:. عَلَـى مَـا نَابَنَـا مُتَوَكِّلِينَـا

وَكَانَ لَنَا النَّبِيُّ وَزِيـرَ صِـدْقٍ .:. بِـهِ نَعْلُـو البَرِيـَّةَ أَجْمَعِينَـا

نُقَاتِلُ مَعْشَرًا ظَلَمُـوا وَعَقُّـوا .:. وَكَـانُوا بِالعَـدَاوَةِ مُرْصِـدِينَا

نُعَـاجِلُهُمْ إِذَا نَهَضُـوا إِلَيْنَـا .:. بِضَـرْبٍ يُعَاجِـلُ المُتَسَـرِّعِينَا

تُرَانَا فِي فَضَـافِضَ سَـابِغَاتٍ .:. كَغُـدْرَانِ المَـلاَ مُتَسَـرْبِلِينَا

وَفِي أَيْمَانِنَـا بِـيضٌ خِفَـافٌ .:. بِهَا نَشْـفِي مِـرَاحَ الشَّـاغِبِينَا

بِبَابِ الخَنْـدَقَيْنِ كَـأَنَّ أُسْـدًا .:. شَـوَابِكُهُنَّ يَحْمِـينَ العَرِينَـا

فَوَارِسُنَا إِذَا بَكَـرُوا وَرَاحُـوا .:. عَلَى الأَعْدَاءِ شُوسًـا مُعْلَمِينَـا

لِنَنْصُـرَ أَحمـدًا وَاللهَ حَتَّـى .:. نَكُونَ عِبَـادَ صِـدْقٍ مُخْلِصِـينَا

وَيَعْلَمَ أَهْلُ مَكَّةَ حِـينَ سَـارُوا .:. وَأَحْـزَابٌ أَتَـوْا مُتَحَزِّبِينَـا

بِـأَنَّ اللهَ لَـيْسَ لَـهُ شَـرِيكٌ .:. وَأَنَّ اللهَ مَـوْلَى المُؤْمِنِينَـا

=الذى يتحصن به لابسه. انظر الأبيات فى ديوان كعب بن مالك الأنصارى: دراسة وتحقيق سامى العانى ــ مكتبة النهضة ببغداد سنة ١٩٦٦م، وحسن الصحابة فى شرح أشعار الصحابة صـ١٣١، تأليف/ مفتى هرس، مطبعة السعادة سنة ١٣٢٤هـ، والسيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٣٨، والبداية والنهاية ٤/ ٥٦، والروض الأنف ٦/ ٢٠٦، وانظر القصيدة كاملة وشرحها فى كتابنا: النقائض فى عهد البعثة المحمدية صـ٢٠١ وما بعدها •

فَــإِنْ تَقْتُلُــوا سَــعْدًا سَــفَاهًا ∴ فَــإِنَّ اللهَ خَيْــرُ القَادِرِينَــا

سَــيُدْخِلُهُ جِنَانًــا طَيِّبَــاتٍ ∴ تَكُــونُ مُقَامَــةً لِلصَّــالِحِينَا

كَمَا قَــدْ رَدَّكُــمْ فَــلاَ شَــرِيدًا ∴ بِغَيْظِكُمُــو خَزَايَــا خَائِبِينَــا

خَزَايَا لَــمْ تَنَــالُوا ثَــمَّ خَيْــرًا ∴ وَكِــدْتُمْ أَنْ تَكُونُــوا دَامِرِينَــا

بِرِيحٍ عَاصِــفٍ هَبَّــتْ عَلَــيْكُمْ ∴ فَكُنْــتُمْ تَحْتَهَــا مُتَكَمِّهِينَــا[١]

فكعب في هذه الأبيات يقرر بما وقر فى قلبه من إيمـــان، ومـــا استقرت عليه نفسه من الخلق الإسلامى الرفيع،أنهم لاقوا هذا الطوفان البشري بروح صابرة واثقة بعدالة الله تعالى، مقتنعة بصدق الرســالة المحمدية، وقام الجميع على قلب رجل واحد،يتصــدى لهــذا الغــزو البربري الذى أعماه الحقد، وطمست العداوة البغيضــة علــى قلبــه، ونهض المسلمون في أسلحتهم الماضية يحمون عرينهم، ويدافعون عن وجودهم، ينصرون دين الله،حتى تعلو كلمة الحــق، وترتفــع رايــات الإسلام، ويؤكدون لأهل مكة ومن سار فى ركابهم من الأحزاب،أن الله

---

(١) معانى الكلمات: مرصدين: جمع رصد وهو اسم فاعل من قولهم: أرصــد للأمر، إذا أعد له عدته، وأخذ له أســبابه، فضــافض: الــدروع المتســعة، سابغات: كاملة، الملا: المتسع من الأرض، متسربلين: لابسين للدروع، مراح الشاغبين: نشاط الذين عرفوا بالشغب وتهييج الشر، الشوابك: التى يتشبث بها فلا يفلت، الشوس: جمع أشوس وهو الذى ينظر نظر المتكبر بمؤخر عينه ، المعلم: الذى جعل لنفسه علامة يعرفه الناس بها ليشتهر فى الحــرب وينبــه ذكره، سعدا: هو سعد بن معاذ، سفاها: ضلالا، الفــل: القــوم المنهزمــون، الشريد: الطريد النافر خوفا وفزعا، الدامرون: الهالكون، متكهمين : الأعمى الذى لا يبصر ٠

راجع الأبيات فى ديوان كعب بن مالك الأنصارى صــ٦٢، وفى السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٥٤، والروض الأنف ٦/ ٣٤٣، والبدايــة والنهايــة ١٣١/٤، وسيرة النبى ٢/ ٧٣٣ ٠

واحد لا شريك له، وأن الله مولى المؤمنين، ثم يأخذ فى الـــرد علـــى ضرار،فى فخره بقتل سعد بن معاذ،والتراجع عن قتالهم،قائلا لـــه : إذا كنتم قتلتم سعدا غدرا وخيانة، فإن مصيره جنات عدن ورضوان،مـــن الله مع المؤمنين الصالحين، وأما عن رجوعكم فإنكم عدتم مجللين بعار الخزي والهزيمة، يمزق قلوبكم حيث لم تنالوا منا شيئا، ولـــم تحققـــوا هدفا، وكادت الريح التي أرسلها الله عليكم تأييدا لنا تهلك جمعكم وتبدد شملكم[١].

ومن أبيات كعب المشهورة قوله،عندما توجه الرسول إلى الطائف بعد حنين :

قَضَيْنَا عَنْ تِهَامَـةَ كُـلَّ رَيْـبٍ .:. وَخَيْبَـرَ ثُـمَّ أَجْمَعْنَـا السُّـيُوفَا
نُخَيِّرُهَا وَلَـوْ نَطَقَـتْ لَقَالَـتْ .:. قَـوَاطِعُهُنَّ دَوْسًـا أَوْ ثَقِيفَـا

يقول ابن حجر فى كتابه: الإصابة فى معرفة الصحابة: "إن هذين البيتين كانا سببا فى إسلام "دوس"، قال بعضهم لبعض: خذوا لأنفسكم، حتى لا ينزل بكم ما نزل بثقيف"[٢] ومن أبياته التى لاقـت استحسـان الرسول ﷺ وسروره بها عندما سمعها قوله فى قريش:

جَاءَتْ سَخِينَةُ كَيْ تُغَالِبَ رَبَّهَـا .:. فَلَيَغْلِبَـنَّ مُغَالِـبُ الغَـلَّابِ

---

(١) انظر النقيضتين كاملتين وشرحهما والتعليق عليهما فى كتابنا: النقائض فـى عهد البعثة المحمدية من صـ٢٠١ ــ ٢٠٩ .

(٢) الإصابة فى معرفة الصحابة لابن حجر ٥/ ٣٠٩ .

فقد قال عليه الصلاة والسلام لكعب عندما سمع منه هذا البيت : "أما إن الله لم ينس لك ذلك"[١].

ومن شعره يرثى حمزة بن عبدالمطلب وقد استشهد فى موقعة أحد،يخاطب أخث حمزة صفية بنت عبدالمطلب:

صَفِيَّةُ، قُومِي لاَ تَعْجَزِي .: وَبَكِّي النِّسَاءَ عَلَى حَمْزَةِ
وَلَا تَسْأَمِي أَنْ تُطِيلِي البُكَا .: عَلَى أَسَدِ اللهِ فِي الهِزَّةِ
فَقَدْ كَانَ عِزًّا لأَيْتَامِنَا .: وَلَيْثَ المَلَاحِمِ فِي البِزَّةِ
يُرِيدُ بِذَاكَ رِضَا أَحمَدٍ .: وَرِضْوَانِ ذِي العَرْشِ وَالْعِزَّةِ

وقال معاوية بن أبى سفيان يوما لجلسائه: أخبرونى بأشجع بيت وصف به رجل قومه، فقال له روح بن زنباع: قول كعب بن مالك:

نَصِلُ السُّيُوفَ إِذَا قَصُرْنَ بِخَطْوِنَا .: قُدُماً وَنُلْحِقُهَا إِذَا لَمْ تَلْحَقِ

فقال له معاوية: "صدقت"[٢].

وشعر كعب بن مالك ضاع منه الكثير وبخاصة شعره قبل الإسلام.فالباقي من شعره كله إسلامي، فما عرف من شعره خلا من الموضوعات الغزلية الفاضحة، ومن الحديث عن الخمر، وما فيه من بعض الآثار الجاهلية كذكر الشجاعة والكرم والمناقضات مذكور أنه قيل فى مناسبات إسلامية، مما يؤكد ضياع الشعر الجاهلي لكعب، وأن

(١) سخينة: نوع من جيد الطعام، فهو يرميهم بالحرص على تلبية شهوة البطن مما ينافى علو الهمة. وانظر: الأغانى ١٦/ ٢٣١ .
(٢) انظر الأغانى ١٦/ ٢٣٤ .

الباقي من شعره كله بعد إسلامه، ويكاد الباقي من شعره الإسلامي ينحصر في الفترة التي صحب فيها رسول الله ﷺ ، فلا تسبقها إلا قصيدة قالها في أحداث بيعة العقبة ومواقف القرشيين من هذه البيعة[١] وطبيعي أن يكون شعره مواكبا للأحداث الإسلامية أو محققا للغاية التي ندبه الرسول ﷺ لها،وهى الدفاع عنه وعن الدعوة الإسلامية.

وإذا تصفحنا ديوان كعب بن مالك نجد أن فيه المديح لكنه مديح خص به رسول الله ﷺ ومن ذلك قوله في غزوة بدر:

فِينَا الرَّسُولُ شِهَابٌ ثُمَّ يَتْبَعُهُ ∴ نُورٌ مُضِيءٌ لَهُ فَضْلٌ عَلَى الشُّهُبِ
الحَقُّ مَنْطِقُهُ، وَالعَدْلُ سِيرَتُهُ ∴ فَمَنْ يُجِبْهُ إِلَيْهِ يَنْجُ مِنْ تَبَبِ
نَجْدُ المَقْدِمِ مَاضِي الهَمِّ مُعْتَزِمٌ ∴ حِينَ القُلُوبُ عَلَى رَجفٍ مِنَ الرُّعُبِ
يَمْضِي وَيَذْمُرُنَا مِنْ غَيْرِ مَعْصِيَةٍ ∴ كَأَنَّهُ البَدْرُ لَمْ يُطْبَعْ عَلَى الكَذِبِ
بَدَا لَنَا فَاتَّبَعْنَاهُ نُصَدِّقُهُ ∴ وَكَذَّبُوا فَكُنَّا أَسْعَدَ العَرَبِ[٢]

ومدائح كعب لرسول الله ﷺ لا تجئ لغاية المدح في ذاته فليس له قصيدة واحدة اقتصرت على مدح الرسول ﷺ وإنما يجئ المدح خلال قصائده التى ينافح بها عن دين الإسلام،إما بتهديد المشركين، وإما بتعييرهم بهزائمهم التى هزموا فيها، وإما في مناقضاته شعراءهم .

---

(١) انظر ديوان كعب بن مالك صـ٢١٩ وما بعدها .
(٢) انظر ديوان كعب بن مالك صـ١٧٤ ومعاني الكلمات هي: التبب: الخسران والهلاك، الهم: الهمة، على رجف: يرتجف، يذمرنا: يحمينا ويمنعنا .

وكان من الطبيعي أيضا في شعر كعب بن مالك أن يكون في شعره هجاء،استلزمته حركة الصراع الديني،حيث هجا المشركين وحلفاءهم واليهود ومن ناصرهم أو تعاطف معهم، كما أن له من النقائض التي رد بها على شعراء قريش،ما يعكس حب كعب للرسول ﷺ واعتزازه بدين الإسلام.

كذلك فإن لكعب مرثيات طويلة وكثيرة بكى بها كثيرا من شهداء المسلمين،وكان أطولها ما قاله فى حمزة بن عبدالمطلب وأصحابه من شهداء أحد،من مثل قوله:

نَشَجْتَ وَهَلْ لَكَ مِنْ مَنْشَجٍ .:. وَكُنْتَ مَتَى تَذْكُرْ تَلْجَجِ

تَذكر قَوْمٌ أَتَانِي لَهُمْ .:. أَحَادِيثُ فِي الزَّمَنِ الأَعْوَجِ

فَقَلْبُكَ مِنْ ذِكْرِهِمْ خَافِقٌ .:. مِنَ الشَّوْقِ وَالحُزْنِ المُنْضِجِ

وَقَتْلاَ همُو فِي جِنَانِ النَّعِيمِ .:. كِرَامِ المَدَاخِلِ وَالْمَخْرَجِ

بِمَا صَبَرُوا تَحْتَ ظِلِّ اللِّوَاءِ .:. لِوَاءِ الرَّسُولِ بِذِي الأَضْوَجِ

غَدَاةَ أَجَابَتْ بِأَسْيَافِهَا .:. جَمِيعًا بَنُو الأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ

وَأَشْيَاعِ أَحمدَ إِذْ شَايَعُوا .:. عَلَى الحَقِّ ذِي النُّورِ وَالْمَنْهَجِ

فَمَا بَرِحُوا يَضْرِبُونَ الكُمَاةَ .:. وَيَمْضُونَ فِي القَسْطَلِ المرْهَجِ

كَذَلِكَ حَتَّى دَعَاهُمْ مَلِيكٌ .:. إِلَى جَنَّةٍ دَوْحَةِ المَوْلِجِ

فَكُلُّهُمْ مَاتَ حُرَّ البَلاَءِ .:. عَلَى مِلَّةِ اللهِ لَمْ يُحْرَجِ

كَحَمْزَةَ لَمَّا وَفَى صَادِقاً .:. بِذِي هِبَّةٍ صَارِمٍ سَلْجَجِ

فَلاَقَاهُ عَبْدُ بَنِي نَوْفَلٍ .:. يُبَرْبِرُ كَالجَمَلِ الأَدْعَجِ

فَأَوْجَرَهُ حَرْبَةً كَالشُّهُبِ ⁖ تَلْهَبُ فِي اللَّهَبِ المُوهَجِ
وَنُعْمَانُ أَوْفَى بِمِيثَاقِهِ ⁖ وَحَنْظَلَةُ الخَيْرِ لَمْ يَخْنَجِ
عَنِ الحَقِّ حَتَّى غَدَتْ رُوحُهُ ⁖ إِلَى مَنْزِلٍ فَاخِرِ الزِّبْرَجِ
أُولَئِكَ ، لاَ مَنْ ثَوَى مِنكُمُو ⁖ مِنَ النَّارِ فِي الدَّرْكِ المُرْتَجِ(١)

فكعب بن مالك يترجم في هذه الأبيات عن حزن الأمة ولوعتها على أسد الله ، وأسد رسوله ﷺ ، ويبكي معهم السيف البتار الذى تلم، ولذلك نراه يبدأ قصيدته بسؤال تحسري ينم عن لوعته وأساه،فيخاطب نفسه متسائلا: هل لك من سبب يحملك على البكاء والتمادي في إهراق الدمع؟! ويسارع بالإجابة قائلا: إن بكائي دفع إليه تذكر قوم في هذا الزمن الذي أتى بما يسوء ويؤلم، فالقلب من ذكرهم يخفق بالشوق إليهم، ويمتلئ بالحزن الأليم عليهم، وإن أنعم الله على قتلاهم بالجنة

---

(١) انظر الأبيات فى ديوان كعب بن مالك ص١٨٨٧، والسيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٣٨، والبداية والنهاية ٤/ ٥٦، والروض الأنف ٦/ ١٠٦، ومعانى الكلمات هى: نشجت: بكيت، تلجج: من اللجج وهو التمسك بالشئ والتمادى فيه، والأضوح: ـ بضم الواو ـ جمع وضوج وهو جانب الوادى، وبفتح الواو: اسم مكان قرب أحد بالمدينة، القسطل: الغبار، المرهج: الذى علا وارتفع فى الجو، المولج: المدخل، حر البلاء: خالص الاختيار، لم يحرج: لم يأثم، بذي هبة: أى بسيف، وهبة السيف: وقوعه فى العظم، سلجج: مرهف حاد، عبد بني نوفل: هو وحشى قاتل حمزة، يبربر: يصيح بما لا يفهم، الأدعج: الأسود، أوجره: طعنه فى صدره، الشهاب: القطعة من النار، الموهج: الموقد، لم يحنج: لم يصرف عن وجهه الذى أراده من الحق، نعمان: هو نعمان بن عمرو، أو ابن مالك بن ثعلبة، وكلاهما من الأنصار، وقد استشهد فى أحد، حنظلة الخير: هو حنظلة بن أبى عامر (الغسيل) رجع قصته فى كتابنا: النقائض فى عهد البعثة المحمدية صـ١٠٤، الزبرج: الوشي، أى فاخر الزينة، الدرك: الأسفل، المرتج: المغلق.

ونعيمها المقيم جزاء ما قدمت أيديهم فى سبيل رفع راية الإسلام، والانضواء تحت لواء الرسول ﷺ مجاهدين منافحين عن دين الله، ثم أخذ يتحدث عن امتثالهم لأوامر الرسول ﷺ والدفاع المخلص عن سبيل الدعوة الإسلامية، حتى أحرزوا الشهامة، فكلهم مات حر البلاء على ملة الله الحنيفية مبرأ من الذنوب والآثام،وأعطى المثل والقدوة في هذا الكفاح ، ثم استشهد بحمزة رضوان الله تعالى عليه ، فقد كان وفيا صادقا مع عقيدته ودفاعه حتى غدر به عبد بني نوفل ــ وحشي ــ وطعنه بحربته القاتلة غدرا، ثم أعطى مثالا آخر لهذا العطاء السمح والتضحية الكريمة من الصحابة الأجلاء،كالنعمان بن عمرو، أو ابن مالك،وهما من الأنصار الذين نصروا الرسول وأيدوه بالنفس وما ملكت أيديهم، وحنظلة بن أبي عامر ــ الغسيل ــ الذى خرج ليلة عرسه فأبلى بلاء حسنا في أُحُد،ثم نال الشهادة فغسلته الملائكة من الحدث الأكبر، لأنه لم يتمكن من الاغتسال عندما دعا الداعي إلى المعركة، فهؤلاء الأبطال فازوا بنعيم الله المقيم، بعكس قتلى قريش،فإن مصيرهم الدرك الأسفل من النار وبئس المصير.

وهذه المعاني الإسلامية التي بثها كعب بن مالك في هذه الأبيات تتلاقى مع أبيات حسان بن ثابت التالية مع بعض المعاني والأفكار،لأن الشاعرين يعبران عن فكر إسلامي مشترك، ومن الحقائق الثابتة فيه أن الجنة هي جزاء المجاهدين المؤمنين، والنار مثوى الكافرين الضالين، يقول حسان فى قصيدة يهجو بها عبدالله بن الزبعرى الذي تولى

مهاجمة الإسلام والدفاع عن المشركين ، ويتحدث حسان عن مواقف الدفاع والتضحية يوم أحد :

فَإِنْ تَذْكُرُوا قَتْلِي وَحَمْزَةَ مِنْهُمُو ∴ قَتِيلٌ ثَوَى لِلهِ وَهْوَ مُطِيعُ
فَإِنَّ جِنَانَ الخُلْدِ مَنْزِلُهُ بِهَا ∴ وَأَمْرُ الَّذِي يَقْضِي الأُمُورَ سَرِيعُ
وَقَتْلاَكُمُو فِي النَّارِ أَفْضَلُ رِزْقِهِمْ ∴ حَمِيمٌ مَعًا فِي جَوْفِهَا وَضَرِيعُ[١]

---

(١) انظر هذا الشرح فى كتابنا: النقائض فى عهد البعثة المحمدية صـ١٤٢ وما بعدها •

٣- كعب بن زهير:

حياته : هو كعب بن زهير بن أبي سلمى المزني،كان أبوه زهير أحد الثلاثة المقدمين على سائر الشعراء في العصر الجاهلي ، وإن اختلف في تقديم أحدهم على صاحبيه: وهم امرؤ القيس، وزهير، والنابغة الذبياني ، وفي إحدى لقاءات عمر بن الخطاب ﷺ بابن عباس قال له: هل تروي لشاعر الشعراء؟ قال ابن عباس:ومن هو؟ قال الذي يقول:

وَلَوْ أَنَّ حَمْدًا يُخْلِدُ النَّاسَ أُخْلِدُوا .:. وَلَكِنَّ حَمْدَ النَّاسِ لَيْسَ بِمُخْلِدِ

قلت: ذاك زهير، قال: فذاك شاعر الشعراء، قلت: وبم كان شاعر الشعراء؟ قال: لأنه لا يعاظل في الكلام – أي يعقده ويكرر اللفظ والمعنى – وكان يتجنب وحشي الشعر، ولم يمدح أحدا إلا بما فيه"(١).

وكعب من الشعراء المخضرمين الذين عاشوا في الجاهلية وأدركوا زمنا في الإسلام، ومن فحول الشعراء والمكثرين،ومنهم من قرنه بأبيه وجعله مع لبيد والنابغة في طبقة واحدة، وقال خلف الأحمر: "لولا أبيات لزهير أكبرها الناس، لقلت إن كعبا أشعر منه"(٢).

وأهم أغراض شعر كعب: المدح ،والهجاء، والفخر، والحماسة.

إسلامه: لقد سمع كعب وأخوه بجير بأخبار محمدﷺ ودعوته بعد أن انتشرت دعوته في أرجاء الجزيرة العربية والتف كثير من الناس

---

(١) الأغاني ١٠/ ٢٨٩ مصورة عن طبعة دار الكتب .
(٢) الشعر والشعراء صـ٥٨ .

حول رايتها، وأصبح الدين الجديد حديث الناس، فخرج الرجلان إلى رسول الله حتى بلغا ماء بني أسد،فقال كعب لبجير: الحق الرجل وأنا مقيم هاهنا، فانظر ما يقول لك، فقدم بجير على رسول الله ﷺ ، وسمع كلامه فآمن به وبدعوته، فغضب عليه أخوه كعب،وكتب إليه زاجرا وناهيا عن الدخول في الإسلام:

أَلاَ أَبْلِغَا عَنِّي بُجَيْرًا رِسَالَةً ∴ فَهَلْ لَكَ فِيمَا قُلْتَ وَيْحَكَ هَلْ لَكَا؟

فَبَيِّنْ لَنَا إِنْ كُنْتَ لَسْتَ بِفَاعِلٍ ∴ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ غَيْرَ ذَلِكَ دَلَّكَا؟

عَلَى خلقٍ لَمْ أَلْقَ يَوْمًا أَبَالَهُ ∴ عَلَيْهِ وَمَا تَلْقَى عَلَيْهِ أَبَالَكَا

فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَلَسْتُ بِآسِفٍ ∴ وَلَا قَائِلٍ إِمَّا عَثَرْتَ لَعَالَكَا

سَقَاكَ بِهَا الْمَأْمُونُ كَأْسًا رَوِيَّةً ∴ فَأَنْهَلَكَ الْمَأْمُونُ فِيهَا وَعَلَّكَا(١)

وبعث كعب بهذه الأبيات إلى بجير، فلما أتت بجيرا كره أن يكتمها رسول الله ﷺ ، فأنشده إياها، فقال الرسول ﷺ لما سمع: "سقاك بها المأمون" : "صدق وإنه لكذوب : أنا المأمون"، ولما سمع قوله : "على خلق لم تلف أما عليه ولا أبا" قال: "أجل، لم يلف، أى لم يجد أباه ولا أمه" .

وأهدر الرسول دمه، وقال لأصحابه : "من لقي منكم كعب بن زهير فليقتله" فكتب بجير إلى أخيه يخبره أن رسول الله قتل رجالا بمكة ممن كانوا يهجونه ويذمونه، وأن من بقي من شعراء قريش: ابن

(١) معانى الكلمات: بين لنا: أى اذكر لنا مرادك من بقائك على دين الإسلام، لعالكا: كلمة تقال للعاثر، وهى دعاء له بالإقالة من عثرته أى النجاة منها وعدم إضرارها به .

الزبعرى وهبيرة بن أبي وهب[١]، قد هربوا في كل وجه، فإن كانت لك في نفسك حاجة فطر إلى رسول الله ﷺ فإنه لا يقتل أحدا جاء تائبا، وإن أنت لم تفعل فانج إلى نجائك ــ أي:إلى محل ينجيك منه ــ وأرسل إليه بهذه الأبيات:

مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي كَعْباً فَهَلْ لَكَ فِي الَّتِي ∴ تَلُومُ عَلَيْهَا بَاطِلاً وَهْيَ أَحْزَمُ
إِلَى اللهِ - لاَ العُزَّى وَلاَ اللاَّت - وَحْدَهُ ∴ فَتَنْجُوَ إِذَا كَانَ النَّجَاءُ وَتَسْلَمُ
لَدَى يَوْمٍ لاَ يَنْجُو وَلَيْسَ بِمُفْلِتٍ ∴ مِنَ النَّاسِ إِلاَّ طَاهِر القَلْبِ مُسْلِمِ
فَدِينُ زُهَيْرٍ وَهْوَ لاَ شَيْءَ دِينُهُ ∴ وَدِينُ أَبِي سَلْمَى عَلَيَّ محرَمِ[٢]

فاضطربت حال كعب، وخاف على نفسه فلجأ إلى قبيلة : "مزينة" لتجيره من رسول اللهﷺ، فأبت عليه ذلك، وضاقت عليه الأرض وأرجف به أعداؤه،وأكدوا أنه مقتول لا محالة، ولما استيأس من المجير والنصير، فكر في أمره،فلم يجد مفرا من التوجه إلى المدينة، وسعى إليها مهرولا حتى جاء رجلا من جهينة،كانت بينهما معرفة وصلة، وقيل إنه أتى أبا بكر ؓ ، فغدا به على رسول الله حين صلى

---

(١) ابن الزبعرى: عبدالله بن الزبعرى، وهبيرة بن أبى وهب كانا من أشد الناس عداوة للنبى واصحابه وأقذعا فى هجائهما والنيل منهما بالباطل، فلما كان الفتح أهدر النبى دم ابن الزبعرى فهرب إلى نجران ــ اليمن ــ فهجاه حسان ابن ثابت وعيره، عندئذ عاد ابن الزبعرى إلى الحجاز وأعلن إسلامه فقبل النبى إسلامه وأمنه، أما هبيرة فقد هرب وأقام بنجران حتى مات كافرا، وكانت عنده أم هانئ بنت أبى طالب .

(٢) انظر أبيات كعب وأبيات بجير وقصتها فى السيرة النبوية لابن هشام، والروض الأنف ٧/ ٢٥٦، وعيون الأثر ٢/ ٢٠٨، والكامل لابن الأثير ١٨٦/٢، وكتابنا: النقائض فى عهد البعثة المحمدية صـ٢٦٣ وما بعدها

الصبح، ثم أشار إلى رسول الله فقال له: هذا رسول الله فقم إليه فاستأذنه، فقام حتى جلس بين يديه،فوضع يده في يده ـــ وكان رسول الله لا يعرفه ـــ وقال: يا رسول الله: إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائبا مسلما، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟ فقال عليه الصلاة والسلام: نعم. قال: أنا يا رسول الله كعب بن زهير، وهنا وثب رجل من الأنصار، وقال: "يا رسول الله : دعني وعدو الله أضرب عنقه" فقال له رسول الله: "دعه،فإنه جاء تائبا نازعا عما كان عليه" وعفا عنه رسول الله ﷺ وأمنه،ثم أنشده قصيدته اللامية التى كان قد أعدها وهو فى طريقه إلى رسول الله ﷺ يمدح فيها رسول الله ، ويذكر خوفه وإرجاف الوشاة به، وما ينتظره من قتل.وهي القصيدة المشهورة التى استهلها بقوله:

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي اليَوْمَ مَتْبُولُ ∴ مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ

وهى قصيدة طويلة بلغت تسعة وخمسين بيتا •

القصيدة ومحتواها: قصيدة البردة.بدأها كعب بغزل تقليدي على عادة الشعراء الجاهليين، ويلح فى وصف سعاد ويشبهها بالظبي ويشبه ريقها بالخمر، ويخرج من ذلك إلى وصف ناقته مستلهما ما نظمه أبوه من قبل فى هذا الموضوع، وما زال يصف ناقته حتى قال يصور خوفه وفزعه من رسول الله ﷺ :

تَسْعَى الغُوَاةُ جِنَابَيْهَا وَقَوْلُهُمُو ∴ إِنَّكَ يَا ابْنَ أَبِي سُلْمَى لَمَقْتُولُ
وَقَالَ كُلُّ صَدِيقٍ كُنْتُ آمُلُهُ ∴ لَا أُلْهِيَنَّكَ إِنِّي عَنْكَ مَشْغُولُ

فَقُلْتُ خَلُّوا طَرِيقِي لاَ أَبَـالَكُمُو .·. فَكُلُّ مَا قَـدَّرَ الـرَّحْمَنُ مَفْعُـولُ
كُلُّ ابْنِ أُنْثَى وَإِنْ طَالَتْ سَلاَمَتُهُ .·. يَوْماً عَلَى آلَةٍ حَـدْبَاءَ مَحْمُـولُ
أُنْبِئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ أَوْعَـدَنِي .·. وَالعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ مَـأْمُولُ
مَهْلاً هَدَاكَ الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةَ الـ .·. ـقُرْآنِ فِيهَا مَوَاعِيظٌ وَتَفْصِـيلُ
لاَ تَأْخُذَنِّي بِأَقْوَالِ الوُشَاةِ وَلَـمْ .·. أُذْنِبْ وَلَوْ كَثُرَتْ فِيَّ الأَقَاوِيـلُ(١)

وبعد أبيات طويلة في هذا الغرض،انتقل إلى مـدح الرسـول ﷺ والمهاجرين فقال:

إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِـهِ .·. مُهَنَّدٌ مِنْ سُـيُوفِ اللهِ مَسْـلُولُ
فِي عُصْبَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ .·. بِبَطْنِ مَكَّةَ لَمَّا أَسْـلَمُوا زُولُـوا
زَالُوا فَمَا زَالَ أَنْكَاسٌ وَلاَ كُشُفٌ .·. عِنْدَ اللِّقَـاءِ وَلاَ مِيـلٌ مَعَازِيـلُ
شُمُّ العَرَانِينِ أَبْطَالٌ لَبُوسُـهُمُو .·. مِنْ نَسْجِ دَاوُدَ فِي الهَيْجَا سَرَابِيلُ
بِيضٌ سَوَابِغُ قَدْ شُكَّتْ لَهَا حَلَقٌ .·. كَأَنَّهَا حَلَـقُ القَفْعَـاءِ مَجْـدُولُ
لَيْسُوا مَفَارِيحَ إِنْ نَالَتْ رِمَاحُهُمُو .·. قَوْماً وَلَيْسُوا مَجَازِيعًا إِذَا نِيلُـوا
يَمْشُونَ مَشْيَ الجِمَالِ الزُّهْرِ يَعْصِمُهُمْ .·. ضَرب إِذَا عَـدَدَ السُّـودُ التَّنَابِيـلُ
لاَ يَقَعُ الطَّعْنُ إِلاَّ فِي نُحُورِهِمُو .·. وَمَا لَهُمْ عَنْ حِيَاضِ الْمَوْتِ تَهْلِيلُ(٢)

---

(١) معانى الكلمات : جنابيها: ناحيتها، لا ألهينك: أى لا أشغلك عما أنت فيه بأن أسهله لك فاعمل لنفسك فإنى لا أغنى عنك شيئا .

(٢) معانى الكلمات: زولوا: انتقلوا من مكان إلى مكان، أنكاس: جمع نكس وهو الرجل الضعيف، الكشف: جمع أكشف، وهو الذى لا ترس معه فى الحـرب، الميل: جمع أميل وهو الذى لا سيف معه أو هو الذى لا يحسن ركوب الخيل ولا يستقر على السرج، المعازيل: جمع معزال وهو الذى لا سـلاح معـ العرانين: جمع عرنين، وهو الأنف، ولبوسهم من نسـج داود: أراد لـ

عن موسى بن عقبة قال: "أنشد كعب بن زهير رسول الله ﷺ هذه القصيدة في مسجده فلما بلغ قوله:

إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِــهِ ∴ مُهَنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ مَسْلُولُ

أشار رسول الله ﷺ إلى الخلق أن يسمعوا شعر كعب بن زهير"[١] فقد أعجب رسول الله ﷺ بما في هذه القصيدة من قيم إسلامية،فكسا كعبا بردة.فكان ذلك وساما على صدره، وقد اشتراها معاوية من أبنائه بعشرين ألف درهم،وكان يلبسها الخلفاء بعد معاوية في العيدين واشتهرت القصيدة بالبردة[٢] ٠

ولم يمدح الأنصار،لأنه غضب من موقف الأنصاري منه عندما جاء إلى رسول الله تائبا فقال لرسول الله : "دعني يا رسول الله أضرب عنقه"٠

يقول ابن إسحق: وقال عاصم بن عمرو بن قتادة، فلما قال كعب: "إذا عرد السود التنابيل" وإنما يريد معشر الأنصار لما كان صاحبنا صنع به ما صنع ، وخص المهاجرين من قريش من أصحاب رسول الله بمدحته، غضبت عليه الأنصار ٠

الدروع فقد جاء في التنزيل: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ ، سوابغ: جمع سابغ، وهو الطويل التام، شكت: أن نسجت ، الحلق: جمع حلقة، والقفعاء: شجر ينبسط على وجه الأرض يشبه حلق الدروع، مجدول: محكم الصنعة، الزهر: جمع أزهر وهو الأبيض، عرد: هرب عن خصمه، التنابيل: جمع تنبال وهو القصير ٠

(١) انظر الأغاني ١٧/ ٨٨ ٠

(٢) انظر الشعر والشعراء ١/ ١٥٦، والإصابة ٥/ ٣٠٢ ٠

مدحه للأنصار:

يقول ابن هشام: "ويقال إن رسول الله ﷺ قال له حين أنشده : "بانت سعاد فقلبي اليوم متبول" : "لو لا ذكرت الأنصار بخير، فإنهم لذلك أهل" فقال بعد أن أسلم يمدح الأنصار، ويذكر بلاءهم مع رسول الله ﷺ:

مَنْ سَرَّهُ كَرَمُ الحَيَاةِ فَلاَ يَزَلْ .:. فِي مِقْنَبٍ مِنْ صَالِحِي الأَنْصَارِ
وَرِثُوا المَكَارِمَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ .:. إِنَّ الخِيَارَ هُمُو بَنُو الأَخْيَارِ
المُكْرِهِينَ السَّمْهَرِيَّ بِأَذْرُعٍ .:. كَسَوَالِفِ الهِنْدِيِّ غَيْرَ قِصَارِ
وَالنَّاظِرِينَ بِأَعْيُنٍ مُحْمَرَّةٍ .:. كَالجَمْرِ غَيْرِ كَلِيلَةِ الإِبْصَارِ
وَالبَائِعِينَ نُفُوسَهُمْ لِنَبِيِّهِمْ .:. لِلْمَوْتِ يَوْمَ تَعَانُقٍ وَكِرَارِ
وَالذَّائِدِينَ النَّاسَ عَنْ أَدْيَانِهِمْ .:. بِالْمَشْرَفِيِّ وَبِالقَنَا الخَطَّارِ
يَتَطَهَّرُونَ يَرَوْنَهُ نُسُكًا لَهُمْ .:. بِدِمَاءِ مَنْ عَلِقُوا مِنَ الكُفَّارِ
دَرِبُوا كَمَا دَرِبَتْ بِبَطْنِ خِفِيَّةٍ .:. غُلْبُ الرِّقَابِ مِنَ الأُسُودِ ضَوَارِي
وَإِذَا حَلَلْتَ لِيَمْنَعُوكَ إِلَيْهِمُو .:. أَصْبَحْتَ عِنْدَ مَعَاقِلِ الأَغْفَارِ
ضَرَبُوا عَلِيًّا يَوْمَ بَدْرٍ ضَرْبَةً .:. قَالَتْ لِوَقْعَتِهَا جَمِيعُ نِزَارِ
لَوْ يَعْلَمُ الأَقْوَامُ عِلْمِي كُلَّهُ .:. فِيهِمْ لَصَدَّقَنِي الَّذِينَ أُمَارِي
قَوْمٌ إِذَا خَوَتِ النُّجُومُ فَإِنَّهُمْ .:. لِلطَّارِقِينَ النَّازِلِينَ مَقَارِي[1]

---

(١) انظر الأبيات فى السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ١٣٦٦ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. ومعنى الكلمات: المقنب: أصله الجماعة من الخيل وجمعه المقانب، السمهرى: الرمح، والأذرع: جمع ذراع، سوالف الهندى: يريد به حواشى السيوف أو الرماح، المشرفى: السيف، الخطار: المهتز، دربوا: تعودوا، وخفية: موضع تنسب إليه الأسود، وغلب الرقاب: غلاظها، ضوارى: متعودة ، معاقل: جمع معقل، وهو الموضع الذى يمتنع فيه ...

وحسن إسلامه كعب وأخذ يصدر فى شعره عن مــواعظ وحكــم يستهدي فيها الذكر الحكيم ومن ذلك قوله:

لَوْكُنْتُ أَعْجَبُ مِنْ شَيْءٍ لَأَعْجَبَنِي .:. سَعْيُ الفَتَى وَهوَ مَخْبُوٌّ لَهُ القَدَرُ
يَسْعَى الفَتَى لِأُمُورٍ لَيْسَ يُدْرِكُهَا .:. وَالنَّفْسُ وَاحِدَةٌ وَالهَــمُّ مُنْتَشِــرُ
وَالمَرْءُ مَا عَاشَ مَمْدُودٌ لَهُ أَمَلٌ .:. لَاتَنْتَهِي العَيْنُ حَتَّى يَنْتَهِي الأَثَرُ[١]

وكانت وفاة كعب بن زهير نحو سنة ٢٦هجريــة (٦٤٥م) ومــا زالت بردته يشدو بها الشادون فى كل مكان،والتى عكف عليها العديــد من أدباء العربية وأعــلام الفكــر والأدب، يشــرحونها ويخمســونها ويشطرونها ويعارضونها،فى تراث شعري يعكس أهمية هذه القصــيدة وتأثيرها العظيم على النفوس المؤمنة.

احتله، والأغفار: جمع غفر وهو ولد الوعل، على: المراد به على بن مسعود بن مازن الغسانى، وإليه تنسب بنو كنانة ، خوت: غربت، الطارقين: الــذين يأتون ليلا، المقارى: جمع مقراة وهى الجفنة التى يقدم فيها الطعام ، وانظــر الأبيات فى السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ١٣٦٦ دار الفكر .

(١) الشعر والشعراء ١/ ١٥٢ .

الفصل الرابع

ابوطالب شاعر الدعوة المحمدية

بقلم أ. د / حسن احمد الكبير

قد يكون هذا العنوان من العناوين التى لم يتعودها القارىء فى حياتنا الأدبية كثيرا ، فيدفعه ذلك الى متابعة موضوعه ، والقاء نظرة على ما تعرضت له هذه الدراسة ، ذلك لأن الحياة الأدبية اذا كانت قد سجلت لأبى طالب شعرا ، فان قطاعا عريضا من القراء لم يقرا هذا الشعر وان قرا البعض منهم جانبا منه فانهم اليوم امام رؤية جديدة لأبى طالب بن عبد المطلب ـ المعروف عنه بانه مات على الكفر ـ تجعله شاعر الدعوة المحمدية ، بل وتضعه فى مقدمة الشعراء الذين التفوا حول الرسول ﷺ ، ونافحوا عنه باشعارهم ، وشرعوه اسلحة ماضية فى وجه صناديد الكفر والنفاق كحسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، وكعب ابن مالك رضوان الله تعالى عليهم .

والواقع اننى بعد معيشتى للأدب فى عصر صدر الاسلام ، وخلال قراءتى لشعر الدعوة المحمدية ، استرعى انتباهى شعر ابى طالب عم المصطفى صلوات الله وسلامه عليه الذى رافق حياته الطاهرة منذ أن تولى كفالته بعد موت جده عبد المطلب وحتى وفاته ، وقد شدنى ذلك الشعر الصامد الرافض لأى اذى يصل الى الرسول محمد ﷺ ، والذى نجده يصرخ فى وجه المعاندين المتربصين بمحمد ورسالته ، يرجو حينا ويعنف حينا آخر ، يهدد مرة ، ويتوعد اخرى ، حتى اجتاز ابو طالب بابن اخيه كثيرا من المخاطر ، ودفع عنه العديد من المكائد التى كان يكيدها ويجد فيها اباطرة الكفر وطواغيت الشرك من قريش وغيرهم ، فكان ابو طالب بذلك عونا ـ واى عون ـ للدعوة الاسلامية ، وجنديا من جنودها الأوائل الذين ذادوا عنها بكل ما يملكون وبذلوا كل مالديهم من وسائل فى سبيل الحفاظ عليها ، واجتياز الوهاد والصعاب التى تعترض طريقها ، فاخرسوا اصوات المعاندين ، وقهروا طغيان

المتجبرين ، وكسروا شوكة الكفر والضلال ، فاستقام عود الدعـــوة ، وبزغ فجر الاسلام وسطعت شمسه ، وانتشر ضياؤه .

واذا كان ابو طالب لم يعلن اسلامه ، وبقى على كفره حتى مات عليه ، فان هذا هو عنصر الاثارة فى تلك الشخصية . فقد كان المنتظر من أبى طالب ، وهو على تلك الحال ، ان يتخذ موقفا معاديا من ابن اخيه كما فعل اخوه ابو لهب الذى كرس حياته لايذائه والحـاق اعظم الأضرار بالدعوة الوليدة واتباعها ، بل لقد جدت معه زوجه وسعت سعيا دءوبا الى ايقاع الأذى بمحمد صلوات الله عليه فى كل موقع ، وبذلا معا الجهد المضنى من اجل القضاء على رسالة محمد الناشـئة ، حتى ضجت السموات بافعالهما الشائنة فنزلت آيات الله البينات تصم هـذا العداء ، وتتوعد اصحابه باســوأ العواقب واوخم النتائج : « تبت يدا ابى لهب وتب ، ما اغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى نارا ذات لهب ، وامراته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد » . واذا لم يحدث ذلك من ابى طالب الذى ظل يقدس ما كان عليه آباؤه واجـداده حتى مات على ذلك المعتقد ، فان ما كان عليه محمد ﷺ من تسفيه هـــذه المعتقدات ، والالحاح على رفضها والزراية بها فى كل ما يقول وما ينادى به ، لكفيل بأن يغير صدر عمه عليه ، ويدفعه دفعا الى الحنق والغضب منه ، واذا حال الحب العظيم لابن الأخ دون اتخاذ موقف عدائى ضـد ما يذهب اليه محمد ﷺ فان اقل ما ينتظر من ابى طالب ازاء ذلك ان يتركه وشانه مع القوم ، لا يدفع عنه اذى ، ولا يدخل فى خصومة ، ولا يستجيب لنصرة حتى يكون ذلك سبيلا الى حسم ذلك الخلاف العقائدى ، وافساح المجال للعمل الجماعى ضد تلك الدعوة الجديدة كى تقبر فى مهدها ، ويقضى عليها فى بدئها ، ويعود الناس الى دياناتهم التى دان بها الأجداد والآباء فى وئام وصفاء ، وتنجاب عن سـمائهم غيوم تلك الخلافات المهلكة التى تتهددهم وتكاد تعصف بهم وتقضى عليهم جميعا . الا ان شيئا من ذلك لم يكن ، بل اننا وجدنا الأمر على خلاف ذلك كله فقد وجدنا رعاية وحدبا ، ومسارعة الى النجدة ، والوقوف الأبى ضد كل مواقف العداء لابن اخيه محمد ﷺ ، وبذل اقصى الطاقات فى كل ما من شانه ان يحفظ حياته ، ويهيىء لرسالته الأمن ، ويشد عضدها ، ويعلى من امرها ، لانه لا يخالجه ادنى شك فيما يقول به محمد ﷺ ، المشهور

بمواقفه العظيمة ـ منذ طفولته ـ فى كل ما يطلب منه او يكلف به ٠ فهو الذى اشتهر بين قريش جميعهم بأنه الصادق الأمين حتى غلب ذلك على اسمه وصار لقبا له بين قومه وعشيرته ٠ بالإضافة إلى ذلك ، فإن ما بينهما من الحب ومـاربط بين قلبيهما من الإعزاز والمودة ، وما لمحمد من حق الرعاية والقيام بأمره ، كل ذلك يدفع بأبى طالب دفعا إلى غض الطرف عن اختلافهما فى الأفـكار والمعتقدات ، وابعـاد ذلك عن تلك العـلاقة التى توطدت دعائمها ، والحفاظ على رابطة الدم والنسب ، وخاصـة اذا كان ذلك فى جانب محمـد الذى عرف بين قومـه باليقين الراسـخ ، والايمان الصادق ، والنفس الكريمة ، والقول الفصل الذى لا كذب فيه،او ميل الى هوى النفس ونوازعها ٠ ولذلك نجد ابا طالب يقول لابن اخيه فى اول موقف عدائى يحتكم فيـه القوم اليه : « يا بن اخى ، قل ما احببت فوالله لا اسلمك لشىء أبدا » (١) فهو بذلك يعلن للناس جميعا وقوفه بجانب محمد ودعوته،والذياد عنه أمام اى خطر يتهـدده ، وتسخير كل قواه المادية ـ على قلتهـا ـ والمعنوية ـ على وفرتها ـ للوقوف بجانب المصطفى ﷺ ، والدفاع عن دعوته التى جاء بها ، وفى مقدمة ذلك نبض احساسه ، وخفق قلبه ، ورقيق وجدانه ٠ ينظم ذلك فى قلائد شعرية ، تلفح وجوه الأعداء بهجيرها ، وتضرم النار فى افئدتهم ، وتحرق بقايا الأمل الذى كانوا يرجونه من ابى طالب ، فيتوقف تفكيرهم ، ويرتد الـكيد الى نحورهم ، ويغمد السـيف فى قلوبهم ، وبذلك يؤتى ـ كما يقول المثل ـ الحـذر من مأمنه ويسـلط الله على اعداء الدعوة المحمدية من انفسهم من ينتصر لصاحب الدعوة وانصاره ، ويجاهد فى سبيل اعـلاء كلمة الحق ، حتى تجتاز اصعب مراحلها ، وتتغلب على اعتى معانديها ، اسـتمع الى قول ابى طالب يقول فى ذلك الموقف :

وَاللـّـهِ لَنْ يَصِـلُوا إِلَيـْكَ بِجَمْعِهِمْ
حَتىّٰ أُوَسَّـدَ فِى التُّرَابِ دَفِينـَا
فَانْفـذْ لِأَمْرِكَ مَا عَلَيْكَ غَضَـاضَةٌ
وَابْشِرْ وَقَرَّ بِذَاكَ مِنـْهُ عُيـُونَا

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/٢٧٦ ، ونهاية الأرب للنويرى ١٦/٢٠٠ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ٠

وَلَقَــدْ صَدَقْتَ وَكُنْتَ قَبْـلُ أَمِينـَا
وَعَرَضْتَ دِينـًا قَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّـهُ
مِـنْ خَـيْرِ أَدْيَـانِ الْبَرِيَّـةِ دِينـَا
لَوْلَا الْمَلَامَـةُ أَوْ حِـذَارِي سُـبَّةً
لَوَجَدْتَنِي سَمْحاً بِذَاكَ مُبِينـًا (١)

وهكذا كان ابو طالب الصخرة التى تحطمت عليها آمال الكفار من قريش واليم الذى احتوى هدير ذلك التجمع العدائى الرافض ، والسهم الذى ادمى قلوب المشركين واعيى حيلهم ، واليد الحانية التى امتدت الى محمد ﷺ واصحابه فى احلك الأوقات واقساها ، والبسمة التى رافقت خطواتهم الأولى ، فكانت الدافع القوى الى تحطيم كثير من عقباب ذلك الطريق وتعبيد وهداته ، وظل ابو طالب على ذلك العطاء الرحب ، حتى لفظ آخر انفاسه ، لم يبخل بعطاء ، ولم يضن بحماية . يقول ابن ابى الحديد فى شرح نهج البلاغة : « وقد كفل ابو طالب النبى ﷺ ورباه ودافع عنه وحماه ، ومكن لملته ، ومهد لنشر دعوته ، واحتمل فى سبيله الضر ، وكم لقى فى الدفاع عنه من شر ، وما ناله المشركون بالايذاء خشية ابى طالب سيد البطحاء ، حتى ادركه الفناء ، فكادوا السيد الأمين ، وخوفوه فى البلد الأمين ، فغادرهم الى المدينة لينشر دينه ، وما كان دفاعه عن النبى ﷺ حبا فى دينه ، ورغبة فيه ، ولكن حمية وشفقة على ابن أخيه » وكان الشعر احد اسلحة ابى طالب الماضية فى هذا الصمود الأبى امام جبروت المشركين وطغيانهم ، رافق محمدا ﷺ منذ طفولته ، وقبل اعلان دعوته ، فكان ابو طالب اسبق الشعراء فى هذا العطاء ، واول المنافحين عن صاحب الرسالة الربانية ، فاستحق بذلك ان يكون شاعر الدعوة المحمدية بلا نزاع او تردد .

---

(١) السبة : هى الشهادة على الآباء والأجداد بالكفر والضلال وتسفيه الأحلام . راجع الأبيات فى : شرح نهج البلاغة ٥٥/١٤ واللفظ له ، الروض الأنف ٤٦/٣ ، والبداية والنهاية ٤٢/٣ والسيرة الحلبية ١٧٤/١ ، والسيرة النبوية لابن هشام ٢٨٤/١ ، وشرح نهج البلاغة ٥٥/١٤ .

ابو طالب .

اسمه عبد مناف ، وقيل عمران ، وقيل شيبة . لكنه اشتهر بكنيته « ابو طالب » نسبة الى اكبر ابنائه « طالب » ، ويلقب بسيد البطحاء ، ورئيس مكة وغيرهما . وهو احد اعمام رسول البشرية محمد ﷺ الاحد عشر ، وسادس اولاد عبد المطلب بن هاشم الذكور من حيث المولد . وهو شقيق عبد الله ابى النبى محمد ﷺ وامهما فاطمة بنت عمرو ابن عائذ بن عمران بن مخزوم (١) . ولد بمكة قبل مولد المصطفى ﷺ بخمسة وثلاثين عاما سنة ٥٣٥ م ، وكان راجح العقل حسن الأخلاق ، تعلم من والده العلم وحسن الادارة ، وصلة الناس حتى احبه القوم ، وملك قلوبهم بحسن خصاله ، ولما توفى والده عبد المطلب ومحمد ﷺ ابن ثمانى سنوات كفله عمه ابو طالب باعتباره اكبر الأعمام سنا ، واستجابة لتوجيهات ابيه عبد المطلب الذى كان يوصيه بابن اخيه دائما ويحثه على رعايته له ، فضمه الى اولاده الستة (٢) فاصبح واحدا منهم ، ان لم يكن اقربهم الى قلبه والصقهم بنفسه ، وكان ابو طالب رجلا فقيرا ذا عيال ، وكانت التجارة احدى وسائل رزقه . يحدثنا ابن هشام فى سيرته ان ابا طالب خرج فى ركب الى الشام تاجرا ، فلما تهيأ للرحيل ، واجمع السير تعرض له الرسول محمد ﷺ فاخذ بزمام ناقته وقال : يا عم : الى من تكلنى لا أب لى ولا أم ، فرق له ابو طالب وقال

---

(١) ولدت لعبد المطلب ثمانية أولاد : أربعة بنين ، وأربع بنات . وقد جعل البعض أولاد عبد المطلب الذكور عشرة ، وعدهم آخرون ثلاثة عشر ، كما ذكر قوم أن بناته خمس . والرأى الراجح ان أولاده جميعهم سبعة عشر ، منهم ست نسوة ، واحد عشر رجلا ، أسلم منهم حمزة والعباس وصفية بلا خلاف ، واختلف فى عاتكه وأروى ، وبقيتهم ماتوا على الشرك . راجع : نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى ٢٨/٢٢١ ، ٢٢٣ مصورة عن دار الكتب .

(٢) هم : طالب ، وعقيل ، وجعفر ، وعلى وام هانىء واسمها (فاختة) ، وجمانة ، وكلهم اعقب الا طالبا . وامهم جميعا فاطمة بنت اسد بن هاشم (ابنة عم أبى طالب) ولم يتزوج غيرها وقد أسلمت رضى الله عنها وهاجرت بعد موت أبى طالب الى المدينة المنورة وقد كانت بارة بنبينا محمد ﷺ حتى قال عنها : « انه لم يكن بعد أبى طالب أبر بى منها » توفيت فى السنة الرابعة من الهجرة وصلى عليها رسول الله ﷺ .

لأخرجن به معى ولا يفارقنى ولا افارقه ابدا ، وخرج به معه (١) فكانت هذه الرعاية الدائمة سبيلا الى توطيد العلاقة بين الآب وابنه وتثبيت دعائم الحب والاعزاز بين العم وابن اخيه ، وجعلت كلا منهما يتعلق بالآخر ، ويحس بإحساسه . يروى ابن هشام ان ازمة شديدة من القحط والجوع اصابت قريشا ، وكان ابو طالب ذا عيال كثيرة ، فيحس محمد ﷺ بما يعانيه عمه ابو طالب من فقر وحاجة فيسارع الى عمه العباس وكان من أيسر بنى هاشم قائلا له : يا عم . ان اخاك ابا طالب كثير العيال ، وقد اصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة ، فانطلق بنا اليه فلنخفف عنه من عياله ، آخذ من بنيه رجلا ، وتأخذ انت رجلا آخر فنكلهما عنه . فيستجيب العباس لابن اخيه وينطلقا معا الى ابى طالب ثم يقولان له : انا نرى أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه ، فيقول ابو طالب وقد انهكته الحاجة فى اخريات حياته : اذا تركتما لى عقيلا فاصنعا ما شئتما . فيأخذ النبى ﷺ « عليا » ويضمه اليه ، ويأخذ العباس « جعفرا » ويتركان عقيلا وطالبا مع أبيهما ، ولم يزل على رضى الله عنه مع الرسول ﷺ حتى بعثه الله نبيا ، فكان اول شباب مكة تصديقا لرسالة البشير محمد ، ويبقى جعفر عند العباس حتى قوى ساعده واعلن اسلامه ـ بعد على بقليل ـ فاستقل بنفسه (٢) . وبكل الحب وصادق الود ، ورقيق المشاعر ، يتعامل ابو طالب مع ابنيه محمد وعلى عندما يلقاهما ـ بعيدا فى احد شعاب مكة ـ وقد انخرطا فى صلاتهما كما تعودا من قبل ، فيسأل ابن اخيه فى حنان الأبوة : يا ابن اخى ما هذا الذى اراك تدين به ؟! . فيقول المصطفى ﷺ . اى عم : هذا دين الله ودين ملائكته ، ودين رسله ،

---

(١) كانت سنه (ﷺ) وقتذاك تسع سنوات على الراجح ، وقيل كانت أثنتى عشرة سنة وشهرين وعشرة أيام . راجع السيرة الحلبية ١/١١٣ ، والكامل لابن الأثير ٢/٢٣ .

(٢) راجع في ذلك : السيرة النبوية لابن هشام ١/٢٦٣ ، وتاريخ الطبرى ٢/٣١٣ ـ دار المعارف بمصر ـ والسيرة الحلبية ١/٢٥٥ وشرح نهج البلاغة ١٣/١٩٨ ط ٢ الحلبى وكان جعفر أسن من على بعشر سنين ، أسلم بعد خمسة وعشرين وقيل واحد وثلاثين ، وقتل فى مؤتة فى جمادى الأولى سنة ٨ هـ . وكان استشهاده وسنه تسع وثلاثون سنة ، وسماه الرسول ذا الجناحين لأن الله عوضه عن يديه اللتين قطعتا وهو يحمل راية المسلمين فى مؤتة بجناحين فى الجنة .

ودين ابينا ابراهيم ، بعثنى الله به رسولا الى العباد ، وانت ـ اى عم ـ احق من بذلت له النصيحة ، ودعوته الى الهـدى ، واحق من اجابنى اليه ، واعاننى عليه ، ولكن ابا طالب لم يفتح الله قلبه لهذه الدعوة ومع ذلك يقـول لـه : اى ابن اخى : انى لا اسـتطيع ان افارق دين آبائى وما كانوا عليه ، ولكن... لا يخلص اليك بشىء تكرهه ما بقيت ، ثم يسأل ابنه عليا . اى بنى : ما هذا الذى انت عليه ، فيقول : ما رايت يا ابى . آمنت بالله وبرسول الله ، وصدقته بما جاء به ، وصليت معه لله ، واتبعته ، فيقول لابنه الذى فارق دينه : اما انه لم يدعك الا الى خير فالزمه (١) .

وفاتـه :

قبل هجرة المصطفى ﷺ بثلاث سنين وبضعة اشهر اعتلت صحة ابى طالب وزاد عليه المرض ، وبلغ قريشا ما آل اليه حاله فقال بعضهم لبعض : ان حمزة وعمر قد اسلما ، وقد فشا امر محمد فى قبائل قريش كلها ، فانطلقوا بنا الى ابى طالب فليأخذ لنا على ابن اخيه وليعطـه منا ، فانا ما نأمن ان يبتزونا امرنا ، فلما مشوا الى ابى طالب وكلموه وهم اشراف قومه : عتبة ، وشيبة ابنا ربيعة ، وابو جهل بن هشام ، وامية بن خلف ، وابو سفيان بن حرب ، ورجال من اشرافهم . فقالوا يا ابا طالب : انك منا حيث قد علمت وقد حضرك ما قد ترى ، وقد علمت الذى بيننا وبين ابن اخيك ، فادعه فخذ لنا منه ، وخذ له منا ليكف عنا ونكف عنه وليدعنا وديننا ولندعه ودينه ، فبعث اليه ابو طالب ، فلما جاء قال له : يابن اخى هـؤلاء اشراف قومك اجتمعوا اليـك ليعطوك وليأخذوا منك ، فقال محمد ﷺ يا عم : « كلمـة واحـدة تعطونها ، تملكون بها العرب ، وتدين لكم العجم » فقال ابو جهل : نعم ـ وابيك ـ وعشر كلمات . قال : « تقولون : لا اله الا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه » عندئذ صفق القوم بايديهم ، وقالوا يا محمد : اتريد ان تجعل الآلهـة الها واحـدا ؟ . ان امرك لعجب ، ثم قال بعضهم لبعض : انه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئا مما تريدون ، فانطلقوا وامضوا على

---

(١) راجع السيرة النبوية ٢٦٤/١ وما بعدها ، والسيرة الحلبية ٢٥٨/١ ، وشرح نهج البلاغة ١٩٧/١٣ وما بعدها .

دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه وتفرقوا . لكن ابا طالب يقول لابن اخيه : والله يابن اخى ما رايتك سالتهم شططا . يقول راوى هذا الموقف العباس بن عبد اللـه بن معد عن بعض اهـله عن ابن عباس : فطمع رسول الله ﷺ فيـه ، فجعل يقول له : اى عم ، فانت فقلهـا ، استحل لك بها الشـفاعة يوم القيامـة ، فلما رأى ابو طالب حرص الرسول ﷺ قال : يابن اخى : والله لولا مخافة السبة عليك وعلى بنى ابيك من بعدى ، وان تظن قريش انى انما قلتها جزعا من الموت لقلتها ، واقررت بها عينك لما ارى من شدة وجدك ونصحك لى ، عنـدئذ قال المصطفى ﷺ اما والله لأستغفرن لك ما لم انه عن ذلك ، فانزل اللـه تعالى : « ما كان للنبى والذين آمنوا معـه ، أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا اولى قربى ، من بعـد ما تبين لهم انهم اصحاب الجحيم » ـ التوبة ١١٣ ـ كما نزل قوله تعالى : « انك لا تهدى من احببت ولكن اللـه يهدى من يشـاء وهو اعلم بالمهتـدين » ـ القصص ٥٦ ـ (١) .

وكانت وفاة ابى طالب فى شوال او فى ذى القعدة وعمره بضع وثمانون سنة ، وكانت السيدة خديجة رضوان الله عليها قد ماتت قبـله بخمسة وثلاثين يوما ، وقيل كان بينهما خمسـة وخمسون يوما وقيل ثلاثة ايام (٢) والمشهور انه مات قبـل هجرة الرسـول بثلاث سـنين واربعة اشهر وماتت خديجة بعده بثلاثة ايام (٣) .

وبموتهما فقد رسول اللـه ﷺ المنعة والنصرة على قومه ، واليد الحانية التى كانت تخفف عنه كثيرا مما يلاقيه من اذى اعدائه ، فقـد اشتدت قريش فى ايذائه ﷺ بعد موت ابى طالب ، ولذلك يقول ﷺ : « مانالت قريش منى شيئا اكرهه حتى مات ابو طالب » (٤) .

---

(١) راجع هذه القصة وروايات اخرى فى هـذا الموقف فى الروض الانف ٤/١٥ ، ٢٩ ، والبداية والنهاية ٣/١٢٣ ، ١٢٤ ، والسير والمغازى ص ١٣٧ ، ونهاية الأرب ١٦/٢٧٧ .

(٢) راجع الكامل لابن الأثير ٢/٦٣ ، والمعارف لابن قتيبة ـ دار المعارف بمصر ٤ ـ ، والسيرة الحلبية ١/٢٣٠ .

(٣) وبعد نقض صحيفة قريش وخروج بنى هاشم والمطب من الشعب بثمانية أشهر وواحد وعشرين يوما راجع نهاية الأرب ١٦/٢٧٧ .

(٤) راجع السيرة الحلبية ١/٢٣٦ ، والروض الانف ٤/١٤ .

وقد اختلف الباحثون حول اسلام ابى طالب ، والرأى الصحيح انه مات على الشرك ، ولم يثبت بالدليل القاطع اســلامه (١) وان كانت نصرته للرسول ﷺ واصحابه قد استمرت حتى فارق هذه الحياة ، ولذلك كان رسولنا الاعظم حريصا على اسلامه حتى ينال ثواب ما قدمت يداه لكن ارادة الله فوق كل ارادة . جاء فى الصحيحين عن العباس رضى الله عنه انه قال : قلت يا رسول الله : « ان ابا طالب كان يحوطك وينصرك ، فهل ينفعه ذلك ؟ . قال نعم ، وجدته ـ اى كشف لى عن حاله وما يصير اليه يوم القيامة ـ فى غمرات من النار فاخرجته الى ضحضاح » وفى لفظ آخر : قال : « نعم هو ـ اى يوم القيامة ـ فى ضحضاح من النار ، ولولا انا لكان فى الدرك الأسـفل من النار » (٢) ، ويقول ابن كثير : « كان ابو طالب يصد الناس عن ايذاء رسول الله ﷺ واصحابه ما يقدر عليه من افعال ومقال ، ونفس ومال ، ولكن مع هـذا لم يقدر اللـه له الايمان ، لما له تعالى من الحكمة العظيمة ، والحجة القاطعة البالغـة الدامغة التى يجب الايمان بها ، والتسليم لها ، ولولا ما نهانا الله عنه من الاستغفار للمشركين لاستغفرنا لأبى طالب وترحمنا عليه » (٣) . ولا يسعنى ازاء كفاح ابى طالب الجليل فى سبيل التمكين للدعوة المحمدية سوى أن اقول مع المعترفين بتلك الجهود العظيمة : سبحانك اللهم تعز بالطاعة من تشاء ، وتذل بالمعصية من تشاء ، فكم من معاندين جبابرة آذوا رسولك ، وكادوا لدينك ، ثم جذبتهم عنايتك الأزلية الى رحاب الايمان فكانوا من المهتدين المؤمنين ، ولكن ابا طالب سبقت عليه كلمتك ، وقضت فيه مشيئتك ، فلم ينل شرف الاسلام على الرغم مما قدم واعطى ، وما احاط به نبيك ، ولولا انك نهيتنا عن الاستغفار للمشركين لكنا له من الضارعين المستغفرين .

---

(١) راجع : شرح نهج البلاغة ٦٥/١٤ وما بعدها ، والروض الأنف ٢٧/٤ ، والسيرة الحلبية ٣٣٤/١ ، والبداية والنهاية ١٣٤/١ ، والكامل لابن الأثير ٤٣/٢، والسير والمغازى ص ٢٣٩ ، وشرح نهج البلاغة ٦٥/١٤ .

(٢) الضحضاح : الماء اليسير يصل الى الكعبين أو انصاف السوق ، وعموما هو كل ماء لاغرق فيه ، وراجع : السيرة الحلبية ٢٣٦/١ ، والروض الأنف ١٤/٤ .

(٣) البداية والنهاية ١٢٦/٣ .

الأديب الشاعر :

كان ابو طالب اديبا بالسليقة ، شاعرا مطبوعا ، قوله جيد ، محكم التراكيب ، شريف المعانى ، منظم الفكر ، واذا لم يؤثر عنه كثير من النثر الأدبى (١) ، فان شعره قد سجلته كتب السيرة النبوية ، وحفلت به كثير من كتب اللغة والأدب والتاريخ وغيرها من كتب التراث ، وهو شعر وفير ، ما بين قصائد طويلة ، ومقطوعات ، دار معظمه حـول الدفاع عن محمد ﷺ ودعوته ، واتخذ منه صاحبه سلاحا شهره فى وجه المتربصين بمحمد واتباعه ، ونافح به عن رسالته منافحة الواثق بها فى كل ميدان وفى مواجهة كل خطر ، فى اصرار دائم ، ، وعزم متصل حتى وافته منيته ، فكان احد جنود الدعوة المحمدية المخلصين ، واول الشعراء الذين رافقوا مسيرة النبوة ، واسبقهم جميعا الى الوقـــوف بجانبها ، ودرء الأخطار عنها ، فكان عونا عظيما لها ، واليد الحانية التى امتدت اليها فى احلك اوقاتها ، ، واقسى مراحل حياتها ، ولعل فى الحديث المشهور الذى يخبرنا أن جبرائيل عليه السلام قال للرسول ﷺ ليلة مات ابو طالب : « اخرج منها فقد مات ناصرك » الدليل الحق والبرهان الساطع على مؤازرة ابى طالب ودفاعه الدءوب عن الدعوة الاسلامية وصاحبها عليه افضل الصلاة والسلام . يقول عنه ابن سلام : « وكان ابو طالب شاعرا جيد الكلام ، وابرع ما قاله قصيدته التى مدح فيها النبى ﷺ وهى :

وَأَبْيَضُ يَسْتَسْقِى الغَمَامُ بِوَجْهِهِ
ثِمَالُ اليَتَامَى ، عِصْمَةٌ لِلأَرَامِلِ

وقد زيد فيها وطونت ، ورايت فى كتاب يوسف بن سعد صاحبنا منذ اكثر من مائة سنة : وقد علمت أن قد زاد الناس فيها ، ولا أدرى اين منتهاها ، وسألنى الأصمعى عنها فقلت : صحيحة جيـدة ، قال :

---

(١) راجع له خطبة النكاح التى قالها وهو يخطب السيدة خديجة لابن اخيه محمد ﷺ فى شرح نهج البلاغة ٧٠/١٤ ، وخطبته فى وجوه قريش عندما حضرته الوفاة فى الروض الأنف ٣٠/٤ وما بعدها .

اتدرى اين منتهاها ؟ قلت لا » (١) ، ويقول ابن كثير : « عنده قصيدة بليغة جدا ، لا يستطيع ان يقولها : الا من نسبت اليه ، وهى افحل من المعلقات السبع ، وابلغ فى تادية المعنى فهيا جميعها (٢) ، وتقول طائفة الامامية عنها : « ان شهرتها كشهرة « قفانبك » وان جاز الشك فيها او فى شىء من ابياتها ، جاز الشك فى « قفانبك » وفى بعض ابياتها » (٣) .

وهذه اللامية قد اورد ابن هشام ابياتها التى بلغت عنده اربعة وتسعين بيتا فى سيرته وبداها بالبيت التالى :

وَلَمَّا رَأَيْتُ القَوْمَ لَا وُدَّ فِيهِمُو
وَقَدْ قَطَّعُوا كُلَّ العُرَى وَالوَسَائِلِ

الا ان ذلك ينبىء بان للقصيدة بداية اخرى وهى البيتان التاليان :

خَلِيلَيَّ مَا أُذْنِي لِأَوَّلِ عَاذِلٍ
بِصَغْوَاءَ فِى حَقٍّ وَلَا عِنْدَ بَاطِلِ
خَلِيلَيَّ إِنَّ الرَّأْىَ لَيْسَ بِشِرْكَةٍ
وَلَا نَهْنَهٍ عِنْدَ الأُمُورِ البَلَابِلِ (٤)

فهو هنا يخاطب خليليه على عادة الشعراء فى بدء قصائدهم موضحا انه لن يصغى الى العاذلين ولن تميل اذنه الى سماع اول عاذل او ما يتلوه من القالين سواء كانوا على حق او على باطل ، فالرأى ان لم يشترك فيه العقلاء ولم تنقحه الفكرة حتى يصبح واضحا لا تستقر اليه النفس ولا تطمئن اليه القلوب . وقد نقل هذه القصيدة عن ابن هشام

---

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٢٤٤ وما بعدها ، قراءة وشرح محمود محمد شاكر ، مطبعة المدنى .

(٢) البداية والنهاية ٥٧/٣ ـ ط ٢ ، مكتبة المعارف ببيروت والنصر بالرياض .

(٣) شرح نهج البلاغة ٧٨/١٤ .

(٤) الصغو : الميل . نهنه : الثوب الرقيق النسج والمراد هنا : المضىء الشفاف الذى يظهر الامور على جليتها .

صاحب الروض الأنف ، واوردها ابن كثير فى البـداية والنهـاية مع اختلاف يسير في بعض الالفاظ والأبيات ، وذكر صاحب السير والمغازى منها الآبيات السبعة الأولى فقط ، ويقول عنها صاحب السيرة الحلبية : « لقد بلغت هذه القصيدة اكثر من ثمانين بيتا » (١) . ونجد القصيدة بعد البيتين السابقين تسير هكذا .

وَلَمَّا رَأَيْتَ القَـوْمَ لاَوُدَّ فِيهِمُـو
وَقَدْ قَطَّعُوا كُلَّ العُرَى وَالوَسَـائِلِ
وَقَدْ صَارَحُونَا بِالعَـدَاوَةِ وَالأَذَى
وَقَدْ طَاوَعُوا أَمْرَ العَـدُوِّ المُزَايِلِ
وَقَدْ حَالَفُـوا قَوْماً عَلَيْنَـا أَظِنَّـةً
يَعُضُّونَ غَيْظاً خَلْفَناَ بِالأَنَامِلِ (٢)
صَبَرْتَ لَهُمْ نَفْسِى بِسَمْرَاءَ سَـمْحَةٍ
وَأَبْيَضَ عَضْبٍ مِنْ تُرَاثِ المَقَـاوِلِ
وَأَحْضَرْتُ عِنْدَ البَيْتِ رَهْطِى وَاِخْوَتِى
وَأَمْسَكْتُ مِنْ أَثْوَابِهِ بِالوَصَـائِلِ
قِيَـاماً مَعَـا مُسْتَقْبِلِينَ رِتَاجَـهُ
لَدَى حَيْثُ يَقْضِى حِلْفَهُ كُلّ نَافِلِ (٣)

ويذكر ابن هشام ان ابا طالب قد انشا هذه القصيدة بعد ان اجمع اعداء الدعوة المحمدية على الجلوس بالطرقات فى موسم الحج ليحذروا القادمين الى بيت الله الحرام من محمد الساحر الذى يسـحر الناس

---

(١) راجع سيرة ابن هشام ٢٩١/١ ـ دار احياء التراث ـ بيروت ـ تحقيق مصطفى السقا وآخـرين . والروض الأنف ٦٣/٣ ـ ٦٩ ، والبداية والنهـاية ٥٣/٣ ـ ٥٧ ، والمغازى والسير ص ١٥٦ ، والسيرة الحلبية ١١٢/١ .

(٢) العرى : المراد ما يتمسك به من العهود . الوسـائل : ما يتقرب به . المزايل : المفارق ، والمقصود منها المبالغة فى صفة العدو كقولنا شجاع باسـل . اظنة : متهمين ، جمع ظنين وهم بنو بكر بن عبد مناة حيث كانت بينهم وبين قريش عداوة قديمة . والبيت الأخير توبيخ لقريش حيث تحالفوا على ابى طالب ومن معه من ذوى أرحامهم مع قوم سفلة مطعون فى نسبهم وشرفهم .

(٣) صبرت نفسى : الصبر الحبس ، وسمراء : قناة ، السمحة : اللينة التى تسمح بالهز والانعطاف ، الرتاج : الباب العظيم ، النافل : المتطوع او الحالف .

بقوله ، وتجميع الناس من حولهم ضد دعوته ، فخشى ابو طالب دهماء العرب ان ينالوا ابن اخيه بأذى مع قومه ، فقال هذه القصيدة التى تعوذ فيها بحرم مكة وبمكانه منها ، وتودد الى اشراف قومه ، وهو على ذلك يخبرهم وغيرهم فى شعره انه غير مسلم ابن اخيه ولا تاركه لشىء ابدا حتى يهلك دونه ، ولذلك نراه يقول فى الابيات السابقة ، انه لما تبين عداء القوم الدفين ، وتقطيع كل الروابط والوشائج ، ونكث قومه العهود والمواثيق ، وجاهروا بالعداء والايذاء مستجيبين لاعدى الاعداء واشدهم حنقا على بنى هاشم ، بل ان عداوتهم قد دفعت بهم الى محالفـــة كل موتور ومافون ، بل الادعياء واسافل الناس ، لما وجد ذلك من قومه لم يجد مفرا من تجنيد نفسه والتسلح بشتى الأسلحة وامضاها ، واتجـــه مع اقاربه واخوته الى البيت الحرام متعلقين بأستاره ، مستقبلين لبابه حيث تعقد المواثيق والعهود فى تلك الرحاب المقدسة ، ويوفى النــــاس بعهودهم ونذورهم مما يعد تقربا الى الله تعالى ٠

ويرى غير ابن هشام ان هذه القصيدة قد قالها ابو طالب اثناء دخوله مع بنى هاشم وبنى المطلب فى الشعب (١) وتحالف قريش عليهم وكتابة الصحيفة الشهيرة التى اعلنوا فيها مقاطعتهم لبنى هاشـــم وبنى المطلب ومن والاهم حتى يسلموا محمدا ، وهذا اقرب الى روح القصيدة وما فيها من رفض قاطع لكل وسائل التهديد والمقاطعة ، وحملة ابى طالب العنيفة على من انضم الى هذا التجمع العدائى من بطـون وارهط كعبد شــمس ونوفل وسهم ومخزوم ونفيل وكلاب بن مرة مما نراه مبثوثا فى ابيات القصيدة ٠

وبعد تلك المقدمة التى اوضح فيها ابو طالب انه اتجه مع رهطـــه وقومه الى البيت الحرام آخذين بأستاره ولاجئين الى بابه ، يستعيذ بالله من الحاقدين الحاسدين فيقول :

اعـــوذ برب الناس من كل طاعـن
علينـــا بســـوء او ملـــح ببـــاطل

---

(١) راجع البداية والنهاية ٨٦/٣ ٠

ومن مُلحِقٍ فِى الدِّينِ مَا لَمْ نُحَاوِلِ

وَثَــورٍ ومَن ارْسَـى ثَبِيرًا مَكَانَـهُ

وَرَاقٍ لِيَرْقَى فِى حِــرَاءٍ وَنَــازِلِ

وَبِالبَيْتِ ، حَقّ البَيتِ مِنْ بَطْنِ مَكَّةٍ

وَبِاللهِ ، إنّ اللّهَ لَيْسَ بِغَــافِلِ (١)

ويستمر ابو طالب فى ذكـــر كثير من اماكن الحج ومشـــاعره ومقدساته ، فيذكر الحجر الاسود واستلام الناس له واحاطتهم به فى كل وقت ، ومكان قدمى ابراهيم الخليل الغائرتين فى الصخر الباقيتين على مر العصور ، ثم السعى بين الصفا والمروة وما على جانبيهما من تماثيل وصور ، ثم حجاج بيت الله الحرام الذين وفدوا اليه وفاء لنذر او اداء لفريضة راكبين او راجلين ، كما يستعيذ بالمشعر الحرام والتهيؤ للافاضة من عرفات الى المزدلفة ، ثم توقف الحجيج عندها فى عودتهم من عرفات لقضاء جزء من الليل هناك فى عبادة وجمع للحصى ، ثم الاتجاه الى منى ومنها الى رمى الجمرات فى تجمع هائل وزحف عظيم ، ثم صمود الجميع امام ذلك التجمع الهادر حتى يتمكن كل انسان من رمى جمرة العقبة الكبرى ، الى غير ذلك مما يقدسه العرب ويضعونه موضع الاجلال والتقدير الى ان يقول :

فَهَلْ بَعْدَ هَــذَا مِنْ مَعَاذٍ لِعَــائِذٍ

وَهَلْ مِنْ مُعِيذٍ يَتَّقِى اللّهَ عَاذِلُ ؟!

يُطَاعُ بِنَا العُــدَى وَوَدُّوا لَوَ انَّنَــا

تُسَــدُّ بِنَــا أَبْوَابَ تُرْكٍ وكَابُلِ (٢)

---

(١) يذكر الشاعر فى هذه الأبيات رب الناس والله ، وهذا دليل على انه كان يؤمن بالله كما كان عليه اكثر العرب فى الجاهلية ، ولكن شركهم يعود الى عبادتهم للأصنام . الكاشح : مضمر العداوة . الدين : المراد به هنـــا : السيرة ، مـــا لم نحاول : ما لم نرده ونظهر كذبه . ثور وثبير : جبلان بمكة . ليس بغافل : متعلقة محذوف تقديره : عما تعملون .

(٢) العدى : « بضم العين وفتح الدال المشددة » جمع عاد من عدا عليـــه يعدو . الترك : جبل ، وكابل : بلد بطخارستان افتتحها المسلمون فى أيام بنى مروان . والبيت الثانى استفهام توبيخى لقومه الذين ناصروا اعــداء محمد ممن يرجون له ومن معه أن يخرجوا من الحجاز الى هاتين البلدين .

ثم نجده يصرح فى ذلك التجمع العدائى معلنا [illegible] يترك مكة مع ابن اخيه ، بل سيظل مع رهطه وعشيرته يدافـــع عن محمد ويواجه معهم اى اذى يراد به ، وسيكون مع ذويه وانصاره حصنا ودرعا واقيــا حتى لو كلفهم ذلك اضرام حرب مســتعرة تستهلك الأيام والشهور ، بل والأعوام المتتالية :

كَذَبْتُـمْ وَبَيْتِ اللهِ نَتْـرُكُ مَكَّـةً
وَنَظْعَـنُ إِلاَّ أَمْـرُكُمْ فِى بَلاَبِـلِ
كَذَبْتُـمْ وَبَيْتِ اللهِ نُبْزَى مُحَمَّـدًا
وَلَمَّـا نُطَاعِـنُ دُونَـهُ وَنُنَاضِـلِ
وَنُسْـلِمُهُ حَـتَّى نُصَرَّعَ حَـوْلَهُ
وَنُذْهَـلَ عَنْ أَبَائِنَـا وَالحَـلاَئِلِ
وَيَنْهَضَ قَوْمٌ فِى الحَـدِيدِ إِلَيْكُمُو
نُهُوضَ الرَّوَايَا تَحْتَ ذَاتِ الصَّلاَصِلِ
وَحَتَّى نَرَى ذَا الضِّغْنِ يَرْكَبُ رَدْعَـهُ
مِنَ الطَّعْـنِ فِعْلَ الأَنْكَبِ المُتَحَامِلِ
وَإِنَّا لَعَمْـرُ اللَّهِ إِنْ جَـدَّ مَا أَرَى
لَتَلْتَبِسَـنَّ أَسْـيَافُنَا بِالأَمَـاثِلِ
بِكَفَّىْ فَتىً مِثْلَ الشِّهَابِ سَـمَيْدَعٍ
أَخِى ثِقَـةٍ حَامِى الحَقِيقَةِ بَاسِـلِ
شُـهُورًا وَأَيَّامًا وَحَـوْلاً مُجَـرَّمًا
عَلَيْنَا وَتَأْتِى حِجَّـةٌ بَعْدَ قَابِلِ(١)

وفى هذه الأبيات نحس بحرارة العاطفة وصدق المشاعر ، والرفض

---

(١) البلابل : الأحزان والغموم . نبزى : نغلب أى لا نغلب عليه . نصرع : نطرح على الأرض . نذهل : نشغل . وحلائل : جمع حليلة وهى الزوج . الروايا : جمع راوية وهى البعير أو الحمار أو البغل الذى يستقى عليه . ذات الصلاصل : المزادة التى ينقل فيها الماء . الصلاصل : جمع صلصلة بضم الصادين : بقية المـاء فى المزادة . يركب ردعه : يخر لوجهه على دمه ، الأنكب : المــائل الى جهة والماشى على شق . المتحامل : الجائر . الالتباس : الاختلاط : الأماثل : الاشراف . السميدع : السيد . الباسل : الشجاع . الحول المجرم : الحول الكامل . الحجة : الســنة .

الأبى لأى تهاون او تقصير فى حق محمد ﷺ ، فتسليم محمد او التخلى عنه ليس بوارد اصلا فى حسابهم ما دام فيهم عرق ينبض لأنهم سيدافعون عنه بكل ما يملكون حتى يصرعوا من حوله ، ولو شغلهم ذلك عن القيام بواجباتهم نحو آبائهم وزوجاتهم بل وادى ذلك الى هلاكهم ، وسيخفون الى ملابس الحرب يرتدونها فى استعداد تام للقاء عدوهم اذا دام ذلك العناد ، وعندها ستنال سيوفهم اشراف المعاندين المخاصمين فبينهم شباب كالشهب الراصدة فى شجاعة وبسالة تفوق الوصف سوطأة اكنافهم يحمون حقيقتهم ، وسيستمرون فى ذلك النزال مهما طال او امتد حتى وان استوفى الشهور بل والعام يتلوه الأعوام . ولذلك يروى صاحب دلائل الاعجاز ان رسول الله ﷺ لما نظر الى القتلى يوم بدر مصرعين قال لأبى بكر رضى الله عنه : « لو ان ابا طالب حي لعلم ان اسيافنا اخذت بالأماثل » وذلك لقوله :

كذبتم .. .. الى آخر الأبيات .

ويتابع ابو طالب حديثه عن الدفاع عن محمد والوقوف بجانبه فيقول : وكيف لا يكون ذلك ؟! ان خذلان محمد او التخلى عنه لا يكون الا من انسان فاحش الخلق بذىء الطبع كسول متواكل ، ومن ذا يدافع عنه ان لم ندافع عن صاحب الاخلاق والصفات الحميدة ، محمد الذى يحمى الذمار ، وهو السيد الكريم الذى يتضرع ببركته الى الله لينزل المطر وتهطل السماء ، وهو معين اليتامى وكافلهم ، وعاصم الأرامل ومعيذ المساكين ، يستغيث به الفقراء ويهرعون اليه فى نوازلهم فيحنو عليهم ويشملهم برعايته .

وَمَا تَرْكُ قَوْمٍ ـ لَا أَبَالَكَ ـ سَــيِّداً
يَحُوطُ الذِّمَــارَ غَيْرَ ذَربٍ مُوَاكِلِ
وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الغَمَــامُ بِوَجْهِــهِ
ثِمَــالُ اليَتَــامَى عِصْــمَةٌ لِلأَرَامِلِ

يَلُوذُ بِهِ الهُــلَّاكُ مِنْ آلِ هَاشِـــمٍ
فَهُمْ عِنْدَهُ فِى رَحْمَةٍ وَفَوَاضِــلِ(١)

ولعل فى قوله « وابيض يستسقى الغمام بوجهه » ما يدل على فراسة ابى طالب وتوقعاته مستقبلا لما يكون عليه امر محمد ﷺ وما له من البركات والمعجزات . يذكر صاحب السيرة الحلبية ان ابا طالب استسقى برسول الله ﷺ فيروى عن جلهمة بن عرفطة انه قدم مكة وقريش فى قحط ، فقال قائل منهم اعتمدوا اللات والعزى ، وقال آخر اعتمدوا مناة ، وقال شيخ ... كيف تصرفون عن الحق وفيكم باقية ابراهيم ، وسلالة اسماعيل عليهما السلام ... قالوا كأنك عنيت ابا طالب قال نعم . فقاموا باجمعهم واتجهوا الى داره فقالوا يا ابا طالب : اقحط الوادى ، واجدب العيال فهلم فاستسق لنا ، فخرج ابو طالب ومعه غلام كأنه شمس دجنة ـ أو شمس دجن ـ تجلت عنه سحابة قتماء ... وحوله اغيلمه ـ جمع غلام ـ فأخذه ابو طالب فألصق ظهره بالكعبة ولاذ ـ اى طاف ـ باصبعه الغلام ... وما فى السماء قزعة ـ اى قطعة من سحاب ـ فاقبل السحاب من ههنا ومن ههنا واغدودق ـ كثر ـ مطره وانفجر له الوادى واخصب النادى والبادى(٢) . وقد شهد النبى ﷺ ان هذا البيت لابى طالب ، فقد روى ان « اهل المدينة اقحطوا فأتوا رسول الله ﷺ ، فشكوا ذلك اليه ، فصعد المنبر فاستسقى ، فما لبث ان جاء من المطر ما اتاه اهل الضواحى يشكون منه الغرق ، فقال رسول الله ﷺ : اللهم حوالينا لا علينا ، فانجاب السحاب عن المدينة فصار حواليها كالاكليل ، فقال رسول الله ﷺ : لو ادرك ابو طالب هذا اليوم لسره ، فقال له بعض اصحابه : كأنك يا رسول الله اردت قوله :

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الغَمَــامُ بِوَجْهِــهِ
ثِمَــالُ اليَتَــامَى عِصْــمَةٌ لِلأَرَامِلِ

---

(١) يحوط الذمار : يرعى ما يجب على الانسان رعايته وحفظه . ذرب : بذىء فاحش . مواكل : الاتكال اى العجز عن الامور واللجوء بها الى الغير . أبيض : سيد كريم ، والعرب اذا اطلقت البياض أرادت به الكرم غالبا . ثمال اليتامى : عمادهم وملاذهم . الهلاك : الفقراء . الفواضل : جمع فاضلة وهى النعمة المتقدمة .

(٢) راجع السيرة الحلبية ١/١١١ ، ١١٢ .

قال : اجـــل(١) ...

وهكذا لو تابعنا ابيات هذه القصيدة فاننا سنجد فيهـــا النصرة الدائمة ، والتأييد المستمر لمحمد ودعوته ، وبذل كل الطاقات فى سبيل الدفاع عن صاحب الدعوة الاسلامية لا يفتر له عزم ولا يهادن خصما او تلين له قناة .

وطبيعة هذا البحث تستوجب الاكتفاء بما اشرنا مما تناولته هذه القصيدة ، ونحيل القارىء اليها فى مظانها التى اشرنا اليها ســـابقا لمزيد من القاء الأضواء على تلك المواقف الشجاعة .

وفد قريش الى ابى طالب :

فاذا ما عدنا الى ذلك الوفد الذى جمع وجـــوه قريش وصناديد الكفر ورءوس التعصب ضد محمد ودعوته الذين مشوا الى ابى طالب وهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس ، وابو سفيان ، وابو جهل واسمه عمرو بن هشام ، والوليد بن المغيرة وغيرهم ، فحـدثوه بما صـــنع ابن اخيه وسخريته من آلهتهم فاننا نجد اصرار ابى طالب الراســـخ على نصرة ابن اخيه امام كل التهديدات والمغريات . تذكر الروايات ان هؤلاء القوم مشوا الى ابى طالب – فى احدى محاولاتهـم اليائسة – بابن رجل منهم هو عمارة بن الوليد بن المغيرة ، وقالوا له يا ابا طالب: هذا عمارة بن الوليد انهد – اشد واقوى – فتى فى قريش واجملهم ، فخذه فلك عقله ونصره ، واتخذه ولدا فهو لك ، واسلم الينا ابن اخيك هذا الذى قد خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك ، وســـفه احلامنا ، فنقتله فانما هو رجل برجل . فيقول ابو طالب ساخرا من هذا التفكير : والله لبئس ما تسومونني ، اتعطونني ابنكم اغذوه لكم واعطيكم ابنى تقتلونه ! هذا والله ، لا يكون ابدا ، فقـــال المطعـــم ابن عدى بن نوفل – وكان له صديقا مصافيا – والله يا ابا طالب لقـــد انصفك اهلك ، وجهدوا على التخلص مما تكره ، فما اراك تريد ان تقبل منهم شيئا ، فقـــال ابو طالب للمطعـم : والله ما انصـــفونى

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/٣٠٠ .

ولا انصفضنى ، ولكنك قد اجمعت خذلانى ومظاهرة القوم على فا صنع ما بدالك .

فاحتدم الأمر عند ذلك ، وحميت الحرب ، وتنابذ القوم ، وبادى بعضهم بعضا فقال ابو طالب يعرض بالمطعم بن عدى ويعم من خذله من بنى عبد مناف ومن عاداه من قبائل قريش ، ويذكر ما سألوه ، وما تفرق من امرهم :

أَلاَ قُلْ لِعَمْرٍو وَالْوَلِيدِ وَمُطْعِمٍ
أَلاَ لَيْتَ حَظِّيَ مِنْ حِيَاطَتِكُمْ بَكْرُ

مِنَ الخُوْرِ حَبْحَابٌ كَثِيرٌ رُغَاؤُهُ
يَرُشُّ عَلَى السَّاقَيْنِ مِنْ بَوْلِهِ قَطْرُ

تَخَلَّفَ خَلْفَ الوِرْدِ لَيْسَ بِلاَحِقٍ
إِذَا مَا عَلاَ الفَيْفَاءَ قِيلَ لَهُ وَبْرُ

أَرَى أَخَوَيْنَا مِنْ أَبِينَا وَأُمِّنَا
إِذَا سُئِلاَ قَالاَ : إِلَى غَيْرِنَا الأَمْرُ

بَلَى لَهُمَا أَمْرٌ ، وَلَكِنْ تَجَرْجُمَا
كَمَا جُرْجِمَتْ مِنْ رَأْسِ ذِي عَلَقٍ الصَّخْرُ

أَخُصُّ خُصُوصًا عَبْدَ شَمْسٍ وَنَوْفَلاً
هُمَا نَبَذَانَا مِثْلَ مَا نُبِذَ الجَمْرُ

هُمَا أَغْمَزَا لِلْقَوْمِ فِي أَخَوَيْهِمَا
فَقَدْ أَصْبَحَا مِنْهُمْ أَكُفُّهُمَا صِفْرُ

هُمَا أَشْرَكَا فِي المَجْدِ مَنْ لاَ أَبَا لَهُ
مِنَ النَّاسِ إِلاَّ أَنْ يُرَسَّ لَهُ ذِكْرُ

وَتَيْمٌ وَمَخْزُومٌ وَزُهْرَةُ مِنْهُمُو
وَكَانُوا لَنَا مَوْلًى إِذَا بُغِيَ النَّصْرُ

فَوَاللهِ لاَ تَنْفَكُّ مِنَّا عَدَاوَةٌ
وَلاَ مِنْكُمُو مَا دَامَ مِنْ نَسْلِنَا شَفْرُ

فَقَدْ سَفِهَتْ أَحْلَامُهُمْ وَعُقُولُهُمْ
وَكَانُوا كَجَفْرٍ بِئْسَ مَا صَنَعَتْ جَفْرُ (١)

رسـالة الى النجاشى :

ولما رات قريش اصرار ابى طالب على موقفه الرافض لكل المبادرات التى يعرضونها عليه ويرون فيها - من وجهة نظرهم - حسما للخلاف ورابا للصدع تآمرت فيما بينها على من اسلم من القبائل ، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يفتنونهم فى دينهم ، ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ، وبرمضاء مكة اذا اشتد الحر . وازاء هذا الظلم الصارخ ، والبغى المستطير راى رسول الله ﷺ ان يشير على اصحابه بالخروج الى ارض الحبشة حيث بها ملك لا يظلم عنده احد حتى يجعل الله لهم مخرجا . فخرج عندئذ جماعة منهم مخافة الفتنة ، وفرارا الى الله بدينهم وكان فى مقدمة هؤلاء المهاجرين عثمان بن عفان ، وزوجه السيدة رقية بنت رسول الله ﷺ ، ثم لحق بهم - كما تذكر كتب السيرة - جعفر بن ابى طالب فى الهجرة الاولى ، فاحسن النجاشى جوارهم ، واصاب المسلمون بارض الحبشة دارا وقرارا . فلما رات قريش ذلك ارسلت بهداياها الثمينة مع رجلين من رجالهم الى النجاشى وبطارقته ليوغروا صدورهم على أولئك الفارين كى يخرجوهم من ديارهم ويفتنوهم فى دينهم ، فلما راى ابو طالب ذلك وجه هذه الرسالة الى النجاشى يحضه فيها على حسن جوار هؤلاء المسلمين والدفاع عنهم :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِى كَيْفَ فِى النَّأْىِ جَعْفَرٌ
وَعَمْرٌو وَأَعْدَاءُ العَدُوِّ الْأَقَارِبُ

---

(١) راجع الابيات وقصتها فى : السيرة النبوية لابن هشام ٢٨٦/١ ، والروض الانف ٤٧/٣ ، والبداية والنهاية ٤٨/٣ . البكر : الفتى من الابل : اى ان بكرا من الابل انفع له من خياطة قومه . الخور : الضعيف والحبحاب : الصغير . الوبر : دويبة على شكل الهرة ، يشبهه بها لصغره ويحتمل ان يكون اراد انه يصغر فى العين لعلو المكان وبعده . تجرجم : سقط وانحدر . ذو علق : جبل فى ديار بنى أسد . أغمز فلان فى فلان : اذا استضعفه وعابه وصغر شانه . الصفر : الخالى . يرس : يذكر ، يقال رسست الحديث اذا حدثت به فى خفاء . شفر : احد . جفر : ولد الشاة عظم واستكرش .

وَهَلْ نَالَتْ أفعالُ النَّجَاشِيِّ جَعْفَرًا
وَأَصْحَابَهُ ، أَوْ عَاقَ ذَلِكَ شَاغِبُ
تَعَلَّمْ ـ أبَيْتَ اللَّعْنَ ـ أَنَّكَ مَاجِدٌ
كَرِيمٌ ، فَلَا يَشْقَى لَدَيْكَ المُجَانِبُ
تَعَلَّمْ بِأَنَّ اللَّهَ زَادَكَ بَسْطَةً
وَأَسْبَابَ خَيْرٍ كُلُّهَا بِكَ لَازِبُ
وَأَنَّكَ فَيْضٌ ذُو سِجَالٍ غَزِيرَةٍ
يَنَالُ الأَعَادِيَ نفعُها وَالأَقَارِبُ (١)

ويذكر صاحب السير والمغازى ان ابا طالب وجه رسالة اخرى الى النجاشى يقول فيها :

تَعلَّم خِيَارَ النَّاسِ أَنَّ مُحَمَّدًا
وَزِيرًا لِمُوسَى وَالمَسِيحِ بْنِ مَرْيَمِ
أَتَى بِهَدْيٍ مِثْلِ الَّذِى أَتَيَا بِهِ
وَكُلٌّ بِأَمْرِ اللَّهِ يَهْدِى وَيَعْصِمِ
وَأَنَّكُمْ تَتْلُونَهُ فِى كِتَابِكُمْ
بِصِدْقِ حَدِيثٍ لَا حَدِيثَ التَّرَجُّمِ
وَأَنَّكَ مَا يَأْتِيكَ مِنَّا عِصَابَةٌ
لِفَضْلِكَ إِلَّا أُرْجِعُوا بِالتَّكَرُّمِ (٢)

ولكن قريشا تصاب بالذعر ، ويستولى الحقد الدفين على نفوسها

---

(١) راجع الأبيات وهجرة المسلمين الأولى بالتفصيل فى السيرة النبوية ٣٥٦/١ وما بعدها ، والروض الأنف ٢٤٤/٣ ، والبداية والنهاية ٧٧/٣ . ويذكر ابن هشام ان الرجلين هما : عبد الله بن أبى ربيعة ، وعمرو بن العاص ، ويذكر ابن كثير ان احدهما عمرو ، والثانى عمارة بن الوليد ، ووافقه صاحب السيرة الحلبية ٣٢٢/١ ، وابن الاثير يقول انهما عمرو ، وعبد الله بن أبى أمية لكنه يقول الصواب ما ذكره ابن هشام راجع الكامل ٥٤/٢ . المجانب : الداخل فى حمى الانسان المنضوى الى جانبه . لازب : لاصق . الفيض : الجواد . السجال : العطايا .

(٢) السير والمغازى ص ٢٢٣ .

وخاصة بعد ان يرفض النجاشى ان يسلم احدا من المسلمين ، وقال كما تذكر الروايات : « والله لا اسلمهم اليكما ولا يكادون » (١) .

مقاطعــة وحصــار :

وبعد ان اسلم عمر بن الخطاب ، وحمزة بن عبد المطلب ، واخذ الاسلام يفشو فى القبائل . عند ذلك تتجه قريش الى محاولة اخـرى يائسة فى سبيل التصدى لهذا الذى يكاد يحتويهم ، فاتفقوا فيما بينهم على ان يكتبوا صحيفة يتعاقدون فيها على بنى هاشم وبنى عبد المطلب على الا ينـكحوهم ، ولا يبيعوهم شـيئا ، ولا يبتاعوا منهم ، وكتبوا صحيفة بذلك ثم تعاهدوا وتواثقوا ، وعلقوا هـذه الصحيفة فى جوف الكعبة . قال ابن اسحق : فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشـم وبنو المطلب الى ابى طالب بن عبد المطلب فدخلوا معه فى شـعبه واجتمعوا اليه ، وخرج من بنى هاشم ابو لهب عبد العزى بن عبد المطلب عدو الله يظاهر قريشا ، فلما اجتمعت على ذلك قريش وصنعوا فيـه الذى صنعوا قال ابو طالب :

أَلاَ أَبْلِغَـا عَنِّي عَلَى ذَاتِ بَيْنِنَـا
لُؤَيًّا وَخُصَّا مِنْ لُؤَيٍّ بَنِي كَعْبِ
أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّا وَجَـدْنَا مُحَمَّـدًا
نَبِيًّا كَمُوسَى خُطَّ فِي أَوَّلِ الْكُتْبِ
وَأَنَّ عَلَيْـهِ فِي الْعِبَـادِ مَحَبَّـةً
وَلاَ حَيْفَ فِيمَنْ خَصَّهُ اللَّـهُ بِالْحُبِّ
وَأَنَّ الَّذِي أَلْصَقْتُمُـو مِنْ كِتَابِكُمْ
لَكُمْ كَائِنٌ نَحْسًـا كَرَاغِيَةِ السَّقْبِ
أَفِيقُوا ، أَفِيقُوا قَبْلَ أَنْ يُحْفَرَ الثَّرَى
وَيُصْبِحَ مَنْ لَمْ يَجْنِ ذَنْبًا كَذِي الذَّنْبِ
وَلاَ تَتْبَعُوا أَمْرَ الْوُشَـاةِ وَتَقْطَعُوا
أَوَاصِرَنَا بَعْـدَ الْمَوَدَّةِ وَالْقُرْبِ

---

(١) راجع السيرة النبوية لابن هشـام ٣٥٩/١ وراجع موقف النجاشى من المهاجرين فى البداية والنهاية ٧١/٣ ـ ٧٧ والكامل لابن الاثير ٥٤/٢ .

وَتَسْتَجْلِبُوا حَرْباً عَوَاناً وَرُبَّمَا
أَمَرَّ عَلَى مَنْ ذَاقَهُ حَلَبُ الحَرْبِ
فَلَسْنَا وَرَبِّ البَيْتِ نُسْلِمُ أَحْمَدًا
لِعَزَّاءِ مِنْ عَضِّ الزَّمَانِ وَلَا كَرْبِ
وَلَمَّا تَبِنْ مِنَّا وَمِنْكُمْ سَوَالِفٌ
وَأَيدٍ اتُرَّتْ بِالقَسَاسِيَةِ الشُّهْبِ (١)

الى آخر القصيدة التى تحدث فيها عن ضراوة تلك الحرب التى يدفع اليها اصرار قريش على عداوة محمد ومن والاه ، ثم بيان انهم اصحاب طعان ونزال لا يفتر لهم عزم ولا يفل لهم سيف ٠

بل اننا نجد لأبى طالب فى هذا التحالف العدائى وامر الصحيفة العديد من المقطوعات والابيات كعادته فى كثير من المواقف ٠ استمع اليه يخاطب بنى عمه الأدنين فى هذه الرسالة الرافضة لكل التهديدات والضغوط :

أَلَا أَبْلِغَا عَنِّى لُؤَيّاً رِسَالَةً
بِحَقٍّ ، وَمَا تُغْنِى رِسَالَةُ مُرْسِلِ
بَنِى عَمِّنَا الأَدْنَيْنَ تَيْماً نَخُصُّهُمْ
وَإِخْوَتَنَا مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ وَنَوْفَلِ
أَظَاهَرْتُمُو قَوْماً عَلَيْنَا وِلَايَةً
وَأَمْرَ غَوِىٍّ مِنْ غُوَاةٍ وَجُهَّلِ
يَقُولُونَ أَنْ قَدْ قَتَلْنَا مُحَمَّدًا
اقَرَّتْ نَوَاصِى هَاشِمٍ بِالتَّذَلُّلِ

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣٧٧/٩ ، والروض الأنف ٢٨٣/٣ ، والبداية والنهاية ٨٧/٣ ، والسير والمغازى ص ١٥٧ ، وراجع أمر الصحيفة فى الكامل لابن الأثير ٥٩/٢ وما بعدها ٠ ذات بيننا ، وذات يده ، وما كان نحوه : صفة لمحذوف مؤنث كانه يريد الحال التى هى ذات بينهم ٠ راغية الثقب : هو من الرغاء ، وهو أصوات الابل ، والثقب ولد الناقة ، وأراد به هنا ولد ناقة صالح عليه السلام التى عثرت ٠ العزاء : الشدة ٠ عض الزمان : شدته ٠ أترت (بتشديد الراء المفتوحة) : قطعت ، القساسية : السيوف منسوبة الى الجبل الموجود به المعدن الذى تصنع منه ٠

كَذَبْتُمْ وَرَبِّ الهَدَى تَدْمِى نُحُورُهَا
بِمَكَّةَ وَالرُّكْنِ العَتِيقِ المُقَبَّلِ

تَنَالُونَهُ أَوْتَصْطَلُوا دُونَ نَيْلِهِ
صَوَارِم تَفْرِى كُلَّ عُضْوٍ وَمِفْصَلِ

فَمَهْلاً وَلَمَّا تُنْتِجِ الحَرْبُ بِكْرَهَا
وَيَأْتِى تَمَامًا أَوْ بِآخِرِ مُعْجِلِ

وَأَنَّا مَتَى مَا نُمْرِهَا بِسُيُوفِنَا
تَجَلْجَلْ وَتَعْرُكْ مَنْ تَشَاءُ بِكَلْكَلِ

وَيَعْلُو رَبِيعُ الأَبْطَحَيْنِ مُحَمَّدٌ
عَلَى ذِرْوَةٍ مِنْ رَأْسِ عَنْقَاءَ عَيْكَلِ

فَإِنْ كُنْتُمُو تَرْجُونَ قَتْلَ مُحَمَّدٍ
فَرُومُوا بِمَا جَمَّعْتُمُ نَقْلَ يَذْبُلِ

فَإِنَّا سَنَمْنَعُهُ بِكُلِّ طِمِرَّةٍ
وَذِى مَيْعَةٍ نَهْدِ المَرَاكِلِ هَيْكَلِ

وَكُلِّ رُدَيْنِىٍّ ظِمَاءٍ كُعُوبُهُ
وَعَضْبٍ كَإِيمَاضِ الغَمَامَةِ مِفْصَلِ (١)

الى آخر تلك الأبيات اللائمة العاتبة على ذويه وبنى قومه تميم ، وعبد شمس وعبد نوفل وما فى انحيازهم الى الأعداء من ضياع لهيبتهم ومكانتهم المشهود بها ، ثم التهديد بالحرب المستعرة دفاعا عن محمد وحفاظا على دعوته ، اما قتله او التفريط فى الدفاع عنه فأمر مرفوض بل ويستحيل وقوعه لأنه واتباعه سيمنعونه بكل قواهم وبما يملكون من شتى الأسلحة ، وما فى بنى هاشم من ابطال مغاوير .

اشتداد الحصار وضراوته :

وتحكم قريش حصارها على بنى هاشم وبنى المطلب ثلاث سنوات، فقطعت عنهم الأسواق فلا يتركون لهم طعاما يقدم مكة ولا بيعا الا

---

(١) السير والمغازى ص ١٥٧ وما بعدها . عيكل : ظهر الكثيب ، او العظيم من الرمال . الطمرة : الفرس الجواد . نهد المراكل : تقول فرس نهد المراكل : اى واسع الجوف عظيم المراكل ، والمراكل جمع مركل وهو موضع ركل الفارس لفرسه برجله اذا حركه للركض، وراجع الابيات ايضا فى شرح نهج البلاغة ٦٢/١٤ .

بادروهم اليــه فاشتروه ، وتصبح قريش فيسـمعون من الليـل اصوات صبيان بنى هاشم الذين فى الشعب يتضاغون من الجوع ، فمنهم من يعجبه ما يلقى محمد ورهطه ومنهم من يكره ذلك ، كما اشاعوا الرعب والخوف فى النفوس على محمد ، ووضعوا اغتياله نصب اعينهم ، ولذلك خشى ابو طالب على ابن اخيه فكان اذا اخذ الناس مضاجعهم امر رسول الله ﷺ فاضطجع على فراشه حتى يرى ذلك من اراد به مكرا واغتيالا له ، فاذا نام الناس امر احد بنيه او اخوته او بنى عمه فاضطجعوا على فراش رسول الله ﷺ وامر رسول الله ان يأتى بعض فراشهم فينام عليه تضليلا للمتربصين وتمويها لمكان ايواء الرسول ﷺ . وابو طالب يتناول هذه المواقف فى ابياته التالية موضحاً أن وراء النيل من محمد حرب ضاربة تقطع فيها الارحام وتنسى الزوج زوجها لانصرافه الى القتال :

أَلاَ مَنْ لِهَمٍّ آخِـرَ اللَّيْـلِ مُعْتِـمِ
طَوَانِى وَأُخْـرَى النَّجْـمِ لَمَّـا تُقَحَّمِ

طَوَانِى وَقَـدْ نَامَتْ عُيُـونٌ كَثِيرَةٌ
وَسَائِرُ أُخْـرَى سَـاهِرٌ لَمْ يُنَـوَّمِ

لِأَحْـلاَمِ أَقْوَامٍ أَرَادُوا مُحَمَّـدًا
بِسُـوءٍ وَمَنْ لاَ يَتَّقِى الظُّلْمَ يُظْلَمِ

سَعَوْا سَفَهاً وَاقْتَادَهُمْ سُوءُ رَأْيِهِمْ
عَلَى قَائِلٍ مِنْ رَأْيِهِـمْ غَيْرِ مُحْـكَمِ

يَرْجُونَ أَنْ نَسْخَى بِقَتْـلِ مُحَمَّـدٍ
وَلَمْ تَخْتَضِبْ سُمْرُ العَوَالِى مِنَ الدَّمِ

يَرْجُـونَ مِنَّا خُطَّـةً دُونَ نَيْلِهَـا
ضِرَابٌ ، وَطَـعْنٌ بِالوَشِـيجِ المُقَوَّمِ

كَذَبْتُمْ وَبَيْتِ اللَّـهِ لاَ تَقْتُلُونَـهُ
جَمَاجِمُ تُلْقَى بِالحَطِيمِ وَزَمْـزَمِ

وَتُقْطَـعَ أَرْحَـامٌ وَتَنْسَى حَلِيـلَةٌ
حَلِيلَهَا وَتَغْشَى مَحْرَمًا بَعْدَ مَحْرَمِ

وَيَنْهَضَ قَـوْمٌ فِى الدُّرُوعِ إِلَيْكُمُو
يَذُبُّونَ عَنْ أَجْسَامِهِمْ كُلَّ مُجْرِمِ (١)

---

(١) السير والمغازى ص ١٦٠ وراجع ايضا شرح نهج البلاغة ٧١/١٤ . مع اختلاف فى رواية هذه الابيات .

انحسار الظلم ونقض الصحيفة :

وازاء هذا الحصار الشرس ، واشتداد الازمة على بنى هاشم وعبد المطلب يشعر نفر من هؤلاء القوم بضراوة هذا التعسف ووحشيته على قومهم وذويهم ، فيسارع هشام بن عمرو ابن الحارث ـ وكان ذا شرف فى قومه ويتصل نسبه ببنى هاشم ـ الى من يتوسم فيه مؤازرته على نقض تلك الصحيفة وتمزيقها ، فيذهب زهير ابن أمية بن المغيرة ـ ابن عمة الرسول عاتكة بنت عبد المطلب ـ فيقول له يا زهيرة قد رضيت ان تاكل الطعام وتلبس الثياب ، وتنكح النساء ، واخوالك حيث قد علمت ، لا يباعون ولا يبتاع منهم ، ولا ينكحون ولا ينكح اليهم ، اما انى احلف بالله ان لو كانوا اخوال ابى الحكم بن هشام ، ثم دعوته الى ما دعاك اليه منهم ، ما اجابك اليه ابدا ، قال : ويحك يا هشام ! فماذا اصنع ؟ انما انا رجل واحد ، والله لو كان معى رجل آخر لقمت فى نقضها حتى انقضها . قال : قد وجدت رجلا ؛ قال : فمن هو ؟ قال : انا . قال له زهير : ابغنا رجلا ثالثا . فذهب هشام : الى المطعم بن عدى ، وابى البخترى بن هشام ، وزمعة بن الاسود بن عبد المطلب بن اسد ، واستطاع أن يجمعهم معهما على ما اتفقا عليه (١) .

وتواعدوا على حطم الحجون ليلا باعلى مكة (٢) فاجتمعوا هنالك ، واجمعوا امرهم وتعاقدوا على القيام فى الصحيفة حتى ينقضوها ، وقال زهير انا ابدؤكم فاكون اول من يتكلم . فلما اصبحوا غدا زهير وعليه حلة فطاف بالبيت سبعا ، ثم اقبل على الناس فقال : ياهل مكة اناكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يبتاعون ولا يبتاع منهم ، والله لا اقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة ، قال ابو جهل ـ وكان فى ناحية من المسجد ـ والله لا تشق ، فقال زمعة بن الاسود : انت والله اكذب ، ما رضينا كتابتها حين كتبت ، قال ابو البخترى : صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به ، قال المطعم

---

(١) أسلم بعد ذلك هشام وزهير ، وقتل ابو البخترى وزمعة ببدر كافرين ، ومات المطعم كافرا .

(٢) الحجون : جبل بوسط مكة حاليا ، وقريب من البيت الحرام ، وعلى ربوة منه قبر السيدة خديجة مع قبور بعض صحابة رسول الله والمسلمين .

ابن عدى : صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ الى الله منها ومما كتب فيها ، وقال هشام بن عمرو نحوا من ذلك . وفى الوقت ذاته كان رسول الله ﷺ يخبر عمه ابا طالب بان ربه قد سلط الأرضة على هذه الصحيفة ، فلم تدع فيها غير اسم الله ، ونفت ما دون ذلك من الظلم والقطيعة والبهتان ، فيساله ابو طالب : أربك اخبرك بهذا ؟ فيجيبه الرسول ﷺ : نعم . فيقول له : فوالله ما يدخل عليك احد ، ثم يخرج مسرعا الى قريش فيقول : يا معشر قريش : ان ابن اخى اخبرنى بكذا وكذا ، فهلم صحيفتكم فان كان كما قال ابن اخى ، فانتهوا عن قطيعتنا وانزلوا عما فيها ، وان يكن كاذبا دفعت اليكم ابن اخى ، فقال القوم : رضينا وتعاقدوا على ذلك ، ثم نظروا ، فاذا هى كما قال الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فزادهم ذلك شرا ، ولم يثنهم عن خصومتهم، الا ان ذلك الرهط قد اسرعوا الى الصحيفة فمزقوها (١) . قال ابن اسحق : فلما مزقت الصحيفة وبطل ما فيها ، قال ابو طالب فيما كان عن امر اولئك النفر الذين قاموا فى نقضها يمدحهم :

أَلاَ هَلْ أَتَى بَحْرِيَّنَا صُنْعُ رَبِّنَا
عَلَى نَأْيِهِمْ وَاللَّهُ بِالنَّاسِ أَرْوَدُ
فَيُخْبِرَهُمْ أَنَّ الصَّحِيفَةَ مُزِّقَتْ
وَأَنَّ كُلَّ مَا لَمْ يَرْضَهُ اللَّهُ مُفْسَدُ
تَرَاوَحَهَا إِفْكٌ وَسِحْرٌ مُجَمَّعٌ
وَلَمْ يُلْفَ سِحْرٌ آخِرَ الدَّهْرِ يَصْعَدُ
تَدَاعَى لَهَا مَنْ لَيْسَ فِيهَا بِقَرْقَرٍ
فَطَائِرُهَا فِي رَأْسِهَا يَتَرَدَّدُ (٢)

. . . .

(١) راجع قصة نقض الصحيفة بالتفصيل فى البداية والنهاية ٩٥/٣ ، والروض الانف ٢٣٨/٣ . والسيرة النبوية لابن هشام /٣٦٠ وشرح نهج البلاغة ٥٩/١٤ وما بعدها ، والسيرة الحلبية ٣٢٦/١ .

(٢) بحرينا : المهاجرين الى الحبشة الذين ركبوا البحر فى طريقهم اليها فنسبهم اليه لركوبهم اياه . قرقر : الجبان ، اى ليس فيمن نقضوا الصحيفة جبان ، وقال السهيلى : ان القرقر : الذليل ، لأن القرقر : الأرض الموطوءة التى لا تمتنع . طائرها فى رأسها يتردد : اى حظها من الشر والشؤم . قال الواقدى : كان خروج بنى هاشممن الشعب فى السنة العاشرة ـ يعنى من البعثة المحمدية ـ قبل الهجرة بثلاث سنين ، وفى هذه السنة توفى ابو طالب والسيدة خديجة .

جَزَى اللهُ رهطاً بِالحَجُونِ تَجَمَّعُوا
عَلَى مَلَإٍ يَهْدِي لِحَزْمٍ وَيُرْشِدُ
قُعُوداً لدَى حطمِ الحَجُونِ كَأَنَّهُمْ
مَقَاوِلَةٌ⁽٣⁾، بَلْ هُم أَعَزُّ وَأَمْجَدُ
أَعَانَ عَلَيْهَا كُلُّ صَقْرٍ كَأَنَّهُ
إِذَا مَا مَشَى فِي رَفْرَفِ الدِّرْعِ أَحْرَدُ
جَرِيءٌ عَلَى جُلِّ الخُطُوبِ كَأَنَّهُ
شِهَابٌ بِكَفَّيْ قَابِسٍ يَتَوَقَّدُ
مِنَ الأَكْرَمِينَ مِنْ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبٍ
إِذَا سِيمَ خَسْفاً وَجْهُهُ يَتَرَبَّدُ
طَوِيلُ النِّجَادِ خَارِجٌ نِصْفُ سَاقِهِ
عَلَى وَجْهِهِ يُسْقَى الغَمَامُ وَيُسْعِدُ
عَظِيمُ الرَّمَادِ سَيِّدٌ وَابْنُ سَيِّدٍ
يَحُضُّ عَلَى مَقْرَى الضُّيُوفِ وَيَحْشُدُ(١)

الى آخر القصيدة التى اخترنا منها هذه الأبيات والتى بلغت ستة وعشرين بيتاً كما ذكرها ابن هشام فى سيرته ، ونقلها عنه صاحب الروض الانف وغيره .

نصرة بنى هاشم والمطلب وعداوة ابى لهب :

ذكرنا ان قريشا كتبت الصحيفة العدائية وعلقوها فى الكعبة لتكون وثيقة معلنة لكل القرشيين ، فلما راى ابو طالب ذلك التجمع العدائى دعا بنى هاشم وبنى المطلب الى منع رسول الله ﷺ والقيام

---

(٣) مقاولة : جمع مقول ، وهو ملك اليمن . رفرف الدرع : فضولها . احرد : الذى فى مشيه تثاقل ، والمراد هنا بطىء المشى لثقل الدرع الذى عليه . القابس : طالب النار . خارج نصف ساقه : وصف بالاستعداد حيث كنى عنه بوصول الثياب الى انصاف السوق وذلك دليل على النشاط ، فاذا نزل الثوب الى الأرض كان علامة الرفه والخمول . راجع القصيدة فى : الروض الانف ٣٤١/٣ ، والكامل لابن الاثير ٦٢/٢ ، والبداية والنهاية ٩٧/٣ ، وما أورده منها صاحب السير والمغازى ص ١٦٧ .

دونه (١) ، فاجتمعوا اليه وقاموا معه ، واجابوه الى ما دعاهم اليه من منع رسول الله ﷺ الا ابو لهب فقد اخذ يحرض بنى هاشم ضد هذه الدعوة ويحذرهم من الاستجابة اليها .

وقر ابو طالب بهذا العمل عينا ودعاهم الى الدخول فى الشعب . ثم جعل يمدحهم ويذكر قديمهم ويبين فضل رسول الله ﷺ فيهم ومكانه منهم ليشد لهم رايهم فيه ، وليحدبوا معه على امرهم فقال :

إذَا اجْتَمَعَتْ يَوْمًا قُرَيْشٌ لِمَفْخَرٍ
فَعَبْدُ مَنَافٍ سِرُّهَا وَصَمِيمُهَا
وَإنْ حُصِّلَتْ أشْرَافُ عَبْدِ مَنَافِهَا
فَفِى هَاشِمٍ أشْرَافُهَا وَقَدِيمُهَا
وَإنْ فَخَرَتْ يَوْمًا فَإنَّ مُحَمَّدًا
هُوَ المُصْطَفَى مِنْ سِرِّهَا وَكَرِيمُهَا
تَدَاعَتْ قُرَيْشٌ غَثُّهَا وَسَمِينُهَا
عَلَيْنَا فَلَمْ تَظْفَرْ وَطَاشَتْ حُلُومُهَا
وَكُنَّا قَدِيمًا لاَ نُقِرُّ ظُلاَمَةً
إذَا مَا ثَنَوْا صُعْرَ الخُدُودِ نُقِيمُهَا
وَنَحْمِى حِمَاهَا كُلَّ يَوْمِ كَرِيهَةٍ
وَنَضْرِبُ عَنْ أحْجَارِهَا مَنْ يَرُومُهَا
بِنَا انْتَعَشَ العُودُ الذَّوَاءُ وَإنَّمَا
بِأكْنَافِنَا تَنْدَى وَتَنْمَى أُرُومُهَا (٢)

---

(١) راجع ما كان من أبى طالب مع قومه وموقفه من ابن أخيه بالتفصيل فى : البداية والنهاية ٤٢/٣ ، ص ٤٧ ، ٤٨ . والروض الانف ٤٤/٣ وما بعدها .

(٢) راجع الأبيات فى : السيرة النبوية ٢٨٨/١ ، والكامل لابن الأثير ٤٤/٢ ، والبداية والنهاية ٤٩/٣ ، السير والمغازى ص ١٤٨ . سرها وصميمها : أى خالصها وكريمتها . ثنوا : عطفوا . نضرب عن أحجارها : ندفع عن حصونها ومعاقلها . العود الذواء : هو الذى جفت رطوبته ولم يصل الى حد التيبس . عبد شمس ونوفل : بطنان من مناف بن قصى ، وكان له اربعة بنين : هاشم ، والمطلب ، وعبد شمس ونوفل ، فبنو المطلب كانوا مصافين لبنى هاشم ودخلوا معهم فى الشعب ، أما بنو عبد شمس ونوفل فقد كانوا مخالفين لهم مشايعين لسائر قبائل قريش عليهم .

اما ابو لهب فقد ظاهر القوم على اخيه وابن اخيه ، ولذلك قال ابو طالب يهجوه معرضا بأمه « سماحيج » :

مُسْتَعْرِضُ الأَقْوَامِ يُخْبِرُهُمْ
عُذْرِى وَمَا إِنْ جِئْتُ مِنْ عُذْرِ
فَاجْعَلْ فُلاَنَةَ وَابْنَهَا عِوَضًا
لِكَرَائِمِ الأَكْفَاءِ وَالصِّهْرِ
وَاسْمَعْ نَوَادِرَ مِنْ حَدِيثٍ صَادِقٍ
تَهْوِينَ مِثْلَ جَنَادِلِ الصَّخْرِ
إِنَّا بَنُو أُمِّ الزُّبَيْرِ وَفَحْلِهَا
حَمَلَتْ بِنَا لِلطَّيِّبِ وَالطُّهْرِ
فَحَرَمْتَ مِنَّا صَاحِبًا وَمُؤَازِرًا
وَأَخًا عَلَى السَّرَّاءِ وَالضُّرِّ (١)

واخذ ابو طالب يرسل الاشعار الى اخيه ابى لهب يحثه على مؤازرته ، ويناشده نصرته ، من ذلك القطعة التى اولها :

حَدِيثٌ عَنْ أَبِي لَهَبٍ أَتَانَا
وَكَانَفَهُ عَلَى ذَاكُمْ رِجَالُ (٢)

ومنها قطعة ثانية اولها :

أَظَنَنْتَ عَنِّى قَدْ خَذَلْتَ وَغَالَنِى
مِنْكَ الغَوَائِلُ بعدَ شَيْبِ المَكْبِرِ؟(٣)

ومنها هذه الفائية التى يلومه فيها على انحيازه الى خصومه وخصوم ابن اخيه مستحثا له على نصرته والوقوف بجانبه :

---

(١) راجع الابيات فى السير والمغازى ص ١٥٠ ، وقوله : انا بنو أم الزبير : يشير به الى انه هو وعبد الله والد الرسول ﷺ والزبير من أم هى فاطمة بنت عمرو ابن عائذ الشريفة العفيفة .

(٢،٣) راجع شرح نهج البلاغة ٦٤/١٤ .

عَجِبْتُ لِحِلْمٍ يَا بْنَ شَيْبَةَ عَازِبٍ
وَأَحْلَامِ أَقْوَامٍ لَدَيْكَ سِخَافِ
يَقُولُونَ شَايِعْ مَنْ أَرَادَ مُحَمَّدًا
بِظُلْمٍ وَقُمْ فِي أَمْرِهِ بِخِلَافِ
أَضَامِيمُ إِمَّا حَاسِدٌ ذُو خِيَانَةٍ
وَإِمَّا قَرِيبٌ عَنْكَ غَيْرُ مُصَافِ
فَلَا تَرْكَبَنَّ الدَّهْرَ مِنْهُ ذِمَامَةً
وَأَنْتَ امْرُؤٌ مِنْ خَيْرِ عَبْدِ مَنَافِ
وَلَا تَتْرُكَنْهُ مَا حَيِيتَ لِمُعْظَمٍ
وَكُنْ رَجُلًا ذَا نَجْدَةٍ وَعَفَافِ
يَذُودُ العِدَا عَنْ ذِرْوَةٍ هَاشِمِيَّةٍ
أَلَافُهُمُ فِي النَّاسِ خَيْرُ إِلَافِ
فَإِنَّ لَهُ قُرْبَى لَدَيْكَ قَرِيبَةً
وَلَيْسَ بِذِي حِلْفٍ وَلَا بِمُضَافِ
وَلَكِنَّهُ مِنْ هَاشِمٍ ذِي صَمِيمِهَا
إِلَى أَبْحُرٍ فَوْقَ البُحُورِ طَوَافِ
وَزَاحِمْ جَمِيعَ النَّاسِ عَنْهُ وَكُنْ لَهُ
وَزِيرًا عَلَى الأَعْدَاءِ غَيْرَ مُجَافِ
وَإِنْ غَضِبَتْ مِنْهُ قُرَيْشٌ فَقُلْ لَهَا
بَنِي عَمِّنَا مَا قَوْمُكُمْ بِضِعَافِ
وَمَا بَالُكُمْ تَغْشَوْنَ مِنْهُ ظُلَامَةً
وَمَا بَالُ أَحْقَادٍ هُنَاكَ خَوَافِي
فَمَا قَوْمُنَا بِالقَوْمِ يَخْشَوْنَ ظُلْمَنَا
وَمَا نَحْنُ فِيمَا سَاءَهُمْ بِخِفَافِ
وَلَكِنَّنَا أَهْلُ الحَفَائِظِ وَالنُّهَى
وَعِزٌّ بِبَطْحَاءِ المَشَاعِرِ وَافِ(١)

تحذيرات ومواجهة للعدوان :

ولما وجد ابو طالب اصرار قومه على معاداته وايذاءهم المستمر لابن اخيه ومن اتبعه ، واجتماع قريش على مناهضته اخذ يوجه

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٤/٥٧ ، ٥٨ .

المحاذير والنذر الى هؤلاء الباغين المعتدين موضحا للجميع انه لن يعادى احدا ، ولن يناهض،رايا لكنه سيظل على نصرة ابن اخيه ولن يخذله ابدا ، ، بل انه سيسعى الى صد كل عدوان يرى فيه ظلما وتجاوزا :

مَا إِنْ جَنَيْنَا مِنْ قُرَيْشٍ عَظِيمَةً
سِوَى أَنْ مَنَعْنَا خَيْرَ مَنْ وَطِئَ التُّرْبَا
أَخَا ثِقَةٍ لِلنَّائِبَاتِ مُوَرًّا كَرِيمَا
ثَنَاهُ لاَ لَئِيمَا وَلاَ ذَرِبَا
فَيَا أَخَوَيْنَا عَبْدَ شَمْسٍ وَنَوْفَلاَ
فَإِيَّاكُمَا أَنْ تُسْعِرَا بَيْنَنَا حَرْبَاَ
وَأَنْ تُصْبِحُوا مِنْ بَعْدِ وُدٍّ وَأُلْفَةٍ
أَحَابِيشَ فِيهَا كُلُّكُمْ يَشْتَكِى النَّكْبَا
أَلَمْ تَعْلَمُوا فِى حَرْبِ دَاحِسٍ
وَرَهْطِ أَبِى يَكْسُوم إِذْ مَلَئُوا الشِّعْبَا
فَوَاللَّهِ لَوْلاَ اللَّهُ لاَ شَئَ غَيْرَهُ
لأَصْبَحْتُمْ لاَ تَمْلِكُونَ لَنَا سِرْبَاَ (٢)

كما نراه يقول فى قصيدة اخرىٰ :

فَلَا تَسْفِهُوا أَحْلَامَكُمْ فِى مُحَمَّدٍ
وَلاَ تَتْبَعُوا أَمْرَ الغُوَاةِ الأَشَائِمِ
تَمَنَّيْتُمْ أَنْ تَقْتُلُوهُ وَإِنَّمَا
أَمَانِيكُمْ هَذِى كَأَحْلَامِ نَائِمِ
وَإِنَّكُمْ وَاللَّهِ لاَ تَقْتُلُونَهُ
وَلَمَّا تَرَوْا قَطْفَ اللِّحَى وَالجَمَاجِمِ (٣)

وتذكر الأخبار ان ابا جهل جاء مرة الى النبى ﷺ وهو ساجد وبيده حجر يريد ان يرضخ به راسه فلصق الحجر بكفه فلم يستطيع ما اراد فقال ابو طالب فى ذلك :

---

(١) راجع الابيات فى السير والمغازى ص ١٥٠ .
(٢) شرح نهج البلاغة ١٤/٧٣ .

أفيقوا بَنِى غَالِبٍ وَانْتَهُوا
عَنِ البَغْىِ فِى بَعْضِ ذَا المَنْطِقِ
وَإِلاَّ فَإِنِّى إِذًا خَائِفٌ
بَوَائِقَ فِى دَارِكُمْ تَلْتَقِى
تَكُونُ لِغَابِرِكُمْ عِبْرَةً
وَرَبِّ المَغَارِبِ وَالمَشْرِقِ
كَمَا ذَاقَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ
ثَمُودُ وَعَادٌ فَمَنْ ذَا بَقِى
غَدَاةَ أتَاهُمْ بِهَا صَرْصَرًا
وَنَاقَةَ ذِى العَرْشِ إِذْ تَسْتَقِى
وَأَعْجَبَ مِنْ ذَاكَ مِنْ أَمْرِكُمْ
عَجَائِبُ فِى الحَجَرِ المُلْصَقِ
بِكَفِّ الَّذِى قَامَ مِنْ حِينِهِ
إِلَى الصَّابِرِ الصَّادِقِ المُتَّقِى
فَأَيْبَسَهُ اللَّهُ فِى كَفِّهِ
عَلَى رَغْمِ ذَا الخَائِنِ الأَحْمَقِ
أُحَيْمِقِ مَخْزُومِكُمْ إِذْ غَوَى
بَغْىَ الغُوَاةِ وَلَمْ يَصْدُقِ (١)

ومع هذه المواقف الشجاعة فى نصرة رسول الله ﷺ نجد ابا طالب يهاجم خصوم محمد ويدافع عن اتباعه ، ويدرا عنهم كثيرا من المخاطر والمتاعب ويجير من استجار به ٠ يروى ابن اسحق ان بعض المهاجرين الى الحبشة قد عادوا الى مكة بعد ان سمعوا ـ اخبارا غير صحيحة ـ بان اهل مكة قد اسلموا ، فلما دخلوا مكة ووجدوا انهم قد اخطئوا فى العودة الى مكة اخذوا يستعدون للرجوع الى موطن هجرتهم مرة اخرى الا ان كفار قريش انتهزوا فرصة عودتهم واخذوا فى تعذيبهم والالحاح على النيل منهم ، كما منعوا بعضهم من العودة الى الحبشة وحبسوهم فى مكة ليسلطوا عليهم عذابهم ، فلجأ بعضهم الى الدخول فى جوار من

(١) يذكر ابن اسحق ان عمر بن الخطاب قال هذه الابيات فيما يزعمون بعد اسلامه يذكر ما رات قريش من العبرة فيما كان ابو جهل هم به من رسول الله ﷺ ، وقائل يقول قالها أبو طالب ، فالله اعلم بمن قالها ٠ راجع السير والمغازى ص ٢١١ ٠ ويذكر صاحب شرح نهج البلاغة انها لابى طالب راجع ١٤ / ٧٤ ٠

يحميـه ويدفع الأذى عنـه ، ويجد بجواره الأمن من إعتـداءات كفار قريش . وكان أبو سلمة بن عبد الأسد ـ ابن عمة الرسول ـ ممن دخل فى فى جوار خـاله ابى طالب (١) فلمـا علمت قريش بذلك مشى الى ابى طالب رجال من بنى مخزوم(٢) فقالوا يا ابا طالب : لقد منعت منا ابن أخيك محمدا ، فمالك ولصاحبنا تمنعه منا ؟! . قال ابو طالب : انه استجار بى وهو ابن اختى وان انا لم امنـع ابن اختى لم امنـع ابن اخى ، فارتفعت اصواته واصواتهم ، ولأول مرة وآخر مرة نجـد ابا لهب يقف مع اخيه فى وجه خصومه حيث يقف قائلا : يا معشر قريش : والله لقد اكثرتم على هذا الشيخ لا تزالون تتواثبون عليه فى جواره من بين قومه ! أما والله لتنتهن او لنقو من معه فيما قام فيه حتى يبـلغ ما اراد . قالوا : بل ننصرف عما تريد يا ابا عتبة (٣) .

وبعد . فان ابا طالب لم يضن بعطاء ولم يبخل بحماية فى سبيل نصرة محمد واتباعه بل لقد اسهم بجهوده الصادقة وفى ميادين القول خاصة فى حماية محمد والدفاع عنه امام عتاة الكفر وصناديد الشرك ، ومن يرجع الى كتب السيرة والتاريخ الاسلامى وبعض كتب الأدب واللغة لن يتمالك نفسه من ابداء العجب والدهشة امام ذلك الكم الهـائل من الاشعار التى رافقت مسيرة الدعوة الاسـلامية والتى حملت احاسيس ومشاعر ابى طالب الصادقة نحو ابن اخيه وتعاطفه الكامل مع دعـوة الحق والخير والرشاد . وما عرضنا له من شعر انما هو غيض من فيض قصدنا به القاء الضوء على جهود تلك الشخصية الفذة التى سجل التاريخ لها صفحات مشرقة من الكفاح فى سبيل الدعوة المحمدية وان لم تنعم بهدى الاسلام وفضله ، ولعل ذلك من خاصية النبوة التى يقيض الله لها من أعدائها من يتصدى للدفاع عنها ويوقع فى القلوب والنفوس محبـة صاحبها وانزاله المنزلة الرفيعة .

ولعل في اعتزاز رسولنا الأعظم بشعر ابى طالب وتذكره لجانب

---

(١) أمه برة بنت عبد المطلب .

(٢) لما بين ابى طالب وبينهم من نسب فان أم أبى طالب مخزومية .

(٣) راجع : البداية والنهاية ٩١/٣ ، والروض الانف ٣٣٣/٣ ، والكامل لابن الأثير ٥٢/٢ ، والسيرة الحلبية ٣١٣/١ ، وشرح نهج البلاغة ٥٦/١٤ ، والسـير والمغازى ص ١٦٣ .

منه فى بعض المواقف الاسلامية التى اقر الله بها عينه ، كقوله عليه الصلاة والسلام لأبى بكر عندما نظر الى القتلى يوم بدر مصرعين : « لو ان ابا طالب حى لعلم ان اسيافنا اخذت بالأماثل » مشيرا بذلك الى ما جاء فى مطولته :

« وانا لعمر الله ان جد ما ارى
لتلتبسن اسيافنا بالأماثل »

وكذلك ما كان منه صلوات الله وسلامه عليه فى موقف الاستسقاء الذى افاء الله فيه على القوم بالخير فقال قوله المأثور : « لو ادرك ابو طالب هذا اليوم لسره » مستعيدا بذلك قوله العظيم : « وابيض يستسقى الغمام بوجهه .. »(١) لعل فى ذلك وغيره ما يؤكد اهمية جهود ابى طالب الدعوية الصادقة والتى نبعت من مشاعر فياضة فانثالت قريضا عذبا ، واهازيج هادرة ، وانغاما مهدهدة تحدو ركب الدعوة الناشئة ، وتدفع بالأمل الى معتنقيها وتخفف عنهم ما يلاقون من عنت قومهم واضطهادهم ، حتى خطت خطواتها الموفقة وانطلقت تحطم كل العوائق والسدود ، فكان ابو طالب بهذا العطاء الفريد ، والكفاح المشهود اسبق الشعراء المناضلين فى سبيل الدعوة المحمدية ، وكان سيفه الذى شهره فى وجه اعداء محمد واتباعه امضى السيوف واشدها ايلاما على نفوس المعاندين الضالين ، وفى الوقت نفسه كان بردا وسلاما على قلوب الموحدين المؤمنين ، ومع ايماننا الراسخ بقول الله تعالى : « ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين »(٢) فان ما قدمه ابو طالب من عون صادق ونصرة دائمة لصاحب الدعوة الاسلامية واتباعه يدفع بنا دفعا الى ان نرجو له مع رسولنا الأعظم الخير وذلك حينما سأله العباس بن عبد المطلب ـ وهو بالمدينة ـ عما يرجوه لأبى طالب فقال : « ارجو له كل خير من الله عز وجل » (٣) لما له من اياد بيض على الدعوة الاسلامية كان احد جوانبها ما قام به من حياطة ومنعة للرسول ﷺ ، دفعت عنه اذى المعاندين ، وحطمت كيد المعتدين طوال حياته ، فلما توفى سارعوا الى ايذائه والنيل منه . يروى عن

---

(١) راجع هذين الموقفين فى ص ٢٠ ، ٢١ من هذا البحث . وراجع ايضا روايات اخرى لهذين الموقفين فى شرح نهج البلاغة ٦٢/١٤ ، ٨١ .

(٢) سورة المائدة الآية (٥) .

(٣) راجع شرح نهج البلاغة ٦٨/١٤ .

على بن ابى طالب انه قال : « اجتمعت قريش بعد وفاة ابى طالب بثلاث فارادوا قتل رسول الله ﷺ فاقبل هذا يجاه ، وهذا يتلتله ، فاستغاث النبى ﷺ فلم يغثه احد إلا ابو بكر وله ضفيرتان ، فاقبل يجأ ذا ويتلتل ذا ، ويقول باعلى صوته : ويلكم ، « اتقتلون رجلا ان يقول ربى الله » ، والله انه لرسول الله ، فقطعت احدى ضفيرتى ابى بكر يومئذ ، فقال على : والله ليوم ابى بكر خير من مؤمن آل فرعون ، ذاك رجل كتم ايمانه فاثنى الله عليه فى كتابه ، وهذا ابو بكر اظهر ايمانه وبذل ماله ودمه لله عز وجل » (١) ولذا نرى رسولنا الكريم يسجل تلك اليد الكريمة لعمه ابى طالب فيقول : « ما نالت قريش منى شيئا اكرهه حتى مات ابو طالب » (٢) وحقا ، لقد كان ابو طالب الصخرة التى تحطمت عليها كثير من آمال المعاندين المتكبرين ، فقد كان حدبا على ابن اخيه ، شغوفا به ، لم يسمح لاحد ان ينال منه او يلحق به اذى ، ولم يضن بشىء فى سبيل الحفاظ عليه والتمكين لامره حتى لو كان ذلك هو نفسه وحياته :

لَا يَمْنَعَنَّكَ مِنْ حَقٍّ تَقُومُ بِهِ
أَيْدٍ تَصُولُ وَلَا سَلْقٍ بِأَصْوَاتِ
فَإِنَّ كَفَّكَ كَفِّيَ إِنْ بُلِيتَ بِهِمْ
وَدُونَ نَفْسِكَ نَفْسِي فِي الْمُلِمَّاتِ (٣)

هذه صفحة من صفحات اباء ابى طالب وشممه ورعايته البارة بابن اخيه ، وهذه شاعريته الفذة التى اتخذها سبيلا للزياد عنه ، ودفع الاذى عنه ، نافح بها وناضل نضالا كريما ، حتى كانت هذه الشاعرية من امضى اسلحة المواجهة فى سبيل التمكين لرسالة محمد الخالدة مما نؤكد به ان ابا طالب كان - بحق - شاعر الدعوة المحمدية الاول .

والحمد لله على ما وفق واعان ، وصلى الله على امام الهدى وموئل النور والعرفان .

أ٠د٠/حسن احمد الكبير

---

(١) خرجه الترمذى فى « نوادر الاصول » من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن بن ابى طالب . راجع نهاية الارب ٢٠٧/١٦ .

(٢) راجع السيرة الحلبية ٢٣٦/١ ، والروض الانف ١٤/٤ .

(٣) شرح نهج البلاغة ٧٨/١٤ .

مصادر البحث ومراجعه :

١ ـ البداية والنهاية . لأبى الفداء الحافظ بن كثير ـ الجزء الثالث ـ دار الفكر ببيروت ـ الطبعة الثانية سنة ١٩٧٨ م .

٢ ـ الروض الأنف . لأبى القاسم عبد الرحمن السهيلى . تحقيق وتعليق وشرح عبد الرحمن الوكيل ـ الجزء ٣ ، ٤ دار النصر للطباعة سنة ١٩٦٩ م .

٣ ـ السيرة الحلبية : لعلى بن برهان الدين الحلبى ـ الجزء الأول ـ مطبعة الحلبى بمصر .

٤ ـ السيرة النبوية . لابن هشام ـ الجزء الأول ـ دار احياء التراث العربى . بيروت . لبنان ـ تحقيق مصطفى السقا وآخرين ١٩٣٦ م

٥ ـ السير والمغازى . لمحمد بن اسحق . تحقيق سهيل ذكار ـ دار الفكر ببيروت ـ الطبعة الأولى ١٩٧٨ .

٦ ـ شرح نهج البلاغة . لابن أبى الحديد ـ الجزء ١٤ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ـ الحلبى وشركاه ـ الطبعة الثانية ١٩٦٧ م .

٧ ـ الكامل فى التاريخ . لابن الأثير ـ الجزء الثانى ـ دار الفكر ببيروت ١٩٧٨ م .

٨ ـ نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى ـ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ـ الجزء السادس عشر .

الفصل الخامس
الأدب الإسلامى

تمهيد :

عندما أشرقت شمس الإسلام وأخذ نورها يسرى فـى أراضـى الجزيرة العربية شيئا فشيئا حتى عمها ذلك النور الربانى ، ومنها فاض على كل بقاع الدنيا ، بعد ذلك بدأ الإسلام يرسـم المـنهج الصـحيح للعرب وللمسلمين ولحياتهم ، فوجههم إلى مثل فاضلة، وقـيم جديـدة تخالف معهودهم، فدعا إلى الإيمان بدين واحد، ورب واحد لا شـريك له، ونبذ عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، فكان ذلك المنهج الجديد انقلابا ضخما هدهد حياة العرب الآسنة، ومؤثرا عميقـا فـى قـواهم الخارجية والداخلية، صبغ الحياة بألوانه الزاهية، وتشكلت به مفاهيمهم وأفكارهم وتفاعلت به، ولأن الأدب فى كل زمـان ومكـان يخضـع للمؤثرات والأحداث التى تزدحم بها الحياة التى يعيش فيها بحيث يعـد صورة صادقة لتلك الحياة، ووثيقة مهمة يقف عليها الدارسون لـلأدب فى فترات لاحقة، فإننا وجدنا الأدب فى فترة البعثة المحمدية والخلافة الراشدة والتي امتدت حوالى أربعين سنة ، تبدأ بالهجرة النبوية تقريبـا وتنتهى بقيام الدولة الأموية سنة ٤١هـ ، وجدناه صورة تزهى بكـل المتغيرات التى طرأت على حياة الإنسان العربى بمقدم الدين السماوى الجديد ، وهذه الفترة على قصرها الزمنى غنية بالأحداث والمؤثرات ، بل إنها أغنى فترات التاريخ الإنسانى بذلك، فقد غيرت مسيرة الـزمن وصححت قيم الإنسان، وأعلت وجوده ووظيفته فى الحياة ونجحت فى

كل ذلك بصورة لم يحدث لها نظير فى الدنيا كلها، وتركت لنا تراثـا ضخما فى الأدب وبخاصة الشعر الذى وشى بالحياة الجديدة وصورها الندية الزاهية ٠

وقد تعارف الباحثون والمؤرخون على أن يطلقوا على أدب هـذه الفترة ـ شعره ونثره ـ الأدب الإسلامى أو الأدب فى عصر صـدر الإسلام ٠

وعكف الباحثون والمتخصصون على دراسة أدب هـذه الفتـرة وبيان خصائص هذا النتاج الأدبى ، وموضوعاته ، وأغراضه، وما فيه من صور فنية وأدبية، وغير ذلك مما يعكس خصـائص هـذا الأدب ويبرز جوانبه الفنية وتأثره بالإسلام٠

ونحن فى هذه الدراسة لا نقصد هذه الفترة بذاتها وإنما نعنى أمرا آخر، وهو التعرف على حركة الأدب المتأثرة بروح الإسـلام، بـدءا بشعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، حتى عصرنا الحاضـر، وهـذا الاتجاه يعد اتجاها جديدا فى العصر الحديث حيث بدأ الاهتمام بدراسة الأدب الإسلامى بمحاولات تكشف جوانب هذا الأدب قديمه وحديثـه، وإخراجه وعرضه للدراسة تمهيدا لتحديد خصائصه ومميزاته، ومـع إشراقة القرن الخامس الهجرى أخذ الاهتمام بالأدب الإسلامى فعقـدت الندوات ودار البحث فيها حول أهمية الأدب الإسلامى وصدرت عنهـا توصيات علمية هامة، وبدأ التنسيق بين المؤسسات العلمية الإسـلامية فى دول العالم الإسلامى وفى غيرها من دول العـالم، كـبلاد الهنـد

لتشجيع الدارسين والباحثين على إبراز تصوراتهم نحو تأسيس وتأصيل مذهب إسلامى فى الأدب والنقد ، ورسم المعالم الصحيحة للأدب الإسلامى، وتلا ذلك إنشاء رابطة ترعى هذا الاتجاه وتنميه وتتابع مسيرته باسم: "رابطة الأدب الإسلامى العالمية" سنة ١٤٠٥هـ (١٩٨٤م) ومقرها الرياض بالمملكة العربية السعودية ثم أنشأت فروعا لها فى مصر والهند وباكستان وغيرها من الدول، ونشطت فى رسالتها فأصدرت مجلة فصلية باسمها تحمل اسم : "مجلة الأدب الإسلامى" وتضم البحوث والمقالات والمسابقات والندوات والدراسات، وترعى مسيرة هذا الأدب ، وقد صدر منها حتى الآن أربعة وأربعون عددا٠

وبفضل هذا النشاط المحمود أصبح الأدب الإسلامى فنا قائما بذاته، له خصائصه ومعالمه ومبدعوه وإصداراته، ومادة خصبة تثرى العمل الأدبى وتوجهه الوجهة الصحيحة التى توصله، وتفسح الطريق إلى أدب إسلامى رفيع، نصحح به ما تركته الآداب الغثة الهزيلة والأدب الأجنبى الهابط فى نفوس المسلمين، على امتداد الوطن الإسلامى من قيم وآداب لا يقرها الإسلام وتأباها عزة المسلم وشرفه٠

تعريف الأدب الإسلامى :

اختلف الباحثون وأساتذة الأدب والنقد حول مفهوم الأدب الإسلامى ،ولم يتفقوا على مفهوم محدد له وإن كنا نجد بعض الباحثين قد اقتربوا من بعضهم فى تحديد تعريف له ، فالشيخ محمد قطب يعرفه بأنه " التعبير الجميل عن الكون والحياة والإنسان" من خلال تصور

الإسلام للكون والحياة والإنسان، ثم يوضح ذلك فيقول : "هو الفن الذى يهيئ اللقاء الكامل بين "الجمال" و"الحق" فالجمال حقيقة فى هذا الكون، والحق هو ذروة الجمال ، ومن هنا يلتقيان فى القمة التى تلتقى عندها كل حقائق الوجود[١] ويعلق الدكتور محمد مريسى الحارثى فى تقديمه لكتاب نحو أدب إسلامى على هذا التعريف فيقول : "وهذا المفهوم فيه مسحة توجيهية حاولت أن توجه الفن وجهة إسلامية صحيحة"[٢] أما الأستاذ حسن حبنكة فيعرفه بأنه : "التعبير بأى فن من فنون الكلام الجميل المؤثر ، بشرط أن يكون ذا مضمون لا يتنافى مع ما أمر به الدين الإسلامى أو نهى عنه أو أذن به"[٣] . وقد دارت مناقشات حول هذا التعريف فى الندوة العالمية للأدب الإسلامى التى انعقدت فى الهند فى جمادى الآخرة سنة ١٤٠١هـ، ثم فى ندوة الحوار حول الأدب الإسلامى ومناهج دراسته، التى انعقدت فى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة بتاريخ ٥ ـ ٩ من رجب سنة ١٤٠٢هـ ثم فى جامعة محمد ابن سعود الإسلامية بعد ذلك، وكانت اتجاهات فريق من المشاركين فى هذه الندوات تميل إلى حصر الأدب الإسلامى "بما فيه من دعوة إلى فكرة أو سلوك أو خلق أو تصور مما يدعو إليه الإسلام أو يحث عليه أو يرغب فيه"، ثم انعقد المؤتمر العالمى لرابطة الأدب الإسلامى

---

(١) منهج الفن الإسلامى صـ٦ للشيخ محمد قطب دار الشروق ـ بيروت ـ ط٦

(٢) من مقدمة كتاب نحو أدب إسلامى صـ١٠ إصدار قسم الإعلام الإسلامى بكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى .

(٣) من محاضرة له فى جامعة أم القرى بمكة المكرمة بعنوان : قضايا حول الشعر العربى والأدب الإسلامى فى ٢٦ / ٦ / ١٤٠٧ .

العالمية بلكنهو بالهند وناقش موضوع الأدب الإسلامى مرة رابعة وانتهى إلى التعريف التالى : "الأدب الإسلامى هو التعبير الفنى الهادف المعبر عن الحياة والكون والإنسان وفق عقيدة أهل السنة والجماعة" وهذا التعريف متفق فى مضمونه مع التعريف السابق للشيخ حسن حبنكة، فهما يصبان فى مجرى واحد لأن الإسلام بوجه عام يتناول العقائد والأحكام والشرائع العلمية، وهذا ما أراده وقصده التعريف الاخير عندما جعل الأدب الإسلامى يعبر عن الحياة والكون والإنسان وفق عقيدة أهل السنة والجماعة، من حيث العقائد والأحكام والشرائع العملية ، وهذا أيضا ما تغياه تعريف الشيخ حسن حبنكة ، فقد قصد بقوله عن الأدب الإسلامى ــ كما جاء فى تعليقه على التعريف السابق ــ : أن يكون ذا مضمون لا يتنافى مع ما أمر به الإسلام أو نهى عنه أو أذن به" قصد "ما يشمل العقائد والأحكام والأخلاق وأنواع السلوك الظاهر والباطن وسائر المفاهيم الإسلامية"[1]، وهذا ما يجعلنا لا نفرق كثيرا بين التعريفين الأخيرين، حيث عرف كل منهما الأدب الإسلامى بأنه الأدب الذى يتفق مع روح الإسلام ومنهجه ومبادئه، ونضيف نحن إلى ذلك : أن يكون هذا الأدب صادرا من أديب يعى التصور الإسلامى الشامل ويستوعبه، ويكون مثلا للمسلم بعقيدته وعبادته وسلوكه، كما يكون مسلما بموهبته وتصوراته وأخيلته، فالأدب لن يكون إسلاميا ما لم يصدر عن عقيدة

---

(١) من محاضرته بعنوان : قضايا حول الشعر العربى والأدب الإسلامى منشورة بكتاب نحو أدب إسلامى صـ٧٢ .

مستقرة فى نفس صاحبها، وهنا قد نجد نصوصا من الأدب الملتزم أصدرها أدباء غير مسلمين أو أدباء مسلمون انحرفوا عن المنهج الإسلامى فى أدبهم، فهذه لا تدخل فى إطار الأدب الإسلامى سواء أكانت العربية لغتها، أم لم تكن كما أن بعض الآداب تلتقى لا محالة فى بعض المواقف أو المعانى الجزئية مع الأدب الإسلامى، وذلك نتيجة لتماثل الفطر وتقارب العواطف والاشتراك العام أحيانا فى أحاسيس مختلفة، لكنها مع ذلك لا تكون من الأدب الإسلامى، ومن ذلك بعض المعانى الجزئية فى شعر المتحنفين من الجاهليين، حيث نجدها تتفق مع التصور الإسلامى، ومن ذلك قول أمية بن أبى الصلت :

ألا كل شئ ما خلا الله باطل .:. وكل نعيم لا محالة زائل

ولذلك نجد الرسول عليه الصلاة والسلام عندما سمع هذا البيت قال : "آمن شعره وكفر قلبه" فهذا الاتفاق الأبتر لا يجعل من هذا القول أو ما يماثله أدبا إسلاميا، لأن كل أدب صدر عن وثنية أو يصدر عن عقائد ومذاهب أخرى تختلف فى منظورها وغاياتها عن تصورنا الإسلامى، لا يكون أدبا إسلاميا، وكذلك كل أدب يتضمن عقائد ومفاهيم لا يوافق عليها الإسلام، أو يتضمن أنواعا من السلوك الظاهر أو الباطن لا يوافق عليها الإسلام أو يحرم ما أباحه أو ما أذن به، أدب غير إسلامى ولا يندرج تحته. لأن الأدب الإسلامى أدب أخلاقى ملتزم بالفضيلة فكرا وأسلوبا، وهو بهذا المنحى وسيلة فاعلة فى توجيه الفكر الإسلامى نحو العقيدة الصحيحة والسلوك الأخلاقى الرفيع .

هذا هو رأى كثير من الباحثين والدارسين للأدب الإسلامى، وما استقر عليه الرأى لدى أصحاب البحوث التى قدمت إلى الندوات واللقاءات التى أشرنا إليها سابقا، إلا أن هناك من يرى أنه لا يشترط فى الأديب أن يكون مسلما، وأن المهم ما يصدر عنه متفقا مع روح التشريع الإسلامى، وما قرره الدين الإسلامى الحنيف أو رفضه. يقول الدكتور سعد أبوالرضا : "ونعتقد أن مثل هذا النتاج الأدبى وإن امقاح من قيم الإسلام ومثله، فهو ليس خاصا بالمسلمين فحسب مبدعين ومتلقين، لأن دعوة الإسلام عامة لكل البشر، ورسالته خاتمة الرسالات كما نتصور أن أى نتاج أدبى يصدر عن هذه القيم الإسلامية ويدور فى فلكها، إن هو إلا ممثل لهذا الاتجاه ونحن حينئذ ننظر إلى ما قيل لا إلى من قال" [1] ولذلك فإنه يرفض رأى من يرى أن الأدب الإسلامى هو " ما أنتجته عقول الأدباء المسلمين والملتزمين فى فكرهم بالإسلام ومنهجه"[2] ويرى "أن فى هذا المنحى تضييقا لمجال يجب أن يتسع" ويدلل على رأيه وقناعته به فيقول : "فالنتاج الأدبى الذى يصدر عن الإسلام وقيمه أعم وأشمل من أن يختص بالكتاب المسلمين ، فقد رأينا كتابا غير مسلمين، حاولوا تمثل هذه المبادئ فيما يبدعون ، وربما كان ذلك سبيلا لهدايتهم، ونذكر هنا ـــ على سبيل المثال لا الحصر ـــ كتاب : "محمد الرسالة والرسول" للدكتور نظمى لوقا، ويمكن أن تلتقى مثل هذه الكتابات مع أدب المقالة الإسلامية، طالما كانت صياغتها

---

(١) الأدب الإسلامى قضية وبناء صـ٩ ـــ عالم المعرفة ـــ جدة ط أولى .
(٢) نحو أدب إسلامى معاصر (الرافعى والاتجاهات الإسلامية فى أدبه) للدكتور على عبدالحليم محمود ـــ رسالة دكتوراه طبعت بدار عكاظ بجدة صـ٢١ .

جمالية، وليس فى ذلك خلط بين التـاريخ كعلـم والأدب كفـن ، لأن التعريف الذى قدمناه للأدب الإسلامى يمكن أن يكـون فيصـلا فـى ذلك[1]" لكنه سرعان ما يتناقض مع نفسه فيستشهد برأى أحد الكتـاب الذين يذهبون مذهبه الذى تقول فيه : "وإذا كان مفهوم الأدب الإسلامى بهذا الشمول والاتساع، فهو من باب أولى يضم مـع الأدب العربـى الأدب الفارسى والأدب التركى وغيرها من الآداب الأخـرى، التـى أدارتها جميعا وحدة العقيدة فى فلك الإسلام"[2] .

فهذا الرأى يقرر أن أى أدب لا يطلق عليه أدب إسـلامى إلا إذا أنتجته وحدة العقيدة التى تدور فى فلك الإسلام" وهذا حق "إذا فكيـف نعتبر ما ينتجه إنسان لم يعتنق الإسلام أدبا إسلاميا لمجـرد أن أدبـه صادر عن قيم يقرها الإسلام؟! إن الفرق كبير بين نتاج وافـق القـيم والأخلاق ولا يتعارض مع الإسلام وبين أدب أنتجته العقول المؤمنـة التى استقر الإيمان فيها وارتبطت بمبادئه قولا وعملا وسلوكا. وهذا ما قرره هو نفسه عندما عرض لمفهوم الأدب الإسـلامى حيـث قـال : "عندما يتلقى الفنان الحياة من خلال التصور الإسلامى وينفعل بها فـى إطار قيم الإسلام ومبادئه، ثم يصوغ هذه التجربة صياغة جميلة معبرة موحية، حينئذ يمكن أن يشكل هذا الجنس الأدبى بخصائصه ــ شـعرا كان أو قصة أو مسرحية أو غيرها ــ شيئا من سمات الأدب الإسلامى .. إلى أن يقول : "من ثم تصبح فاعلية الفنان عبادة "لأن كل فاعليـات

---

(١) الأدب الإسلامى قضية وبناء ص١٠ .

(٢) فى الأدب الإسلامى للدكتور مجيب المصرى صـ٧ دار الفكر القاهرة.

الإنسان تبدو عبادة، ما دام ذلك الإنسان قد وضع الله نصب عينيه، وحفظ اسمه العظيم فى فكره وقلبه وأعصابه، فهو يمارس العبادة الشاملة أنى كان فى البيت، أم فى المسجد، فى المدرسة والجامعة أو فى السوق .. فى تنقله وأسفاره وكفاحه، أم فى عزلته وتأمله وهدوئه : ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ ..﴾ ونحن نوافقه على أن الأدب الإسلامى هو الذى يقوله فنان وضع الله نصب عينيه وحفظ اسمه العظيم فى فكره وقلبه وأعصابه، ولن يكون هذا الإنسان إلا مسلما بدليل ما استشهد به من قول الله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ ...﴾ .

أما الأدب الذى يتفق مع المبادئ الإسلامية ولا يتعارض معها مما ينتجه أديب غير مسلم، فليس أدبا إسلاميا، لأنه بمثابة صحوة عارضة، ولم تصدر عن قلب مفعم بالإيمان، معترف برسالة الإسلام، وما جاء به، وإلا لكان من المسلمين الموحدين، وهذا ما لا يقبله ولا يقر به ، ولهذا كان تعريف المرحوم الشهيد سيد قطب للأدب الإسلامى: " بأنه التعبير الناشئ من امتلاء النفس بالمشاعر الإسلامية[1].

(١) فى التاريخ فكرة ومنهاج صـ١٥ لسيد قطب ــ الدار السعودية بجدة.

وهنا يرد سؤال لابد أن نجيب عليه، وهو إذا كان بعض ما ينتجه الأدباء غير الإسلاميين ، أو حتى من هم ليسوا على دين أصلا، أو من لا يهتمون بأموره من الأساس، يطابق المفاهيم الإسلامية والقيم الدينية ويخدم قضايا الفضيلة والأخلاق التى فطر الله الناس عليها، وذلك لأن هؤلاء الأدباء ما يزال فيهم بعض الخير، وما تـزال فطـرهم التـى فطرهم الله عليها سوية سليمة، أيندرج هذا النتاج تحت مفهـوم الأدب الإسلامى ؟ أم نسميه باسم آخر ؟

يقول الدكتور صالح آدم بيلو :" الحق أن هذا النوع من الأدب ــ شعره ونثره ــ كثير وكثير فى كل فنونه وأجناسه وأشكاله، وهو أدب غالب وشائع، بل وعند كثير من الأمم كذلك ، وفـى كـل العصـور والأمكنة، وليس من السائغ المقبول طرحه بعيـدا أو إهمالـه، دون أن يبحث له عن مكان لائق يوضع فيه، ويصنف تصنيفا يتناسب مع قيمته وعائده الذى يؤديه لبنى الإنسان.

إن موقفنا منه واضح بين ، هو موقف المتقبل له غير الـرافض، وموقف المعترف له بقيمته، .. هو عندنا من بـاب: الحكمـة ضـالة المؤمن، أخذها حيث وجدها، وهو أولى بها وأجدر من دون النـاس .. ومن هنا جاء فى تعريف أحد الكتاب المشـتغلين بـالأدب الإسـلامى قوله:".. فإذا استشعر الأديب هذا الكون بجميع أشيائه بإحساس المسلم، ثم عبر عنه تعبيرا لأئقا بهذا الإحساس الإسلامى أو الإحسـاس غيـر المتصادم والمتناقض مع مفهوم الإسلام، فهو أدب مقبول إسلاميا وذو

قيمة واعتبار دون ريب" ثم يخلص الدكتور آدم بيلو إلى أنه من الأوفق لنا فى هذا الصدد أن نستهدى بموقف الرسول ﷺ فقد روى مسلم فـــى كتاب الشعر[1] عن عمرو بن الشريد عن أبيه قال : ردفت رســـول الله ﷺ فقال: هل معك من شعر أمية بن أبيالصلت شئ؟ قلت: نعم. قـــال: هيه، فأنشدته بيتا فقال: هيه، فأنشدته بيتا، فقال: هيه، حتى أنشدته مائة بيت ، وفى رواية قال : "إن كاد ليسلم" وفى رواية "فلقد كاد يسلم فـــى شعره" فالرسول عليه الصلاة والسلام يصف أدب أمية الموافق لمفاهيم الإسلام بأنه قارب أن يصير إسلاميا، وأن الشاعر قــد اقتــرب مــن الإسلام كذلك بهذا اللون من الأدب وإن كان فى قلبه وحقيقتـــه علـــى خلاف ذلك[2]" وبذلك يتضح لنا أن هذا الأدب الموافق للقيم والمفـــاهيم الإسلامية مما ينتجه أدباء غير مسلمين مقبول إسلاميا لأنه يخدم دعوة الإسلام ويدعو إليها، لكننا لا نسميه أدبا إسلاميا، وإنما هو أدب قارب أن يكون أدبا إسلاميا، لأنه افتقد أحد شروط الأدب الإسلامى وهـــو أن يكون صادرا عن أديب مسلم ٠

---

(١) صحيح مسلم ١/ ١٧٦٧ ٠

(٢) من قضايا الأدب الإسلامي صـــ١٢٣ للدكتور صالح آدم بيلو ـــ دار المنارة بجدة ٠

مجالات الأدب الإسلامى:

وهذا الأدب الذى نعنيه ونعنى به، لا يقتصر على جنس أدبى دون آخر، وإنما يشمل كل الأجناس المعروفة وكل ما يندرج تحت مسمى أدب بكل أشكاله، كالشعر بألوانه الغنائى والمسرحى والملحمى، والنثر مقالا ورواية وقصة ومسرحية، وكل ما ينجم من الفنون القولية. وبهذا المنظور للأدب الإسلامى نجد أن مجاله فسيح يمتد إلى كل ما يقع تحت الأحاسيس بلا حرج ولا تأثم، ما دامت الرؤية لا تخرج عن التصور الإسلامى للأشياء المدركة، وإذا كان فقهاء المسلمين لم يتعففوا عن النظر فى أدق الموضوعات وأجلها وتحكيم الشرع فيها، فكذلك الأديب المسلم يتحرك بخواطره فى كل المجالات التى يمتد إليها تصوره، لطريقته المختلفة عن طريقة الفقيه وتصوره. فكل ما تشتمل عليه الحياة بلا تمييز، وكل ما يتلجلج بصدر الإنسان من خواطر ومشاعر، مجال رحب للأديب المسلم، فالقضية ليست قضية موضوع، ولا هى أيضا قضية شكل ، لأن الأديب المسلم حر فى اختيار الشكل الملائم لتجربته ، وإنما هى قضية الروح المسلمة التى يصدر عنها، والتوافق مع روح التشريع الحنيف .

يستطيع الأديب المسلم أن يتناول كل المشكلات الخاصة والعامة للفرد وللمجتمع وللأمة وللبشرية جميعها، يستطيع أن يفتق الحجب عن النفس البشرية ويتسلل إلى موضوع الهوى منها ويبرزه بطريقته الخاصة الملتزمة، يستطيع أن يفجر داخل هذه النفس طاقة الخير

والإبداع، بما يساعد على تفسير الحياة وتطويرها وعدم الاختلال بتوازنها.

موقف القرآن الكريم من الشعر والشعراء :

وإذا قيل فما بال القرآن الكريم يحمل على الشعراء وينفر من شعرهم كما يدل ظاهر قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ۞ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۞ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۞ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (١) فإن هذه الآيات وردت بعد قوله تعالى : ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ۞ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۞ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ فليس التحامل في الآيات السابقة على ذات الشعر، وإنما التحامل على المنهج الذى سار عليه الشعر والشعراء .. منهج الأهواء والانفعالات التى لا ضابط لها، ومنهج الأحلام المزعومة التى تغوى أصحابها، فهذه الآيات رد على زعم كفار مكة الذين تبجحوا وذهبوا إلى أن القرآن يتنزل به الشياطين على محمد، وإنكار لحال الشعراء المخالفة لحال النبوة. فالشعراء "يتبعهم الغاوون" وهى هنا غواية فنية قولية، فالشاعر يحرض على الغواية بقوله المزين المبهرج، إساءة للدعوة ورجالها، والمتلقون تستهويهم للغواية بما فى النفس من جنوح، وضعف أمام القول المنمق الجذاب، والشعراء إنما يقترفون هذا الإثم لأنهم يهيمون فى كل واد، والهيام

---

(١) سورة الشعراء الآيات ٢٢٤ ــ ٢٢٧ .

أصلا حرقة تعترى الإنسان، فيضرب فى الأرض على غير هدى، ضلالا وتخبطا، ويصير كالمجنون يمدح من يستحق ذما، ويذم من يستحق مدحا، ويسبح بخياله فى آفاق بعيدة، عن الواقع، فيختل بذلك نظامه وتوازنه، ويختل معه من يتبعونه وأى خطر يمنى به المرء أفدح من هذا الهيام والانفصام حين تصير أقواله فى واد وانفعالاته فى واد آخر؟. إنه انهيار يعاب به صاحبه فى نظر الإسلام ولا يستقيم مع الفطرة السليمة، أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الشعراء فهم مستثنون من الحكم السابق، لأنهم بإيمانهم وصالح أعمالهم متطابقون أقوالا وأعمالا . أى إن الشاعرية ـ مهما يكن أمر صاحبها ـ لا تعفيه من هذا الالتزام ، من الإيمان يمتلئ به قلب الأديب، ومن مطابقة أعماله وأقواله لهذا الإيمان، فالإيمان ركن أساسى فى الأدب الإسلامى لا خلاف عليه ولا مراجعة فيه، وهو كفيل أن يوجه الأديب الموهوب الوجهة الإسلامية؛ وأن يولد لديه من العواطف والمشاعر والأخيلة ما يفسح مجالات الابتكار لصوره، وقوة التأثير لمعانيه .

فالقرآن الكريم يستثنى الشعراء المؤمنين الملتزمين. يقول : محمد بن إسحاق: لما نزل قول الله تعالى : ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ توجه حسان بن ثابت وعبدالله بن رواحة وكعب بن مالك رضى الله عنهم إلى رسول الله ﷺ وهم يبكون ، قالوا: يا رسول الله قد علم الله حين أنزل هذه الآية: إنا شعراء، فتلا النبى عليه الصلاة والسلام : ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال : أنتم، ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ قال :

"أنتم" ، ﴿وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ قال : "أنتم" (١) وبذلك قرر القرآن الكريم والرسول عليه الصلاة والسلام أن من كان من الشعراء على هذه الصفات الكريمة حتى يرث الله الأرض ومن عليها لا حجر عليه فيما يقول من شعر ولا تثريب، فالقرآن الكريم لم يقف فى وجه الشعر والشعراء موقف العداء ، وإنما وقف مدافعا عن الرسول ﷺ ونافيا عنه الشعر عندما قال كفار مكة عنه : "إنه شاعر" ومميزا فى تلك الآيات بين فريقين من الشعراء : فريق استغل فنه فيما ينافى هدى القرآن الكريم وآدابه، وفريق اتجه بشعره إلى العمل الخير الداعى إلى الفضائل وإلى نصرة الحق أنى وجد . فالقضية إذن فيما يتناول الشعراء من المعانى والأغراض والأفكار، وليست فى الشعر ذاته.

موقف الرسول ﷺ من الشعر :

مما لا شك فيه أن الشعر العربى كان له تأثيره البالغ على النفوس منذ بداية العصر الجاهلى ، فهم قوم يتعشقون الكلمة الجميلة، ويطربون لسماع اللحن العذب ، وكانوا يقيمون الأسواق والمواسم لتتباهى القبائل بشعرائهم المجودين وما حققوه من سبق فى مجال الفن القولى ، ولذلك كان الشعر مصورا لحيواتهم بكل اتجاهاتها من سياسية واجتماعية وعقدية وغيرها .

فهو سجل لفضائلهم ومفاخرهم، ووسيلة لتخليد مآثرهم، ولذلك قيل: "الشعر ديوان العرب" ومن هنا كان الشعر سجية متأصلة فى

---

(١) رواه ابن أبى حاتم وابن جرير من رواية ابن إسحاق .

النفوس يولد معهم ويعيش فى حناياهم ويجرى على ألسنتهم حتى كـان شغلهم الشاغل لدرجة أن الرسول ﷺ قال : "لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين"(١) ومن هنا كان تأثر الرسـول محمـد ﷺ بالشـعر وعنايته بسماعه له، شأنه فى ذلك شأن أى عربى آخر يعيش مع هؤلاء القوم ويرتبط بهم، فلا تناقض بين الرسالة وبشرية الرسول من حيـث التأثر بالشعر والاستماع له، وإن صرفه الله تعالى عن قـول الشـعر والاشتغال بإنشائه، وقد سجل ذلك القرآن الكريم فى بعض آياته مثـل قوله تعالى : ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ (٢) وقوله سبحانه : ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ (٣) .

أما عن موقفه عليه الصلاة والسلام من الشعر والشـعراء فإنـه يتضح لنا من خلال ما ورد فى السنة النبوية المطهـرة، ومـا سـجله القرآن الكريم فى هذا الشأن ، ويتحصل لنا من ذلك ثلاثـة مواقـف: أولها موقف معاد للشعر والشعراء، وثانيها موقـف يعجـب بالشـعر ويستمع إليه ويثنى على صاحبه، وثالث: يقف منه موقف الحذر فيقـوم ما اعوج أو انحرف منه ويوجهه الوجهة الإسلامية الصحيحة(٤) .

---

(١) العمدة ١/ ٣٠ .
(٢) سورة "يس" آية ٦٩ .
(٣) سورة الحاقة آية ٤١ .
(٤) انظر : دراسات فى أدب الدعوة الإسلامية للدكتور محمود حسـن زينـى صـ٨٤ مطبوعات مكتبة الخانجى .

لقد كان من الأمور الطبيعية أن يساير الرسول ﷺ فى موقفه من الشعر والشعراء موقف القرآن الكريم، والقرآن الكريم هـو الدسـتور والمشكاة التى يستضئ بها الرسول ﷺ ويسير على هديه .

فقد نهى الرسول ﷺ عن لون معين من الشعر، وعن موضوعات خاصة كانت طبيعة المرحلة الأولى فى الدعوة الإسلامية تقتضى عدم الخوض فيها، لما سيترتب عليها من نتائج سلبية قد تحد مـن خطـى الإسلام وتطلعاته. فقد نهى عليه الصلاة والسلام عن الشعر الذى ينال منه، أو ينال من الدعوة التى شرفه الله بها وكلفه بتبليغها إلى النـاس، كما نهى عن شعر العصبيات والمفاخرات، والهجاء الذى يؤذى النفوس ويثير الضغائن بين الناس، وعن المجون الذى لا يتفق والفضائل والقيم الأخلاقية الكريمة، فكل هذه الألوان من الشعر وما يتصل بها يخـالف القيم والمبادئ الإسلامية التى قررها الإسلام لتكون مبـادئ للمجتمـع الإسلامى الراشد[١] وهذا ما أخبرنا به عليه الصلاة والسلام فى الحديث الذى رواه أبو هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : "لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يريه، خير من أن يمتلئ شعرا"[٢] وقد ذكـر الإمـام الحافظ ابن كثير فى تفسيره رواية أخرى لهذا الحديث . قـال الإمـام أحمد: حدثنا قتيبة ، حدثنا ليث عن ابن الهاد عن مخنس مولى مصعب ابن الزبير عن أبى سعيد قال : "بينما نحن نسير مـع رسـول الله ﷺ بالعرج إذ عرض شاعر ينشد، فقال النبى ﷺ "خـذوا الشـيطان — أو

---

(١) انظر دراسات فى الأدب الإسلامى للدكتور سامى مكى العانى صـ١٥ .
(٢) رواه البخارى ٧/ ٤٥ .

امسكوا الشيطان ــ لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خير من أن يمتلئ شعرا"[١].

وهذا الحديث الشريف وإن اختلفت الروايتان فيه إلا أنه يؤكد موقف الرسول من الشعر المستهجن القبيح، شعر الهجاء الشخصى الذى يؤذى النفوس ولا يحض على الفضائل ويثير الأضغان والأحقاد، فذلك شعر رفضه القرآن الكريم[٢] ورسول الله ، والمجتمع الإسلامى كله، الذى يدعو إلى الفضائل ويبعث على الأخوة والوئام . كما روى هذا الحديث عن السيدة عائشة برواية فيها تحديد للشعر المذموم، فقد روى أنها استدركت على أبى هريرة وذكرت نص الحديث كاملا بما يتفق ومنهجه وموقفه الحصيف الحكيم من الشعر المرذول البغيض، ذلك الموقف الثابت الذى لم يختلف عن موقف القرآن الكريم من ذلك الشعر نفسه بل أكده وأيده، فقد قالت السيدة عائشة رضى الله عنها: "لم يحفظ أبوهريرة الحديث، إنما قال الرسول عليه الصلاة والسلام : "لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا ودما خير له من أن يمتلئ شعرا هجيت به"[٣] فهذا الحديث بهذه الرواية التى تنضم إلى ما سبقها من الروايات الأخرى يوضح موقف الرسول من الشعر وتهجينه وذمه، خاصة ذلك الشعر القبيح الذى هجى به عليه الصلاة والسلام ٠

(١) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ٣/ ٣٥٣ (دار الفكر العربى) ٠
(٢) انظر : شعر المخضرمين للجبورى ص٤٢ ٠
(٣) انظر : صحيح مسلم بشرح النووى ١٥/ ١٤ ٠

وقد وردت بعض الروايات التى تذكر أن رسول الله نهى عن رواية بعض الشعر، فقد نهى عن رواية قصيدة أمية بن أبى الصلت التى حرض فيها قريشا على المسلمين بعد معركة بدر، كما نهى عن رواية شعر الأعشى الذى هجا به علقمة بن علاثة، لما دخل فى الإسلام وحسن إسلامه[١]، وبهذا يتضح لنا أن الرسول قد ذم شعر الهجاء الذى وجهه مشركو قريش إلى ذاته عليه الصلاة والسلام وإلى الدعوة التى جاء مبشرا بها، وإلى صحابته الأكرمين وكذلك الشعر الذى ينتصر للباطل ويخوض فى الرذيلة، ولم يتناول ذمه هذا شعر الهجاء بعامة، فإن الواقع يؤكد أن الرسول نفسه قد استخدمه فى محاربة كفار قريش وحض الشعراء على ذلك، عندما قرر أن يرد على المشركين فى حربهم الكلامية ضد المسلمين، ولما لم يكن من المهاجرين إبان الدعوة الإسلامية من يتصدى للرد على المشركين بأسلوبهم الخاص فقد طلب من الأنصار أن يقوموا بهذه المهمة وهم الذين آووه ونصروه وأيدوه .

فقال لهم عليه الصلاة والسلام: "ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم"[٢] فاستجاب له شعراء الأنصار سريعا، وهم: حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة رضى الله عنهم، فسر عليه الصلاة والسلام لاستجابتهم لطلبه، وانشرح صدره لذلك .

---

(١) جمهرة أشعار العرب للقرشى تحقيق على محمد البجاوى صـ٨٥ .
(٢) انظر دراسات فى الأدب الإسلامى للدكتور سامى العانى صـ١٦ .

الرسول يحث الشعراء على توظيف الشعر لخدمة الدعوة الإسلامية ونشر تعاليمها ومبادئها :

لقد كان الرسول ﷺ يعتقد اعتقادا جازما أن مهمة الشعر فى بداية الدعوة الإسلامية، وعلى مدار الدهر، يجب أن تتوجه إلى خدمة العقيدة والدعوة إليها والذب عنها وإعلاء مبادئها، لأن الشاعر المسلم داعية مجاهد ، يجاهد بسيفه وقلمه، ولا يستغنى عنه مجتمعه، لأنه صاحب رسالة، ولهذا قد حث الرسول عليه الصلاة والسلام الشاعر المسلم على نصرة الدين بما يقول من شعر، وإلى بعث الفضائل الكامنة فى النفوس التى فطر الله الناس عليها .

والمتأمل فى المواقف التى أثرت عن الرسول ﷺ من الشعر يدرك تماما أنه عليه الصلاة والسلام، كان ينظر إلى الشعر الذى يصدر عن الشعراء المسلمين على أساس من الحرص على إصلاح حال المسلمين فى المجتمع الإسلامى، فهو عليه الصلاة والسلام يحرص على إنشاد الشعراء المسلمين وتوجيههم الوجهة الإسلامية الصحيحة لرسالة الشعر، فيوقفهم على قيمة الإسلام ومبادئه وقيمه والشعور بالمسئولية فى تبليغ هذه المثل والقيم إلى الناس، وهى كلها تحض على التمسك بكل ما ينفع الإنسان ويعود عليه بالنفع فى دينه ودنياه، ومن ذلك الدعوة إلى نبذ العصبية الجاهلية، والابتعاد عن الأمراض الاجتماعية التى تتفشى فى المجتمعات، من عبث وخلاعة ومجون وفساد أخلاق وغير ذلك، مما يرفضه الدين الإسلامى، بل ينهى عنه ويحاربه ويحرمه، وكأنما كان عليه الصلاة والسلام يتمنى

للشاعر المسلم أن يأخذ نصيبه الأوفى من مسـئولية الداعيـة المسـلم المجاهد .

كما حرص الرسول على تطبيق ما جاءت به الدعوة الإسـلامية فى شأن الشعر والشعراء ، وذلك بتقـويم وتوجيـه شـعراء الـدعوة الإسلامية إذا ما بدر منهم أو لوحظ عليهم خروج عن المنهج الإسلامى فى أشعارهم. فقد كان عليه الصلاة والسلام يوجه ويحذر وينبه شعراء المسلمين بما يجب عليهم تركه، إذا رأى فى بعضهم بعـض الخـروج عن المنهج الإسلامى، فهذا النابغة الجعدى يقف بين يديه عليه الصلاة والسلام وينشده إحدى قصائده، فيلحظ الرسول ما اندس فيها من بعض الأفكار التى تبدو غريبة عن المنهج الإسلامى، وهـو ممـا لا يليـق بشاعر مسلم من شعراء الدعوة الإسلامية، فعندما بلغ النابغة قوله :

بلغنا السماء مجـدنا وجـدودنا ∴ وإنا لنبغى فوق ذلك مظهـرا

استشعر الرسول الكريم أن الشاعر يتجه بهذا القول نحو الأسلوب الجاهلى فى التعالى والتفاخر، فيقول له : "إلى أين يا أبا ليلى؟" فيقـول النابغة : "إلى الجنة يا رسول الله" فيقول عليه الصلاة والسلام مغتبطـا بهذه الروح الجديدة : "إن شاء الله"[١] وعندما يسمع كعب بـن مالـك يقول:

مجالدنا عن جذمنا كـل فخمـة ∴ مدربة فيها القوانس تلمـع[٢]

---

(١) انظر العمدة ١/ ٥٣ .

(٢) الجذم : الأصل والجنس والنوع .

ينكر عليه اتجاهه إلى روح العصبية القبلية التى هى أثر من آثار الجاهلية، ويطلب منه أن يبدل كلمة : "جذمنا" بكلمة "ديننا" ويبادر كعب عليه السلام بالاستجابة لتوجيه الرسول عليه الصلاة والسلام وينشرح صدره فرحا بهذه الملاحظة القيمة[١].

ولقد استفاد كعب بن مالك ﷺ بما أسداه إليه الرسول ﷺ من توجيه ونصح نبوى كريم، ولهذا يروى الرواة أنه قال : "ما أعان رسول الله أحدا فى شعره غيرى" ومن الأمثلة التى وجه فيها رسول الله ﷺ الشعراء ولفت أنظارهم إليها، ما يرويه ابن سلام الجمحى فى كتابه : "طبقات الشعراء" أن الرسول ﷺ كره من عبدالله بن رواحة أن يجعل قريشا ــ قوم رسول الله ــ : "أثمان العباء" يقول عبدالله بن رواحة: مررت بمسجد رسول الله وهو فى نفر من أصحابه فأضب[٢] القوم: يا عبدالله بن رواحة، يا عبدالله بن رواحة، فعرفت أن رسول الله دعانى فانطلقت إليهم مسرعا فسلمت فقال : "ههنا" ، فجلست بين يديه فقال ــ كأنه تعجب من شعرى ــ : " كيف تقول الشعر إذا قلته؟ قلت: أنظر فى ذلك ثم أقول. قال: "فعليك بالمشركين"، قال عبدالله بن رواحة: فلم أكن أعددت شيئا، فأنشدته، فلما قلت:

فخبرونى أثمان العباء متى .:. كنتم بطاريق، أو دانت لكم مضر؟[٣]

---

(١) انظر : دراسات فى أدب الدعوة الإسلامية ص٧ .
(٢) أضب القوم : صاحوا ونادوا بصوت مرتفع .
(٣) بطاريق جمع بطريق : القائد من قوال الروم وهى كلمة معربة .

قال : فكأنى عرفت فى وجه الرسول ﷺ الكراهة، إذ جعلت قومه : "أثمان العباء" فقلت:

تجالد الناس عن عرضٍ فنأسرهم	فينا النبى وفينا تنزل السور[1]
وقد علمتم بأنا ليس غالبنا	حى من الناس إن عزوا وإن كثروا
يا هاشم الخير إن الله فضلكم	على البرية فضلا ماله غير
إنى تفرست فيك الخير أعرفه	فراسة خالفتهم فى الذى نظروا
ولو سألت أو استنصرت بعضهم	فى جل أمرك ما آووا وما نصروا
فثبت الله ما آتاك من حسن	تثبيت موسى ونصرا كالذى نصروا

فأقبل علي بوجهه مبتسما ثم قال : "وإياك فثبت الله"[2] .

ومن ذلك يتضح لنا أن رسول الله ﷺ كان يحرص على أن يكون الشعر الإسلامى شعرا هادفا ، بناء مؤديا دوره فى الدعوة إلى الله بالكلمة الطيبة والحكمة والموعظة الحسنة، والاتجاه بالشعر إلى ترسيخ المثل والقيم الجديدة التى جاء بها الإسلام ، والتى تختلف اختلافا عظيما عن تلك التى اعتادها العرب فى جاهليتهم، ودأبوا على تصويرها والافتتان بها .

---

(١) عرض ـ بضم العين وسكون الراء : القوة والهمة .

(٢) انظر : طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى ـ تحقيق محمود محمد شاكر ١/ ٢٢٥ .

هل الإسلام يرفض الشعر عموما ؟

مما عرضنا فى هذه الصفحات يتضح لنـا أن تحامـل القـرآن والرسول عليه الصلاة والسلام على الشعراء لم يأخذ صـفة العمـوم بدليل ما كان من أمر الصحابى الجليل : كعب بن مالك، أحد شـعراء الرسول ﷺ ، فقد نزل فيه قرآن يعلن قبول توبته بعدما تخلـف عـن جيش المسلمين حيـث قـال سـبحانه : ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ...﴾ [١] .

وها هو حسان بن ثابت أبرز شعراء الدعوة الإسلامية يهدى إليه رسول الله : "سيرين" أخت مارية القبطية أم ابنه إبراهيم الـذى بكـى الرسول لموته .

ومن ذلك يتبين لنا أن موقف الرسول من الشعر والشعراء كـان يدور حول إبراز المفهوم الجديد الذى حدده القرآن الكريم للشعر، لمـا للشعر من أهمية باعتباره فنا معرفيا قادرا على تشكيل العقول والتأثير على توجيه السلوك، ولأن الرسول بشر يتأثر بالكلمة والموقف، وهـو

---

(١) الآيتان ١١٧، ١١٨ من سورة التوبة، والثلاثة الذين تاب الله عليهم لتخلفهم عن غزوة تبوك هم: كعب بن مالك ، وهلال بن أمية الواقفى ، ومرارة بـن ربيعة العامرى .

عربى فى قمة الفصاحة يقدر التعبير الفنى ويعرف خطورة وعمق تأثيره على النفوس، ويطرب له حين يعبر عن مبادئ خلقية وجمالية مقبولة، من وجهة الدين الإسلامى، ويرفضه ويقبحه حين يكون دعوة إلى الشر أو الشقاق أو الرذيلة، أو تحريضا على طرح الجدية فى الحياة والاستسلام لمباذلها"(١) فقد كان عليه الصلاة والسلام يأنس ببعض الشعر ويتمثل به فى بعض المواقف، وكان يتمثل بكلمة من بيت شعر أو شطر بيت، وربما تمثل ببيت كامل أو أكثر بعد أن يغير فى نظام الوزن ، فقد روى عنه ﷺ أنه قال : "أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كل شئ ما خلا الله باطل"(٢) فقد أتى بالشطر صحيحا ولم يكمل البيت . وكان عليه الصلاة والسلام يتمثل بقول عبدالله بن رواحة:

لا هم إن العيش عيش الآخرة .:. فارحم الأنصار والمهاجره

فعير فى بعض لفظه غير آبه لسلامة الوزن قائلا :

اللهم لا خير إلا خير الآخرة .:. فاغفر للأنصار والمهاجره

واستماع الرسول للشعر حقيقة لا يختلف عليها اثنان، فقد استمع إلى الشعر مرات عديدة ، وبخاصة عندما دعا إلى توظيف الشعر لمساندة الدعوة الإسلامية والرد على مشركى مكة، فعن أنس ﷺ أن

(١) انظر:مقدمة فى النقد الأدبى للدكتور محمد حسن عبدالله صـ٢٧٧ الكويت.
(٢) جامع الأصول فى أحاديث الرسول لابن الأثير الجزرى ٥/ ١٧٩ .

رسول الله ﷺ قال : "جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم"[١] وعن كعب بن مالك أنه قال للنبى عليه الصلاة والسلام : "إن الله تعالى قد أنزل فى الشعر ما أنزل ـ يقصد بذلك قوله تعالى : ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ ـ فقال عليه الصلاة والسلام : "إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذى نفسى بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل"[٢] وجاء فى كتاب الاستيعاب أنه قال : يا رسول الله ماذا ترى فى الشعر؟ فقال رسول الله ﷺ : "إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه"[٣] كما كان يضع لحسان بن ثابت المنبر فى المسجد يقوم عليه قائما يهجو الذين يهجون النبى ﷺ ، وقال : "إن روح القدس مع حسان ما دام ينافح عن رسول الله"[٤] وقال له أيضا كأنه ينصحه بالقسوة فى هجائهم : "اهجهم كأنك تنضحهم بالنبل"[٥] وقال له: "اهجهم وانت أبا بكر يخبرك ـ أى بمعايب القوم"[٦] فقد كان أبوبكر على علم بأحوال قريش فى أنسابهم وأحسابهم ومثالبهم وأيامهم ٠

كما كان لرسول الله ﷺ مواقف وأقوال ترفع من قدر الشعر وتعلى من شأنه :

---

(١) كتاب فيض القدير للمناوى ٣/ ٣٤٤ بيروت ٠
(٢) شرح السنة للبغوى ١٢/ ٣٧٨ ٠
(٣) جامع الأصول فى أحاديث الرسول لابن الأثير الجزرى ٥/ ١٧٦ ٠
(٤) الإصابة فى معرفة الصحابة ١/ ٣٢٦ ٠
(٥) طبقات فحول الشعراء لابن سلام صـ١٨١ ٠
(٦) السابق والصفحة ٠

١ – فقد نهى عليه الصلاة والسلام عن التصدى للشعر أو منـــع إنشاده حتى ولو كان ينشد فى البيت الحرام وبين يديه الكريمتين . فقد روى أنس قال : دخل رسول الله ﷺ مكة فى عمرة القضـــاء، وابـــن رواحة بين يديه وهو يقول :

خلوا بنى الكفــار عــن ســبيله ∴ اليوم نضربكم علــى تأويلــه
ضربا يزيل الهام عــن مقيلــه ∴ ويذهل الخليــل عــن خليلــه

فقال عمر بن الخطاب : يا ابن رواحة، أفى حرم الله، وبين يدى رسول الله تقول الشعر؟ فقال له عليه الصلاة والسلام : "خل عنــه يــا عمر، فوالذى نفسى بيده لكلامه أشد عليهم من وقع النبل"(١).

٢ – واستنشد النبى ﷺ الشعراء أشعارهم واستزادهم من الإنشاد واستحث أصحابه إلى الانتباه إليها، فكان يستنشــد الخنســاء شــعرها فكانت تنشده وهو يقول: "هيه يا خناس" ويومئ بيده(٢).

٣ – وكان نابغة بنى جعدة ممن ناله تشجيع رسول الله وتقــديره له، هذا الصحابى الجليل الذى هذب الإسلام نفسيته قد قال بيتين أمــام الرسول ﷺ هما:

ولا خير فى حلم إذا لم تكن لــه ∴ بوادر تحمى صفوه أن يكــدرا
ولا خير فى جهل إذا لم يكن له ∴ حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

---

(١) الإصابة فى معرفة الصحابة ٢/ ٢٠٧ وفى السيرة النبوية لابن هشام أربعة أبيات منها هذان البيتان ٣/ ٨٢٨ .
(٢) نهاية الأرب ١٨/ ٢٦ والإصابة ٤/ ٢٨٩ .

فيروى الرواة فى مصادر الأدب أن النبى ﷺ كافأه بدعائه الكريم له بعد ذلك بقوله : "لا يفضض الله فاك"(١).

٤ - وكان كعب بن زهير أيضا من الذين نالوا تقدير الرسول وتشجيعه ذلك أن كعبا عدل عن المنهج الجاهلى وأسلم وأعلن توبته أمام رسول الله ﷺ .

فقد كان كعب بن زهير هو وأخوه : "بجير" من كفار مكة فلما فتح الله قلب بجير للإسلام وأعلن إسلامه هجاه أخوه كعب بأبيات آذت رسول الله ﷺ فأهدر الرسول دمه، وبقى كعب على وثنيته حتى فتحت مكة وانصرف الرسول ﷺ من الطائف فكتب بجير إلى أخيه كعب يدعوه إلى الإسلام، وأن يقدم على رسول الله ﷺ تائبا، وشرح الله صدره للإسلام فقدم المدينة وذهب إلى أبى بكر ﷺ ليشفع له عند رسول الله، فلما كانت صلاة الفجر ذهب أبوبكر إلى المسجد فلما سلم رسول الله ﷺ من صلاته جاء به أبوبكر وهو متلثم بعمامته، فقال يا رسول الله : هذا رجل جاء يبايعك على الإسلام، فبسط النبى ﷺ يده فكشف كعب عن وجهه وقال: يا رسول الله هذا مقام العائذ بك: أنا كعب بن زهير، فأمنه رسول الله ﷺ وكان قبل ذلك قد أعد قصيده يمدح فيها رسول الله ﷺ بدأها بالغزل على عادة شعراء الجاهلية فأخذ ينشدها أمام الرسول ﷺ وتبدأ بقوله:

---

(١) الشعر والشعراء ١/ ٢٠٨ .

بانت سعاد فقلبى اليوم متبـول ∴ متيم إثرها لـم يفـد مكبـول

وبعد أبيات الغزل انتقل إلى تصوير شدة خوفه ووجله وفزعه من رسول الله، ثم إلى أبيات مديح للرسول عليه الصلاة والسلام وفيها:

وقلت خلوا سبيلى ـ لا أبالكم ـ ∴ فكل ما قدر الـرحمن مفعـول

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته ∴ يوما على آلة حدباء محمـول

أنبئت أن رسـول الله أوعـدنى ∴ والعفو عند رسول الله مـأمول

مهلاهداك الذى أعطاك نافلة الـ ∴ ـقرآن فيها مواعيظ وتفصيل

لا تأخذنى بأقوال الوشـاة ولـم ∴ أذنب ولو كثرت فى الأقاويـل

إن الرسول لنور يستضـاء بـه ∴ مهند من سيوف الله مسـلول

فى عصبة من قريش قال قائلهم ∴ ببطن مكة لما أسلموا زولوا[١]

زالوا فما زال أنكاس ولا كشف ∴ عند اللقاء ولا ميل معازيـل[٢]

وفى هذا المديح من الصبغة الإسلامية ما لا يخفى ، ويعلق ابـن رشيق صاحب كتاب العمدة على هذا الموقف بقوله : "فلم ينكر عليـه النبى ﷺ قوله، وما كان ليوعده على باطل، بل تجاوز عنه ووهب لـه بردته، فاشتراها منه معاوية بثلاثين ألف درهـم ـ وقـال العتبـى :

---

(١) زولوا : أى هاجروا .

(٢) الأنكاس : جمع نكس وهو الضعيف الذليل ، كشف: جمع أكشف وهو الذى ينكشف فى القتال وينهزم ، ميل: جمع أميل وهو الجبـان، معازيـل: جمـع معزال وهو الذى ينعزل فى الحرب .

بعشرين ألفا ــ وهى التى توارثها الخلفاء يلبسونها فى الجمع والأعياد تبركا بها، وذكر جماعة أنه أعطاه مع البردة مائة من الإبل"[١].

٥ – ويذكر الماوردى فى كتابه : "أدب الدنيا والدين" أن النبى ﷺ أنشد عنده قول الأعرابى:

وحى ذوى الأضغان نسب قلوبهم ∴ تحيتك الحسنى فقد يرقع النعل

فإن الذى يؤذيك منه سماعه ∴ وإن الذى قالوا وراءك لم يقل

فقال له النبى ﷺ: "إن من الشعر لحكمة وإن من البيان لسحرا"[٢] وفى رواية عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : "جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فجعل يتكلم بكلام، فقال رسول الله ﷺ : "إن من البيان لسحرا، وإن من الشعر حكما"[٣] فهذا القول من الرسول ﷺ يبين وجهة نظره فى الشعر، ومدى فائدته فى المجتمع، إذ هو حكمة وقد يكون حكما، كما أن هذا القول يؤكد القيمة الفنية الهامة للشعر الحسن ودوره فى بناء المجتمع .

---

(١) العمدة لابن رشيق ١/ ٢٣ وانظر: العصر الإسلامى صـ٨٥ للدكتور شوقى ضيف دار المعارف بمصر الطبعة السابعة، ودراسات فى أدب الدعوة الإسلامية للدكتور محمود حسن زينى صـ١٠٥ مطبوعات مكتبة الخانجى بالقاهرة .

(٢) أدب الدنيا والدين للماوردى صـ١١٦ ط١ ، ومعجم البلدان صـ١٠٧ .

(٣) سنن أبى داود ٥/ ٢٧٧ وصحيح البخارى ٨/ ٤٢ .

من البادئ بإدخال الشعر فى المعركة ؟

إذا كانت دعوة الرسول ﷺ شعراء المسلمين إلى مناصرة الدعوة والجهاد بالكلمة، إضافة إلى سيوفهم قد لاقت استجابة فورية، ونهض شعراء المسلمين يتبادلون مع مشركى قريش الحرب الكلامية من خلال شعر الهجاء الذى كان له أعظم الأثر فى نفوس أعداء الإسلام ، فإن المسلمين لم يكونوا هم البادئين بإدخال الشعر في حلبة الصراع بين الفريقين أول الأمر . فقد لقى المسلمون فى سبيل استمساكهم بدينهم فى مكة ألوانا مذهلة من العذاب والهوان، لم ينج منها إلا القليل ، ممن لهم بأس وسطوة، أمثال حمزة بن عبدالمطلب وعلي بن أبى طالب، أما من عدا أمثال هذين فقد عذبوا فى أنفسهم وحوربوا في أرزاقهم، وكان الذى نال البسطاء والضعفاء من ذلك أشد وقعا وأقسى ألما، وقد قابل المسلمون ذلك كله بالاحتساب والصبر، ومنهم من أذن له رسول الله ﷺ بالفرار إلى الحبشة فكان المسلمون فى درجة من الضعف فى مواجهة القوة المشركة من قريش، لا تمكنهم من الانتصاف لأنفسهم حتى بالقول فضلا عن الشعر، الذى كان يخشى بأسه ويعمل حسابه، فالذين لا يقدرون على مواجهة من يلحق بهم الأذى ويجيعهم ويحرمهم من ضرورات الحياة لا يستطيعون أن يجهروا بالشعر يهجون به من عذبهم إذا هم قالوه أو تفوهوا به، إلا أنه من رحمة الله بهم كانت آيات القرآن الكريم تنزل آنذاك ببشارات متعددة للمسلمين الصابرين، فى مقابل ما تنذر به الطاغين المشركين وتندد بهم وبأفعالهم، فكانت هذه الآيات سلوى للمؤمنين وشفاء لصدورهم وغنية لهم من الانتقام من

عدوهم الذى لم يستطيعوا هجاءه بالشعر، فكانت تلاوة القرآن المنزل راحة فى صدورهم، وانتقاما من أعدائهم يجهرون به ويسمعونه لمن يكيدون لهم، ثورة عليهم أو طمعاً فى هدايتهم أو رغبة فى الأمرين معا.

وفى المدينة بعد الهجرة المشرفة كثر المسلمون عددا بدخول الأنصار فى الإسلام، وأصبحوا قوة لا يستهان بها، فتدبرت قريش فى خططها ووسائلها التى كانت تستعملها ضد محمد وأتباعه، إذ لم تبق وسيلة من الوسائل تحارب بها الدعوة الإسلامية إلا اتخذتها، ولا سلاحا إلا شهرته، وبدأت شاعريتها تستيقظ وتقوى بعد أن كانت قليلة فى الشعر فى جاهليتها خاملة الذكر[1] فإذا بقريش تجند لم يعرف بعضهم بالشعر قبل الإسلام أو بالأحرى لم يكن له شعر يرقى إلى درجة الفحول فى الجاهلية ليعادوا رسول الله فى المدينة ويخاصموا دعوته، وبذلك كونت قريش فريق الشعراء الذى يمثل المواجهة، فكان أبوسفيان بن الحارث بن عبدالمطلب وعبدالله بن الزبعرى، وضرار بن الخطاب، والحارث بن هشام، وهبيرة بن أبى وهب، وأبوعزة الجمحى، وعمرو بن العاص، وكعب بن زهير وغيرهم، وأخذوا يهاجمون الدعوة الإسلامية، ويتطاولون على رسول الله ﷺ بأشعارهم وشهروا سلاح الشعر فى وجه الدعوة الإسلامية وادعوا على رسول الله بأنه شاعر، وساحر، ومجنون، وأن القرآن أساطير الأولين، وأنه أضغاث أحلام إلى غير ذلك من أباطيلهم. وأمام هذا الموقف المعادى

(١) انظر : دراسات فى الأدب الإسلامى للدكتور سامى مكى العانى صـ٥ .

المنظم من شعراء المشركين، كان لابد من الوقوف فى مواجهتهم بعد أن قوى المسلمون وكثر عددهم، وانحلت عقدة الخوف، فدعا رسول الله ﷺ شعراء المسلمين بإدخال الشعر حلبة الصراع بين الفريقين، بين الإيمان وبين الشرك، وبذلك زالت كل عوامل الخوف والتحرز التى كانت تعقد ألسنة المسلمين عن قول الشعر، فانطلقوا فيه ينشده شعراؤهم ويرويه رواتهم، ويحملونه بين مكة والمدينة ليرد شاعرهم على هجاء أتى ويبلغه سامعهم إلى عدو قد قيل الشعر فيه ، وأخذ المسلمون يحاربون أعداءهم المشركين بالأسلحة نفسها التى كان المشركون يعرفونها عن خصومهم، وأن يستعملوا اللغة نفسها التى كان المشركون يفهمونها آنذاك وهى الشعر، وجد الشعراء المسلمون فى النيل من أعدائهم حتى آلموهم فقد عيروهم بذكر ما يكرهون من الأحساب والأنساب والمثالب والأيام، كما بثوا فى هجائهم لهم بعض السنن الإسلامية التى دافعوا عنها وافتخروا بها وكان هجاؤهم لهم بالمعانى الإسلامية أعمق أثرا فى نفوسهم وأشد عليهم بعد إسلامهم. وبذلك يتضح أن المسلمين لم يكونوا هم البادئين باتخاذ الشعر سلاحا ضد المشركين وما كان لهم أن يفعلوا ذلك، فإن قرآنهم الكريم فيه غنية عن وسائل الإقناع الأخرى لمن شاء أن يتعقل ويستجيب، ولكن قريشا لم تدع المجال مفتوحا لكى يصل القرآن إلى عامة الناس حتى بعد الهجرة المشرفة، إذ أخذت تهاجم المسلمين بشعرها، لتعلن فيه عن ضعف المسلمين وتتهمهم بالجبن والفرار، أو تسمهم بالتمرد على العادات والتقاليد المرعية فى الجزيرة العربية كلها، والتنكر لدين

الأجداد والآباء، كما سخروا شعرهم للتفاخر بتعذيبهم للمسلمين في بداية الدعوة الإسلامية، فكان طبيعيا إزاء ذلك الظلم والاضطهاد أن يتدخل الشعر الإسلامى فى المعركة وأن يرد على الكائدين كديهم وأن يبين مآثر المسلمين وصفاتهم، ويعلن عن مبادئ الإسلام وصفات الرسول الكريم، وأن يبرز قوة المسلمين ويفند دعاوى قريش وأتباعهم، ويشهر بغدراتهم وغدرات أمثالهم من القبائل الأخرى أو الأفراد الآخرين، كما كان من الطبيعي فى هذه المواقع الحربية التى حدثت فى عهد الرسول ﷺ بين الفريقين أن يقع صرعى فى جانب الكافرين، وشهداء فى جانب المجاهدين المسلمين، فكان موت أولئك واستشهاد هؤلاء مثيرا لقرائح الشعراء فى كلا الجانبين، فكان شعراء قريش يرثون قتلاهم ويعلنون تفجعهم عليهم ويغمزون الشهداء الذين ضحوا بأرواحهم فى سبيل نصرة دين الله، أما شعراء المسلمين فكانوا يرثون شهداءهم بقصائد تنبض بالأسى العميق واللوعة والحزن الدفين، وبذلك احتدم الصراع والمعارك الكلامية بين الفريقين : فريق الكفر والضلال، وفريق الهدى والرشاد، فكانت النقائض المجال الرحب لهذا الشعر تسجل وقائع تلك المعارك الضارية، وما كان بين الجانبين من خصومات ولذلك أفردنا النقائض فى عهد البعثة المحمدية بكتاب مستقل يطلعنا على هذه المعارك وما اتسمت به من عنف وشراسة، وقد حمل عبء الصراع فيها كثير من شعراء الأنصار يمثلون الجبهة الإسلامية فى مقدمتهم حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبدالله بن رواحة رضى الله عنهم.

- فأسهموا بأشعارهم فى هذه المواجهة الشرسة، فكانت تلك النقائض التى رواها التاريخ وأصبحت سجلا حافلا بتلك الأحداث الدامية التى دارت بين الحق والباطل ، لتطلعنا على ما كان من أمر هؤلاء المجاهدين المخلصين الذين لم يألوا جهدا فى سبيل الدفاع عن دينهم ونبيهم المرسل وحاربوا أعداء الله بألسنتهم كما حارب إخوانهم بالسيوف والرماح، بل كانت أشعارهم أشد وقعا وأقوى فتكا على نفوس هؤلاء الأعداء وكانت للمجاهدين حافزا وتثبيتا لهم، حيث كانت أشعارهم ترجمانا صادقا لما حملته صدورهم من الإيمان، فالكلمة الصادقة تخرج من القلب إلى القلب، فتبعث الحمية في النفوس وتلهب المشاعر، ذودا عن العقيدة واحتسابا عند رب العالمين .

كما تطلعنا على ما يضمره الأعداء من حقد وكراهية للإسلام والمسلمين، وأنهم فى كل وقت يتربصون بأهل الإسلام الدوائر، مما يستوجب علينا دائما ألا نطمئن إليهم، وأن نتسلح دائما بالإيمان الذى لا يخالطه تردد أو ضعف، وأن نحرص على الالتزام بهدى الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [١] وأن يكون الحذر منهم فى مقدمة اهتماماتنا عملا بقوله جل جلاله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾[٢] صدق الله العظيم .

---

(١) سورة الأنفال آية ٦٠ .
(٢) سورة آل عمران آية ٧٣ .

أهم المصادر والمراجع

ـ القرآن الكريم ٠

١ - الإصابة فى معرفة الصحابة لابن حجر العسقلانى تحقيق طـه الزينى ـ مطبعة الفجالة الجديدة ١٩٧٦م٠

٢ - الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ـ مطبعة دار الكتب المصرية ـ أجزاء ١٠، ١٦ ٠

٣ - البيان والتبيين للجاحظ ط لجنة التـأليف والترجمـة والنشـر ١٩٤٧م٠

٤ - البيان النبوى للدكتور محمد رجب البيومى ـ دار الفكر مـايو ١٩٨٠م مطابع الناشر العربى ٠

٥ - تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان ـ الجـزء الأول ـ دار الهلال ٠

٦ - تاريخ الأدب العربى للدكتور عمر فروخ ـ دار العلم للملايين ـ الجزء الأول ٠

٧ - تاريخ الأدب العربى للأستاذ أحمد حسن الزيات الطبعة ٢٥

٨ - تاريخ الأدب العربى فى صدر الإسـلام والعصـر الأمـوى للدكتور السباعى السباعى بيومى ـ الطبعة الثانية مطبعة العلوم ١٩٣٥م٠

٩ - تاريخ الشعر العربى للدكتور محمد عبدالعزيز الكفـراوى ـ دار نهضة مصر ـ الجزء الأول .

١٠ - تاريخ عمر بن الخطاب للدكتور جمال الـدين بـن الجـوزى مصر ١٩٣٤م.

١١ - جامع الأصول فى أحاديث الرسول ، لابن الأثير الجزرى.

١٢ - حسن الصحابة فى شرح أشعار الصحابة تأليف: مفتى هرسك، مطبعة السعادة ١٣٢٤هـ.

١٣ - دراسات فى أدب الدعوة الإسلامية للدكتور محمود حسن زينى ـ مطبوعات مكتبة الخانجى.

١٤ - ديوان كعب بن مالك الأنصارى دراسة وتحقيق سامى العـانى ـ مكتبة النهضة ببغداد سنة ١٩٦٦م.

١٥ - ديوان حسان بن ثابت الأنصارى ـ دار صادر بيروت بدون.

١٦ - الروض الأنف للإمام المحدث عبـدالرحمن السـهيلى ـ دار الكتب الحديثة .

١٧ - الشعر الإسلامى فى ظلال النبوة والخلافة الراشـدة للـدكتور عبدالسلام عبدالحفيظ .

١٨ - السيرة النبوية لابن هشام ـ دار الفكر.

١٩ - الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق أحمد محمد شـاكر ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٦م.

٢٠ - العشرة المبشرون بالجنة: هدية صوت الأزهر٠

٢١ - العصر الإسلامى للدكتور/ شوقى ضـــيف ــ ط الســـابعة دار المعارف بمصر ٠

٢٢ - الفاروق عمر للدكتور/ محمد حسين هيكل مصر ١٣٦٤هـ٠

٢٣ - الكامل للمبرد ــ المكتبة التجارية ١٣٦٤هـ ٠

٢٤ - مقدمة ابن خلدون ط بيروت ١٩٠٠م٠

٢٥ - من قضايا الأدب الإسلامى للدكتور صالح بيلو ــ دار المنارة بجدة٠

٢٦ - النثر الفنى وأثر الجاحظ فيه د/ عبدالحكيم بلبع ــ لجنة البيـــان العربى ــ الطبعة الثانية ٠

٢٧ - نصوص أدبية من عصرى صدر الإسلام والأموى للـــدكتور/ حسن أحمد الكبير٠

٢٨ - النقد المنهجى عند العرب للدكتور/ محمد مندور ــ دار نهضة مصر للطباعة والنشر ٠

٢٩ - النقائض فى عهد البعثة المحمدية للدكتور حسن أحمد الكبير ــ الطبعة الأولى ١٩٨٤ مطبعة الشباب الحر٠

٣٠ - الوزراء والكتاب للجهشيارى طبعة الحلبى ٠

المحتوى